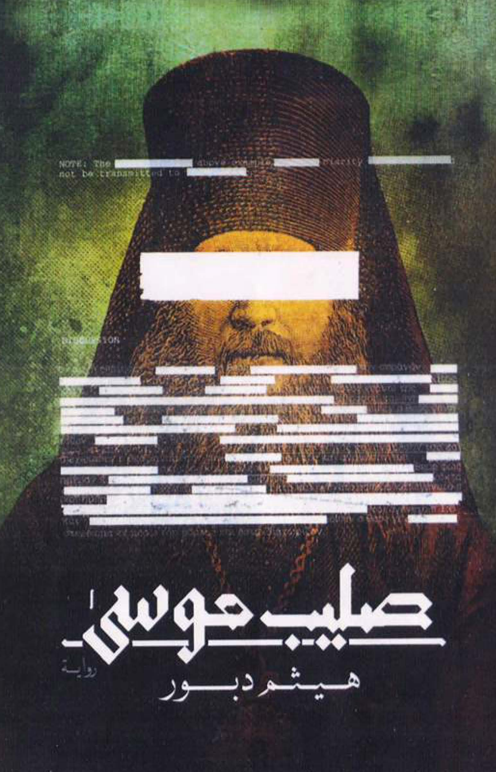


دار الشروق

هيثم دبور

صليب موسى

.. فالتاريخ مجرد رواية

دار الشروق

إهداء

سارة.. لولاكِ ما أنجزت هذا العمل

زين ورشيد.. لولاكما لأنجزته مبكرا

أحبكم

شكر..

لكل مَن ساهم في خروج العمل كما تمنيت.. فالقائمة طويلة

في أعقاب ثورة يناير عام ٢٠١١ وحالة السيولة السياسية والأمنية في مصر..

* اقتحمت سيارة دفع رباعي بوابة دير سانت كاترين وتم احتجاز اثنين من الرهبان، واضطُروا لدفع إتاوة ١٥٠ ألف جنيه.

* صدر ٧١ قرارا بإزالة كنائس دير سانت كاترين.

* حرر مجلس مدينة سانت كاترين ضد رهبان الدير محاضر تهرب ضريبي بغرض سجنهم.

المعلومات التي بُنيت عليها الرواية صحيحة..
الأسماء والشخصيات والأحداث والتفصيلات من خيال المؤلف، وأي تشابه محض صدفة..


CYAN

(١)

لا تركض.. فلا سبيل لنجاتك.

لا تنظر خلفك.. فلن تتخلص مما يلاحقك.. خطاه ثابتة كالزمن ويعرف أن مصيرك محتوم.

لا تحاول.. فالمعجزات لن تنجيك هذه المرة، تجافي راهبًا أشيب مثلك قضى عمره يتعبد في هذا الدير، قدماك الواهنتان تقنعانك بأنه ثمة أمل في الهرب، تنطلق كقطعة من الليل في لباسك الأسود، تخرج من مكتبة المخطوطات في طرف الدير الجنوبي، إلا أنك تعرف أن الليل في هذا الوقت من العام ليس بالأسود، الثلوج البيضاء تغطي جبل موسى البارز أمامك، يطل هذا القطن المتدرج كلحية كبير الرهبان، تغلق بوابة المكتبة على عجل، تهرول نحو ساحة الدير، تتراقص ظلال ليست لك على الأحجار الناتئة للأرضية، تهلع، تدلف إلى داخل قاعة الطعام ملتقطا أنفاسك، تستند بيدك إلى المائدة الخشبية، تسري في أوصالك قشعريرة، ربما بفعل البرد أو الخوف أو كليهما، أو أن الأمر يتعلق بتلك الطاقة المنبعثة من خشب المائدة الذي يضاهي عمره عمر بوابات دير سانت كاترين نفسه.

في تلك الحجرة قوطية الطراز ذات السقف المقوس اجتمعت كثيرا مع أقرانك، وهنا أيضا دأب أسلافك على غسل أقدام الحجاج، يخلعون نعالهم، تماما مثلما فعل موسى على مقربة ليُكلم ربه، تقع

عيناك على المذبح المقابل، لوحة «الحساب الأخير» التي تزين كامل الحائط وتعلو المذبح، تختلف عن تلك التي رسمها مايكل أنجلو في الفاتيكان وتليها بثلاثين عاما فقط، لكنها نفس الفحوى والصراع الأبدي، المسيح يمسك بميزان العدل، بينما يحارب الملائكة والقديسون الشيطانَ الأسود، يحتل أعوانه الجهة اليمنى: أفاع، ووحوش وعُصاة، بينما القديسون والشهداء يقفون في ثبات جهة اليسار، الطرفان يلاقيان مصيرهما في هذا اليوم، وأنت أيضا، لكنك لا تدري في أي جانب ستكون إذا لقيت حتفك الليلة، جل ما تثق به أن انتظارك في تلك الغرفة يجب ألا يطول، تخرج من جيبك مجموعة الصور الفوتوغرافية صغيرة الحجم، تشكّلها في رزمة كأوراق اللعب، من بين جميع الصور والوثائق التي تمتلك الولوج إليها اخترت تلك المجموعة الشخصية، عددها خمسة وثلاثون، تدوّن على ظهر إحداها شيئا ما بقلم أحمر اعتدت أن تحمله، ثم تضع الصور في ظرف أبيض، تكتب عليه جملة باليونانية بخطك المنمق، تعيد المظروف إلى جيبك، عدا الصورة التي انتقيتها للكتابة، تمسكها في يدك، توسم الصليب على صدرك أمام المذبح وتتحرك.

تخرج، اللون الوردي الذي تألفه يغطي كل شيء، يشوبه الأحمر، تهرول في النفق الممتد فوق الأرض في اتجاه البوابة القديمة، تتجاور كنيسة التجلي «البازليكا»، والمسجد، ثم يظهر سور الدير المرتفع أخيرا، يضيق صدرك بالهواء البارد، لم ترتدِ وشاحا هذه المرة يساعد على تدفئة الهواء الداخل إلى رئتيك، تواجه إحساسا حارقا في شعابك الهوائية، لكنك لا تكترث، تصل للبوابة القديمة الضيقة، أمامك البستان، أشجار الزيتون العتيقة خضراء مائلة

للسواد، على بُعد تبدو الأغطية البيضاء الموضوعة حول أشجار الرمان لوقايته أشباحا متربصة، يصفر الهواء كلما ضرب بلاستيك الصوبة الصغيرة فيفزعك.

تلتفت للمرة الأخيرة، تتراءى لك أسوار الدير وردية كما كانت دوما في عينيك، الأنوار تضيء المهاجع الجنوبية للدير، حمراء، وكأن المكان بما عليه يحترق بنيران السعير التي يعجز أي بشري عن إطفائها.. هنا تقرر أنه لم يعد في جعبتك المزيد من الوقت، فتركض!

لا تركض..

على عكس رحابة البستان الذي تتجاوزه.. يأتي ضيق التنفس، يغدو الهواء أكثر برودة، جافا، تعلم من طول بقائك في هذا المكان أنه لا يتوجب عليك الركض وسط الثلوج، يحتاج الجسم إلى بذل جهد إضافي ليس لضبط حرارة الهواء فقط، لكن لترطيبه.

لا تركض..

في هذا السكون الذي خلفه البرد القارس، يخلق صوت أنفاسك مع نعليك سيمفونية الفزع، فيتوه الإحساس لديك، هل تلك الأصوات لخطواتك أم لما يتبعك؟

تمر بجوار مبنى «كميتريون» كما تُنطق باليونانية التي تجيدها بحكم نشأتك، أو «المعضمة» كما في العامية العربية التي تتقنها بطول سنوات بقائك في المكتبة.. تنظر إلى المبنى، أقدم أماكن الدير والذي يقع خارج أسواره، بالداخل بقايا من حافظوا على هذا المكان لعقود طويلة، مئات الجماجم المحفوظة فوق بعضها كالتلال، والتي تمتلك عيناك قدرة غير عادية على تمييز أصحابها؛ عظام الأذرع والسيقان المتيبسة المرصوصة في انتظام خلاب

تربطها سلسلة من المسامير الحديدية تزن نحو ٦ كيلوجرامات تربط الرهبان في الموت كما كانوا مترابطين في الحياة رباطا أبديا، وتزيد «المعضمة» التي تحمل اسم القديس «تريفني» رسوخا في الأرض.. هأنتذا تفلت من هذا الرباط وتركض!

لا تركض..

تشد ساعة يدك بقوة، فينخلع الجزء المعدني من الجلد المهترئ لسوار الساعة، تلقيها خلفك وكأنك تتخلص من الزمن، تشعر بأن صليبك الفضي الذي يتأرجح على صدرك يشكل ثقلا عليك فتنزعه هو الآخر وتغرسه كوتد بارز بجوار الساعة.

يتناقص الهواء في رئتيك فتفتح فمك ليهب الهواء خلاله. لا تفعل؛ فالحنجرة غير مهيأة لتدفئة الهواء الذي عجزت عنه الأنف. تعلن خلاياك الغضب، تشعر بنوع من التشنج القصبي، تسعل بشدة، تتوقف لثانية، ثم تكمل الركض المنهك، فتسعل أكثر، يخرج دم من فمك يستقر على السجادة الثلجية التي تمتد بطول الأفق، تدرك أن الوقت قد حان، تحتضن الصورة بقوة، تهم بخطوة أخرى، فتخر مسجيا على الأرض، غارقا في عين من الدماء تدفقت عبر فمك وأنفك، صدرك الذي أخفى الكثير بداخله طوال سنوات، لم يتحمل المزيد من الهواء البارد.. وانفجر!

(٢)

لا يعرف «أحمد بهي» النوم في وسائل المواصلات؛ لذلك يشعر بالإنهاك فيفترش أرض المطار أمام سير الحقائب في انتظار

خروجها، يخلع حقيبة ظهره الثقيلة المدعمة بألياف لحماية كاميرا التصوير الاحترافية والعدسات الخاصة بها، دائما ما يغلبه ذات الإنهاك عند عودته من شفشاون إلى القاهرة، نحو خمس ساعات يقضيها للعودة من البلدة المغربية الزرقاء إلى كازابلانكا، ومثلها في الطائرة إلى عاصمة بلاده، وبينهما وقت الانتظار وإنهاء الإجراءات، يُخرج هاتفه المحمول ويطلب خدمة العملاء ليؤدي مكالمة معتادة، يطلبُ من الموظف فيها إعادة تشغيل باقة الإنترنت على هاتفه لأنه قد ألغاها أثناء السفر خوفا من سعر المحاسبة المرتفع، يؤكد له الموظف أن الخدمة ستعود للعمل بعد دقائق ويغلق.

يمر به اثنان من تلاميذه في الرحلة يرتديان مثله الملابس القطنية البيضاء الفضفاضة، وصلت حقائبهما فحملاها إلى الخارج مع تحية سريعة ووعد بلقاء قريب وعبارات الثناء على الرحلة والتنظيم، بينما يخبرهما أنه ينتظر رؤية نتاج الورشة من صور التقطاها على صفحاتهما الخاصة بمواقع التواصل الاجتماعي.

يتناقص المنتظرون تدريجيا، بينما لم تظهر حقائب «بهي» كما يناديه الجميع لدرجة جعلته ينسى أنه يشترك في اسم شائع مع الملايين، فغدا اسم جده اسمه، يمر به آخر الملائكة البيض الذين رافقوه في رحلته، يعرض على «بهي» أن ينتظر معه حتى تظهر حقائبه فيحاول الأخير إثناءه، يعرف أن الرحلة كانت مرهقة للمشتركين أيضا، فهو معتاد على تنظيم تلك الرحلات السياحية التعليمية المختلفة، حين ترك العمل في إحدى الصحف كمصور صحفي لينشئ مشروعه الخاص الذي هو مزيج بين رحلات ينظمها تجمع بين جولات أكثر إثارة في موضوعاتها، وفرصة لتعليم محبي

التصوير مهارات إضافية، يسمي الرحلة إلى شفشاون «سيان»، كما في الألواح المسئولة عن الطباعة، تحتاج الطابعة لتكامل أربعة ألواح لتشع المطبوعات بالألوان والحياة، كل لوح مسئول عن درجات لون معين، «سيان» أول تلك الألواح، اللوح الذي يحتضن اللون الأزرق بدرجاته، نصح مرافقيه بارتداء الأبيض لانسجامه مع درجات الأزرق المكونة لمباني «شفشاون»، قِطَع من السحاب الأبيض تطوف في السماء الزرقاء، هكذا كانوا في يومهم الأخير.

جاءته فكرة تلك الرحلات قبل سنوات حين زار «فينيسيا» فوجد بها جولة سياحية غير شائعة تسمى بجولة الأشباح، يبدؤها المرشد السياحي قبيل انتصاف الليل، يحمل ومعه المشتركون شموعًا، يطوفون شوارع فينيسيا حيث يحكي لهم عن قصص الجريمة واختفاء الأميرات، وأساطير الكتاب، والأماكن التي دارت فيها عدد من الوقائع المرتبطة بالقتل أو خيال الروايات العالمية.

فلما قرر ترك الصحافة بعد واقعة لا يطيق ذكرها، بدأ مشروعه، جولات سياحية مختلفة، اعتمد فيها على قراءاته التاريخية والجغرافية المتعمقة، أرشيف والده الضخم، وحبه للسفر، فضلا عن خبرته الصحفية التي أهلته للتعامل مع البشر بحرفية ومع الوقائع التاريخية بروح هاوٍ للتوثيق.

وهكذا، خلال سنوات نظم رحلات تسير على خطى رحلة العائلة المقدسة في مصر، أو تتبع درب موسى في كاترين وتفند بعض المعلومات الشائعة ضعيفة النسب، أو توثق الخرافات حول قصر البارون إمبان في مصر الجديدة، وتسير تحت الأرض بصورة غير رسمية في دهليزه السري الرابض بين القصر وكنيسة البازليك.

على الجانب الآخر من طريق صلاح سالم، ذاع صيته فوسّع دائرته ونشاطه، يتقفى خطى الإبل من أم درمان إلى برقاش، أو اغتسال الهندوس في نهر الغانج مع اكتمال القمر، مرورا بدولة المجاهدين الهاربين من الأندلس في شفشاون، نوع جديد من السياحة لم يعتده الجيل الأكبر من المرشدين السياحيين والأثريين المخضرمين، فوصفوا صاحبه بـ«النصاب»، خاصة وأنه لا يحمل شهادة فيما يقول إلا قراءاته المتعمقة وحكاياته المثيرة.

بعد قليل انسل الملاك الأخير الذي عرض انتظار الحقائب مع «بهي» بحجة الذهاب للحمام، خرجت جميعها تقريبا، يسأل «بهي» أحد العاملين المارين أمامه في المطار فيجيبه: «على وصول»، يقولها الموظف بلا علم أو اجتهاد للمعرفة، نوع من التعزية المعتادة في تلك المواقف بالصبر، يقف «بهي» باحثا عن رئيس وردية أو موظف أعلى سلطة ليسأله فلا يجد، يقترح عليه راكب ينتظر عربة أطفال تأخرت هي الأخرى أن يفضحهم على الإنترنت، أو يشن حملة على العاملين بالمطار، بعد نحو عام من ثورة يناير غدت تلك الطريقة الشائعة في محاولة ضبط أداء المؤسسات، في الوقت الذي تعاني فيه تلك المؤسسات من حالة سيولة مفادها الصورة المرتبكة التي خلفها سقوط رأس المركزية الإدارية بالدولة لأعوام دون خطة أو بديل.

لا يهتم «بهي» بالنصيحة، لكنها تذكره أن يشغل وقته بتصفح هاتفه والتأكد من عودة خدمة الإنترنت، يجد رسالة نصية وصلته للتو من رقم مميز لا يعرفه عبر تطبيق WhatsApp، تلك الأرقام التي تمتلئ بالمتشابهات وتعطي انطباعا بأهمية حاملها، يتفحص

صورة المرسل قبل الرسالة، فتاة أوروبية جميلة بملامح هادئة، تمسك في يدها حيوانا صغيرا مزيجا من الماعز والغزال، ذا قرون صغيرة، لم يكن على دراية أن ما بين يديها الرقيقتين «تيتل مصري»؛ أحد الحيوانات النادرة التي تتواجد في سيناء والنوبة والتي تنحدر من سلالة الغزلان، والتي تناقصت بشدة بسبب الصيد الغاشم لقطعانها. يدقق في الصورة حتى يستشف المزيد عن صاحبتها، صورها شخص غير محترف بكاميرا هاتف محمول في الأغلب، أما الفتاة فيبدو أنها تعمل في هذا المجال إذ كانت سعيدة بجوار حيوانها، تبتسم في سحر وعذوبة.

يضغط «بهي» على الرسالة التي كتبت بالإنجليزية ليقرأها:

«بهي، اسمي روث، إذا وصلتك هذه الرسالة فغادر المطار فورا، إنهم في الطريق إليك، أعلم أن ما أقوله غريبا، لكن نصيحتي لك ألَّا تثق بهم على الإطلاق، سأعرف كيف أصل إليك، المهم أن تغادر الآن وفورا».

يشعر «بهي» بقلق، يضغط على الرقم الموجود بجوار الصورة، لا رنين، انقطاع متتالٍ وكأن الخط الآخر مغلق، يلتفت، سير الحقائب فارغ من المتاع والمنتظرين أيضا، هو وحده. ينتبه هذه المرة لأمر آخر، عدد من الرجال يرتدون قمصانا يقفون في أركان المكان، ليسوا موظفي المطار المعتادين، ليسوا ضباط الأمن كذلك، ربما يكونون فريقا أمنيا خاصا إذ يضعون المسدسات في خصورهم، يزداد توتر «بهي» فيضطرب تنفسه كذلك قليلا، يقرر المغادرة، سيترك الحقائب، لكنه لن يتخلى عن حقيبة ظهره التي تحوي الكاميرات، يحملها ويترجل مسرعا، بمجرد تحركه

خطوات، يلاحظ أن بعضهم بدأ في إرسال إشارة عبر جهاز اتصال، يزيد من سرعة خطواته، لا يدري لماذا فعل ذلك إذ بدا له الأمر فيما بعد جنونيا، لكنه ركض، ينظر خلفه واثقا أن الرجال فعلوا الأمر عينه لكنهم لم يتحركوا من مواقعهم. هل ينتظره أحدهم بعد بوابة الخروج؟ تساءل في نفسه، يعاود النظر أمامه، يصطدم بعربة دفع حديدية للحقائب.. ويسقط.

في سقوطه يجد أن الرجال يقتربون في هدوء وروية أكثر كأنهم يضيقون الدائرة، تمتد يد له لتساعده على النهوض؛ رجل بحذاء لامع، يرفع رأسه فيجد أشيب في الخمسين من العمر، بدينًا بفعل الزمن رغم محاولته لإخفاء ذلك النتوء الدهني بحزام جلدي، له شارب كث، رغم ملابسه المدنية يبدو عسكريا، نظرته كاشفة، بسمته غائبة، وملامحه متجهمة تنذر بأن «بهي» في مصيبة، يرفعه، فينهض المصور، يشعر أنه بحاجة للذهاب إلى الحمام أكثر من أي وقت مضى، يكور الرجل الخمسيني قبضته اليمنى ويرفعها رأسية، إشارة لأعوانه بمعنى «ثابت»، فيتوقف الرجال من خلفهما، يتأكد «بهي» من تخمينه بشأن خلفية الرجل، يقول الرجل الخمسيني البدين: «هناك طريقتان لفعل ما سأفعله، إحداهما بسيطة يا بهي، أتمنى أن تختارها»، ثم يشير بيده في اتجاه دخول صالة الوصول مرة أخرى، ويصمت.

(٣)

رحلة خاصة طلبتها السائحة الألمانية الستينية قبل أن تلتحق ببقية المجموعة على سفح الجبل، لكن «سليم» تأخر، تخرج رغم

البرد خارج المخيم وتدخن سيجارة في ضيق، لم تكن الرحلة مرادها، فهي تشتهي فحولته، تلمح نور سيارة صحراوية رباعية مفتوحة «كار باجي»، تقف مسرعة مخلفة طبقة من الرمال التي تخالط الثلوج الناعمة فتتهلل السيدة، تظهر عينا «سليم» من خلف الوشاح السينائي الذي يغطي بقية وجهه، تركب، فينطلق، تجده صامتا فتضع يدها على صدره وهي تسأله عن سبب تأخيره، تقع أصابعها على سائل لزج يغطي جلبابه، تفركه، تقربه من أنفها، فيه رائحة الدم، تصرخ، فيقول دون أن ينظر لها: «أبو ريشة»، لا تفهم السيدة ولا تهدأ فيفسر: «ما تسمونه بثعلب الرمال.. هاجمني فقتلته».

تهدأ السيدة قليلا، تمسح يدها في كُم معطف يرتديه فوق الجلباب، يتوقف «سليم»، ينزل من السيارة ويحمل أحد الأعواد الخشبية الملفوفة بقماش في مقدمتها، يسكب قليلا من الكيروسين، يشعلها ويناول السيدة المشعل، تسأله: «وأنت؟!»، يتقدمها في الدروب الجبلية ولا يجيب فهو يعرف طريقه في الظلام جيدا.

بعد دقائق يصلان أمام عين مياه «خرزة الشق»، كمتمرس يحفظ أركان الصحراء المظلمة الواسعة، يمسك «سليم» المشعل من السيدة ويلقيه على كومة من الخشب يعرف مكانها جيدا، فتصنع ضوءا راقصا ودفئا نوعيا في محيط النيران، يطل برأسه إلى قمة جبل عباس الذي يحتضن العين، رغم بعدها، تلوح الأضواء من هناك، لقد وصل الأدلة مع بقية مجموعة السياح لمشاهدة الشروق من أمام السور المنهدم لقصر الوالي العَلَوي.

تخلع السيدة كامل ملابسها رغم برودة الجو وتقفز إلى العين

التي بدت مياهها أدفأ من بقية المكان، يحتاج «سليم» لإفراغ طاقته وشهوته بعدما فعله الليلة، السيدة الأجنبية تراوده منذ أيام، ربما لو عرفت أنه ابن السابعة عشرة لوجلت، لكنها لن تدرك بثقافتها الغربية أنه هنا في سن الكمال والرجولة، ولولا أنه من أبناء زواج القصلة لكان متزوجا من ثلاث نساء ويحمل كنية تبدأ بـ«أبو».

يقترب «سليم» من المرأة الشبقة ويميل بجذعه تجاه العين ويخبرها أنه لا يريد سوى الاستمناء بكفها، تتعجب السيدة وتحاول أن تغريه وهي تتواثب داخل الماء لتريه مفاتنها التي خط الزمن فيها خطوطه، فتدلت ضروعها الجافة، لكنه لم يبالِ بدلالها ولم يستثار بأثدائها، يقول إنه لن يقدر إلا على الاستمناء، عضوه «كالسعن»، قربة خض الحليب الأفقية وهي معلقة على حبال تسمى «الرواجيح»، يتمنى فقط أن تحركه ذهابا وإيابا لتحول الحليب داخله إلى لبن رائب، يصر على طلبه، تسبه، يعود «سليم» بجوار النار، يخلع معطفه ثم جلبابه، يظهر عاريا تماما أمام السيدة فتصيح مذهولة: «يا المسيح!».

كان جسده محمرا في مناطق عديدة من صدره، متفحما، مكونا طبقات من الجلد الميت الأسود في كتفيه وقدميه ورقبته، وكأنه خرج من النيران للتو، يلتف، تضفي أنوار النيران بشاعة لجسده الفائر بالفحولة، ظهره بالكامل مصاب بآثار حروق متعددة، تلعنه السيدة وتصفه بـ«المسخ».

رنين الوصف وصداه يخترقان أذنَي «سليم»، هنا يستدير، ينظر لها، لا تدري إن كان الشرر تطاير من عينيه بالفعل أم أن ذلك تأثير النيران المجاورة، يخطو تجاهها فتخاف، يحمل المشعل في يده

من رأسه المشتعل، يطبق كفه على النيران، يكاد قلب السيدة أن يتوقف، كيف لا يتأوه بفعل اللهب الذي يمسكه، يغرس المشعل أمامها ويقول وهو يشير إلى الجبل البعيد: «ها هو ذا جبل عباس حيث ينتظركِ البقية.. أتمنى ألا تتجمدي في هذا البرد».

يتركها ويحمل التراب ليردم كتلة النيران التي تضيء المكان، يحمل ملابسه، يتحرك وسط الظلام، مخلفا وراءه السيدة وسط صراخها وعريها ومشعلها الصغير، لتتخذ قرار الصعود إلى الجبل الذي لا تعرف دروبه، بينما تعلّم خطواته الطريق وسط الظلام جيدا، يرتدي ملابسه أثناء صعوده، فيلتصق السائل الأحمر اللزج المتبقي كأثر لجريمته بيده، أخبرها أنه ثعلب وصدقته، يمسح الدم في معطفه، بينما يشعر بسخونة كف يده الذي أمسك نيران المشعل، لكنه اعتاد ذلك، علاقته بالنار معقدة منذ الصغر، إلا أن العلاقة الأعقد التي طرأت بعد بلوغه هي الجنس، لم تعد كفّاه الخشنتان تساعدانه على إفراغ شهوته بنفسه، لا يقوى على مصاهرة عائلات البدو، ولا يستطيع إشباع حاجة سيدة مسنة لأن تكتلات الجلد الميت المحترق ستثير غثيانها، احتكاك بشرته المتيبسة كجفاف الصحراء بجسدها المترهل سيجعل العملية مستحيلة، وكأنها تعرت واحتضنت صخرة خشنة من جبال سيناء لتمارس معها الجنس.

لا تخف في سيناء سوى ممن لا يملكون شيئا لخسارته، أو صغار السن ممن يفعلون أولا ثم يفكرون في العواقب، أو ممن يحملون نفسا ساخطة على ما حولها، وقد امتلك «سليم» ثلاثتها بوفرة. يخفت صوت صراخ السيدة تدريجيا كلما ارتقى «سليم»

إلى قمة الجبل، بعض السياح يتدثرون ببطاطين خفيفة في انتظار الفجر القادم بعد ساعات، بينما يُنشد لهم أحد البدو للتسلية، ينظر «سليم» للمشهد باحتقار.

يستند بظهره على الحائط غير المكتمل لقصر عباس حلمي الأول، والتي أسموا قمة الجبل باسمه، يعلم أن السيدة لن تنجو، سيصله خبرها بعد يوم أو اثنين على الأكثر، يرفع جلبابه، في فخذه مكان لم يحترق بعد، سيستخدمه حين يصله الخبر، لكنه الآن يحتاج للهدوء لينفذ التالي، يميل بخده على الحائط، يمسح وجنته فيه ككلب وفيّ، ها هُنا عمل لم يتم إنجازه بعد، ولا بد أن ينجز، وبسرعة.

(٤)

في ١٨ رجب سنة ١٢٧٠ ـ من عباس حلمي الأول إلى كتخدا «بناء على مفاد التحريرات السامية من مقام الصدارة العظمى فقد انقطعت العلاقات السياسية والدبلوماسية والمعاملات التجارية بين دولتنا العلية ودولة اليونان، وعلى ذلك تقرر سفر القناصل ووكلائهم والتبعة اليونانيين إلى بلادهم في ظرف خمسة عشر يوما».

يمسح الغلام «شاكر حسين» على جبهة الفرس فيصهل، يشده رفيقه «عمر وصفي» هامسا بأنه لا وقت لذلك، يشعر «شاكر» بالخوف، يذكره أنهما إن انكشفا سيقطع والي مصر رأسيهما، فهو لا يتهاون عن العقاب والقتل والجلد، يُذكره بأن الرجل على عكس

جده «محمد علي باشا» أمر بإنشاء هيئة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. يسري الخوف في نفس «عمر» أيضا، لكنه يحاول أن يُطمئن كليهما، يخبره أن ما يفصلهما عن الرحيل ساعات، سيأخذان جوادين من المفضلات للوالي ويرحلان إلى الأستانة، هناك ستكون الأمور أفضل، نازلي هانم عمة عباس باشا ستوفر لهما الحماية فلا داعي للقلق.

يترجلان من الإسطبل في اتجاه القصر المطل على نيل بنها، يصعدان إلى الدور الأول حيث مخدع الوالي، يدخلان عليه فيجدانه يصلي العشاء، كان شديد التدين، خلفيته الوهابية وإقامته في «جدة» لفترات طويلة جعلته مختلفا عن الأسرة العلوية، ساعد على هروب أسرى الحجاز الذين دفع إبراهيم باشا شبابه وعمره في محاربتهم، أغلق الدكاكين وقت الصلاة، وأصدر فرمانا ملكيا بإلزام ولده بأداء الفروض الخمسة، ليس نصحا ولا قرارا أبويا، بل فرمانا ملكيا.

أمام ذلك حسبه أقاربه متطرفا يفقد صوابه تدريجيا، فما كان من «عباس» إلا أن شكك فيهم واعتزلهم، فاعتزلوه وهرب بعضهم إلى الأستانة، وبين سطوة الباب العالي ولحى الوهابية، يقف الغلامان «شاكر» و«عمر» في صراع لا طاقة لهما به.

ينتهي الوالي من صلاته فينحني الغلام، يضع أمامه طبقا من فاكهة، وإبريقا فضيا من ماء الورد، بينما يحمل الآخر أدوات المائدة ليضعها بجوار الأطباق، يتعرق «شاكر» فيرتاب الوالي في أمره، يسأله عن السبب فيتأتئ، كان هارون أفصح لسانا من أخيه موسى، وكذلك «عمر»، فأجاب نيابة عن العبد الثاني بأنه يعاني من

حمى صيفية، ينزعج الوالي، يصيح بأن يغيرا له الطعام والمياه فورا خوفا من العدوى، يزيد بأنه سيترك الغرفة لغرفة أخرى خوفا من انتقال الجراثيم إلى الهواء، فيجفل «عمر»، لقد انهارت خطتهم قبل أن تبدأ، وكيف يفعل، والمائدة والوسائد والفراش وأمشاط الشعر وكل ما قد تقع عليه يد الوالي مسممة؟!

لكن الأمر لم يكن غريبا على رجل متشكك مثل عباس، أوقف البعثات التعليمية والتعامل مع الأجانب لارتيابه فيهم، نشر الجواسيس في عهده، فجاءه أحدهم بخبر من قمم جبال سيناء الشرقية، تجحظ عينا الوالي، كيف يكون لبشر مثل تلك القوى على الأرض؟! لو أن الأمر خارج الدير لاقتحمه فورا وأخذ ذلك الكنز، لكنه يعلم أن تعديه على رهبان سيُعجل من تدخل عسكري فرنسي وإنجليزي، خاصة وأن مندوبي الدولتين لا يطيقانه، يحتاج الأمر لحكمة أكبر من ذلك، يهمس الجاسوس بمكر شديد لـ«عباس» أنه سمع أن بعض أقاربه يعرفون عن هذا الكنز ويحاولون الوصول إليه بمباركة الباب العالي.

ليس هناك وقت، دائما الأمر كذلك! الخادم المكلف باغتيال الوالي شعر بذلك، كما الوالي حين سمع عن الكنز، يأمر، وهو الذي لم يهتم بالإنفاق على القصور، بإقامة قصر مُطل على الدير، يسمى «قصر الطلقة»، من أجله تم تعبيد طريق إلى قمة الجبل الذي حمل بعد ذلك اسمه، نحو ألفين وخمسمائة متر من الدرجات، يضع مهندسوه الخرائط، ويشرعون في بناء السور، يصل الخبر إلى الأستانة، فيدركون الحقيقة التي لا تتغير.. ليس هناك وقت.

قبل أقل من شهرين أصدر عباس حلمي فرمانا بطرد كل من

يحمل الجنسية اليونانية بلا استثناء: سياسيين أو تجار أو حتى رهبان عجائز يختبئون على بعد أمتار من سور قصره الذي بدأ في الارتفاع، بعد تدخلات أوروبية، قرر مد المهلة، ولمَ لا والقصر لم يكتمل بعد، ومهمته في تدمير الكنز لا تزال في بدايتها، بينما مهمة خصومه في التخلص منه والاستيلاء على الكنز وشيكة، يتوقعون سماع أخبار الليلة، إلا أن تعرُّق «شاكر» ينذر بفشل المهمة!

ينظر «عباس حلمي» في عينَي «عمر» فيشعر بالخطر، أمر ما في هذين العبدين ليس على ما يرام، يركض تجاه باب الغرفة، تقع الفضية وتتبعثر الفاكهة، يسبقه إلى الباب الغلام «عمر» الذي انتقاه وكيله من سوق العبيد، حداثة سنه تعطيه الأفضلية للوصول أولا إلى المنفذ الوحيد لتلك الغرفة الكبيرة، يغلق الباب ويسنده بظهره، يحاول «عباس» أن يبعده، قبل أن يأتي العبد الخائف «شاكر» من خلف ظهره ممسكا حبلا صوفيا يزين الستارة ويخنق الوالي، تجحظ عينا الرجل مع اختناقه، يسقط على الأرض، يشعر الغلامان بالصدمة للحظات، لقد فعلاها، يفتحان الباب ويركضان إلى الإسطبل، يركبان فرسين، ينطلقان شرقا، الوصول للأستانة يتطلب المرور بسيناء، يتيه الغلامان في الصحراء، كما تاه السابقون، وتتوقف حوافر الفرسين عن رفس الرمال التي من أجلها سالت دماء العديد.. ولعابهم أيضا.

(٥)

يجتاز «عاكف بك» الأبواب بمن يقف أمامها من رجال الأمن بخفة لا تناسب بدانته أو تجاوزه الخمسين، يحييه حراس الأبواب

بـ«افندم»، بينما ينطقها أخيرا أحدهم: «تفضل يا عاكف بك»، هكذا عرف «بهي» اسمه، يسير بجواره بعد أن استعاد توازنه، يسأل الرجل وهما لا يزالان يسيران إلى داخل المطار مرة أخرى: «فيمَ تريدني يا افندم؟»، لا يجيب الرجل ولا ينظر له، يلتفت «بهي» فيجد مجموعة من رجال «عاكف» يسيرون خلفهما بنفس الإيقاع.

يُطمئن «بهي» نفسه وتنفسه الذي قد بدأ يضيق، بالتأكيد سيعرف في أحد المكاتب المغلقة في المطار، لكنهم يتجاوزون المكتب تلو الآخر، يغادرون الجوازات والسوق الحرة، إلى أن وصلوا إلى إحدى قاعات الخروج لمهبط الطائرات، كانت خالية، يسيرون في بهوها إلى أحد الأبواب الزجاجية التي تظهر من خلفها طائرات الركاب. يقف ضابط شرطة على الباب، يفتحه بمجرد رؤية «عاكف بك» ورجاله، من خلفه تظهر عربة مرسيدس سوداء يجلس فيها سائق من موظفي المطار، تتوقف خلايا «بهي» العصبية عن دورها في تهدئته، وتشتد نوبة ضيق التنفس المصاب به، والتي تباغته مع الصدمات أو الأمور التي لا يقوى على مواجهتها، يلقي بحقيبة ظهره ويجثو على ركبته ليُخرج بخاخة موسع الشعب الهوائية التي تساعده دائما، يفزع رجل أصلع من رجال «عاكف بك» فيلقي بنفسه على «بهي» ليطرحه أرضا ويجثو فوقه مانعا يديه من الحركة، بينما يمسك رجل آخر بالحقيبة، يخرج ضابط الباب الزجاجي مسدسه، تتوتر الأجواء، بينما يسعل «بهي» وهو غير قادر على التنفس، يحاول رفع رأسه، ملامح الرجل «الأصلع» تخيفه، يلتفت «عاكف» في هدوء، ولا يحرك ساكنا، ينظر إلى بخاخة الربو التي سقطت من الحقيبة بالفعل، يشير بيده لرجله «الأصلع» أن يترك «بهي»، ينهض

الرجل لكن «بهي» لا يقوى، يزحف قليلا نحو البخاخة، يدسها في حلقه، بينما يتولى الرجل الثاني أمر الحقيبة، يغلقها ويصادرها، ينظر له «عاكف بك» ويقول بلهجة آمرة جملته الوحيدة منذ أن تحركا معًا: «وهاتفه المحمول أيضا».

يخطو «الأصلع» تجاه «بهي» ويبدأ بتفتيشه، يستجيب الأخير بسهولة ويخرج هاتفه من جيبه ويناوله للرجل فيصادره مع الحقيبة، يسأل «الأصلع» بهي: «هل أخبرت أحدًا أنك عدت؟ رأيناك تتحدث في المحمول».

يقول «بهي» وهو ينهض: «خدمة العملاء لاستعادة باقة الإنترنت».

يتفحص «الأصلع» المحمول فيجد أنه رقم خدمة العملاء بالفعل، ينظر إلى «عاكف» ويهز رأسه بمعنى أن الشاب صادق، فيأمره «عاكف»: «أغلقه!».

يتجاوز «عاكف» الباب، يتسمر «بهي» في مكانه، فيدفعه الرجل الذي يحمل الحقيبة دفعة خفيفة، يركبون السيارة، بينما يركب بقيتهم سيارة تليها، أيقن «بهي» أنه بصحبة رجل يمكنه السير في مهبط مطار القاهرة الدولي في اتجاه لا يعرفه، الأنوار الزرقاء التي تومض فوق المباني لتنبيه الطائرات تلمع في عينيه. سيان، لون بارد، يشبه تلك الليلة من أوائل ديسمبر، بعد عدة ساعات ستكسو تلك الزرقة السماء لتكسبها لونها المفضل، اليوم أيضا يسير بنفس ترتيب ألواح الطباعة التي تتخذ مصطلح «CMYK» اختصارا للأحرف المكونة لأربعتها:

«Cyan» (سيان): الأزرق، الذي يعلن سطوته في غياب الشمس مُنذرًا بشروقها.

«Magenta» (ماجينتا): الأحمر الدموي، لون الشروق، مخاض الشمس الذي لا بد أن يأتي مصحوبا بالدم كأي مخاض.

«Yellow» (يلو): الأصفر، النهار بطوله، الذهب الذي يسعى خلفه الجميع في ساعات العمل، والغيرة المقرونة بالتنافس كذلك.

«Black» (بلاك): الأسود، الليل، وخفاياه وأسراره، الموت والحداد على الدم الذي سال طوال يوم مرهق.

تتجاوز السيارة المرسيدس عدة «هناجر» حتى تقف إلى أحد أطراف المطار حيث تستقر طائرة هليكوبتر تدور مروحتها بقوة. يتعجب «بهي»، لم يسبق له أن رأى طائرة هليكوبتر في مطار مدني، ومن هذا الرجل الذي يمتلك سلطة الهبوط في مطار القاهرة بطائرة هليكوبتر كبيرة؟ والأهم الذي يخشى أن يفكر فيه: إلى أين ستأخذه تلك الطائرة التي تنتظر قدومه من خارج البلاد؟

يهبطون من السيارة في اتجاه الطائرة، يخفضون رءوسهم فيفعل «بهي» مثلهم، لا يزال بحاجة إلى أن يفرغ مثانته، لكن ذلك لن يكون من أولويات خاطفيه إذا طلب الأمر، يركب الطائرة فيحيطه «الأصلع» والرجل الذي يحمل حقيبته بينما يجلس أمامه مباشرة «عاكف بك» وبجواره ثلاثة من رجاله، يطمئن مساعد الطيار أن «بهي» شد حزامه، ويغلق الباب.

ترتفع الطائرة، يسأل «بهي» الرجل الخمسيني أمامه: «أحتاج لمعرفة وجهتنا ولماذا تتحفظون عليَّ، أعتقد أن هذه أبسط حقوقنا بعد الثورة».

يثبت «عاكف» نظره على عينَي «بهي»، لا يرمش ولا يجيب، فيجفل «بهي» ويصمت، سيعتمد على نفسه إذن في معرفة الطريق،

تحديد الاتجاهات في الليل ليس بالأمر السهل خاصة إن كنت داخل هليكوبتر بصحبة رجال «عاكف بك»، لكنه سيحاول، يطل برأسه نحو زجاج الشباك الذي يفصله عنه «الأصلع»، ثم يلتفت لشباك الجهة المقابلة، تثير حركته توتر أحد رجال «عاكف» فيسأل الرجل قائده: «هل أقيده يا افندم؟».

يهز «عاكف» رأسه بأنه لا داعي لذلك فهو لا يخشى هذا الشاب الصغير الذي يشارف الثلاثين، كما أنه يريد أن يعرف فيما يفكر الموتور المفزوع، فربما أفاده فزعه، يستمر «بهي» فيما يفعل، يسرع، في الليل تتوه المعالم وتصبح أصعب، يقول وهو ينظر لـ«عاكف» أخيرا بطريقة استعراضية يستخدمها في رحلاته السياحية والتعليمية وتعطيه شخصية مميزة في عمله:

«نحن نتجه شرقا». ينظر «عاكف» باهتمام للشاب لكنه لا يبدي ذلك، فيكمل «بهي» ليتأكد من تحليله، ويضيف: «شمالا تقع مناطق جسر السويس ومدينة السلام وعين شمس، تكثر فيها العشوائيات والعمائر الطويلة والشوارع الضيقة، غربا مطار ألماظة ومصر الجديدة بتقسيمها المعتمد على الميادين الدائرية، وكلاهما لا يظهر أسفل منا، لا شوارع ضيقة ولا ميادين دائرية، إذن نحن نتوجه إما جنوبا وإما شرقا، المدن الجديدة على طريق السويس شرقا أو منطقة التجمع الخامس جنوبا تتشابهان، إلا في فارق بسيط، جنوبا تكثر المراكز التجارية (مولات) ذات المساحات الهائلة وأنوارها تضيء بِرَك المياه والنوافير، وهو ما لم يظهر أيضا، إذن نحن نتجه شرقا، ولو صح ما أقول، فهي دقائق ونرى خطا مستقيما من المياه هو قناة السويس».

يندهش «عاكف» من الذاكرة البصرية للشاب، الأمر سهل أن تحدده إذا كنت عسكريا، لكن تاريخ المصور بعيد كل البعد عن العسكرية، لم يصادف «عاكف» كثيرا ما فعله «بهي» للتو، يصمت ولا يجيب، فيُحبَط «بهي»، يعتقد أنه فقد فرصته في خلق حوار مع الرجل الذي يهابه كثيرا.

حتى عندما صح ما قاله «بهي» وظهر الشريط الأزرق الداكن المائل للسواد في الليل، ثم بدأت قمم الجبال تظهر رويدا رويدا، لم يسعَ «بهي» لإضافة المزيد، لكن نظره وقع على شيء ما جعله يفزع، يقول بخوف شديد إلى «عاكف»: «هناك أمر جلل حدث في دير سانت كاترين؟».

يلتفت له جميع رجال عاكف وقائدهم بعد أن استرعى اهتمامهم بمعرفته، يلمح نظرات أعينهم فيقول وهو يشير إلى كتل نارية تضرب ومضات من الزُّرقة بين الحين والآخر على القمم البعيدة الكاشفة للدير:

«سيان.. لون النيران.. إن بدو الجبالية يلقون ببعض النحاس فوق النيران ليتوهج باللون الأزرق المخضر.. عادة متوارثة.. اللهب الأزرق على قمم الجبال إشارة قديمة للتحذير بوجود خطر».

(٦)

ينهض «عبد العزيز فيّاض» رئيس مدينة سانت كاترين من نومه، وبالتبعية تصحو زوجته، بسبب رنين هاتفه الذي يحمل رقما دوليا تركيًا، والذي يضعه في درفة يخزن بها جواربه داخل الدولاب،

ينهض متثائبا، ينظر في ساعة أحد المحمولين الموضوعين على حافة الـ«كومود» المجاور للسرير، أوشك الليل على الانتصاف، يشير لزوجته التي أضاءت نورا مجاورا أن تعود لنومها، لكنها لا تفعل، فالقلق عليه رفيقها طوال حياتهما معا، يتقدم إلى الدولاب، يُخرج المحمول الثالث الذي لا يعلم عنه أحد ـ باستثناء زوجته ـ شيئا، يعلم مَن المتصل؛ فهذا المحمول مخصص لمكالمات مؤمنة عبر الإنترنت لرقم وحيد، يجلس صاحبه على مضيق البوسفور، يقول بصوت أجش: «هل كنت نائما؟!».

لا يحب «فيّاض» الأسئلة الغبية، يسخر منها، طبيعته لاذعة، لكنه لا يستطيع أن يفعل ذلك مع المتصل الذي يحمل رمز «#» على هاتفه المحمول، فالسخرية ثمنها كبير، يتنفس محاولا ابتلاع دعابته، ويزوم بمعنى نعم، يسأله المتصل بذات النبرة التقريرية: «لقد قُتل كاهن الدير بافلوس.. ماذا فعلت؟!».

«بافلوس!»..

هو لم يفعل شيئا، ولم يأمر بذلك، كل ما هنالك أنه أمر «سليم» أن...، «سليم».. ماذا فعل هذا الأرعن؟! سيفسد ما بدأه «فيّاض» قبل أعوام، وتحمّل بسببه صلف وغرور الرجل الذي يدونه بعلامة «#»، يجيب محاولا ضبط نفسه حتى لا يثور المتصل: «سأحقق في الأمر لأعرف ما حدث».

يجيبه المتصل بلهجة آمرة: «ليس المهم الآن معرفة ما حدث، نحن أمام معطيات جديدة، تتطلب التحرك الفوري والعاجل.. هل تعلم إن كان قداس الغد لا يزال قائما؟!».

قداس الغد.. بعد عدة ساعات لن يشهد الدير قداسا اعتياديا،

إنها احتفالية القديسة سانت كاترين، والتي تعقد على يومين، يبدأ القداس الأول في الخامسة مساء، ثم قداس يليه في فجر اليوم التالي، يعلم بحكم منصبه أن عددًا من الشخصيات الاستثنائية ستحضر الاحتفالية: رئيس الكنيسة اليونانية، ونواب عن بطريك الإسكندرية وإسطنبول والقدس، وفرقة ترانيم من جزيرة كريت تعد أكبر فرقة بيزنطية في العالم، وكيل شيخ الأزهر، عدد من رجال الإعلام والسياسة المصريين، بالإضافة إلى عدد محدود من وسائل الإعلام الدولية.

«سليم» أيها الغبي، بتلك الوفاة سينتشر رجال الأمن أكثر لتأمين المكان، مداخله، قاعاته، لن يكون من السهل عليهم الآن فعل أي شيء، يعلم كسياسي محنك وخبير أمني سابق ما ستئول إليه الأمور، بالإضافة أن كاتمي السر في الكنيسة ربما ينقلون مكان الغرض. يخرج علبة سجائره ويشعل إحداها في توتر، لا يزال المتصل أجش الصوت، يؤكد عليه من مكانه ضرورة الإتيان بالغرض الآن قبل أن تتأزم الأمور، بينما «فيّاض» شارد يحاول أن يفكك مشكلاته ليتمكن من حلها، يصيغ أولى أزماته في سؤالين محوريين:

كيف يجبر الكهنة على إتمام القداس وعدم إلغائه لدوافع أمنية؟

وكيف يشتت قوى الأمن وقتها ليتمكن من الإتيان بالغرض؟

تتعلق عينا الزوجة على زوجها الشارد المهموم، شيء في هذه المكالمة لا ينذر بالخير، يفيق «فياض» من سؤاليه على الصوت الأجش وهو يهم بإنهاء المكالمة ليدع رئيس مدينة كاترين يبدأ عمله، يضيف وكأنه تذكر أمرا مهما نسيه في فوضى المستجدات:

«أمر آخر سيساعدك في تحركاتك عرفته من مصدري.. المصور الطريد في طريقه إلى الدير بصحبة رجال الأمن.. اعرف ما يخفيه ثم اقضِ عليه.. لا نريد أمورًا عالقة».

(٧)

تهبط الطائرة خارج أسوار بستان دير سانت كاترين، ينظر «بهي» تجاه المكان الذي يعرفه جيدا، والذي مُنع كذلك من دخوله منذ ما يقارب ثلاثة أعوام، تمنى خلال تلك السنوات العودة أو أن يسمح له الرهبان بأن يكون ضيف كاترين مرة أخرى، القاعدة تقول إن لم يكن مُرحبا بك من قِبَل الدير، فإنك طريد المدينة بأكملها، لذلك لم يزر الجبل أو الوديان والأخاديد الصخرية التي اعتاد، منذ أخبره الأب «بافلوس» ألا يعود مرة أخرى.

وها هو ذا قد عاد، بمشاعر مضطربة معقدة يصعب عليه في تلك اللحظة تحليلها، ما بين لهفة وحنين وفرح بالعودة وحزن على ما آلت له الأمور في المرة الأخيرة، يغلفهما شعور وحيد طاغٍ يزيح ما حوله: القلق!

عودته بتلك الطريقة، نيران «الجبالية»، كلها أمور لا توحي بأن الليلة ستكون هينة عليه، هل يمكن أن يطلب منهم أن يتبول الآن؟! بالطبع لا، البرد يسري في أوصاله، لم يعد نفسه لطقس مثل هذا، يرتدي كنزة بيضاء خريفية خفيفة لا تلائم الثلوج التي تغطي قمم الجبال هناك، وبنطالًا وحيدًا، في هذا البرد بـ«كاترين» كان يرتدي

بنطالين على الأقل، يستعجله «الأصلع»، فيفرك «بهي» عضديه، يخرج سحابة بخار من فمه يحاول أن يدفئ بها كفيه.

ينزل من الطائرة، يسير بمحاذاة رجال «عاكف بك» خلف الرجل، على مدخل البستان يقف أربعة رجال من أذرع «عاكف» الأخطبوطية ضخام الجثة يرتدون الأسود مثل قطع الليل ويشكلون بوابة بشرية للبستان.

يدلف «بهي» الجزء المنخفض من البستان بين عاكف ورجاله، الأرض يغطيها ثلج، وأمامهما مباشرة كان كشاف كبير من الطراز المستخدم في التصوير السينمائي يضيء بقعة بعيدة، يبدو أن أحدهم مد كابل كهرباء طويل من الدير نفسه، ينظر إلى فندق الدير القريب، شديد العتمة كأنه بيوت مهجورة، يندهش «بهي» من أن أحدهم انتقى إضاءة بيضاء بدلا من الصفراء لينير تلك البقعة التي لم يصلها بعد، حولتها الإضاءة البيضاء مع البخر والضباب المتصاعدين من اختلاف درجة حرارة المصباح الضخم عما حوله إلى بقعة زرقاء باردة مقبضة.. سيان.

بعد خطوتين يتضح جزء من المشهد للمصور، مجموعة من أقماع المرور موضوعة لتشكل حيزا مربعا مانعا لما داخله، وعلى حدود المنطقة المقمّعة يقف أسقف الدير المطران «إيوانيكيوس»، يرتدي تاجه المرصع بالأحجار الكريمة، ويستند على عصاه الأسقفية الذهبية التي لا يمكن أن يخطئها «بهي» من هذا البعد، بجواره كان وكيل الدير «ثيودولوس» يستند في وهن على كتف كاهن آخر، ثم مترجم الدير البدين «نستور»، وبعض رجال عاكف، وثلاثة أطباء يرتدون الأبيض، يلتفت «إيوانيكيوس» إلى الأصوات

القادمة، يلمح عاكف ومن خلفه «بهي»، يشير بيده إلى «بهي» وينطق بعبارة يونانية حادة، رغم صوته الخفيض كانت تحمل مشاعر غضب وضيق، لا يفهم «بهي» العبارة، لكنه يعلم أنها موجهة له بالتأكيد، لم يكن «إيوانيكيوس» أبدا محبا له، يفرقع «عاكف بك» بإصبعيه، فيربت رجله الواقف بجوار «نستور» على كتف الأخير ليترجم ما قاله المطران، يقول «نستور» بعربية مكسرة: «يقول أبونا ما الذي أتى بهذا الولد إلى هنا؟!».

لو كان «بهي» يعلم لاستراح، يخطو خطوة أوسع فيتضح المشهد المهيب: رجل مُسجًّى على الأرض غارق في دماء متجمدة، نصف وجهه ظاهر، يدقق «بهي» النظر، يمسك معدته خوفا من التقيؤ، إنه.. لا يمكن، لا يمكن أن يكون صحيحا، يندفع أكثر إلى داخل المربع فيمسكه «الأصلع» من كتفه ليوقفه، ينظر في أعين من يعرفهم حوله لينفوا له ما يراه، عينا «ثيودولوس» منكسرة، بينما عينا «إيوانيكيوس» حانقة، لقد كان الأب «بافلوس» كاهن الدير، مسئول المكتبة والأرشيف بها، غارقا في دمائه، يده مفرودة أمامه، أصابعه متخشبة ويبدو أنها كانت تقبض على شيء ما، كان سهلا على أي شخص أن يعرف أن تلك ليست وفاة عادية، فالرجل لم يكن ليتنزه في هذا الجو القارس، لقد استدعى أحدهم عزرائيل هنا ليقبض روح الكاهن.

الأب «بافلوس»، الرجل الودود العصبي الذي فتح لـ«بهي» آفاقًا من السحر والجمال قبل أن يغضب عليه، لم يكن قد صادف كاهنا عصبيا من قبل أو بعد، وهو ما جعل «بافلوس» قريبا لقلبه، بشري يسعى للقدسية وليس قديسا تام الصفات، يا لها من ليلة حزينة! ينظر

إلى السيرك المنصوب حول الجثة، لم يكن أبدًا يتخيل أن تكون تلك نهاية الرجل الذي أفنى عمره بين الأوراق، يمسك البرديات والوثائق بمِلقَط، يشعر بسلامه النفسي بين السطور، يعامل الكتب كأطفال مدللين، ويتذمر من الاحتكاك البشري إلا فيما ندر.

يلتفت «بهي» إلى «إيوانيكيوس» ليقدم تعازيه، هنا يبدأ «عاكف بك» في الحديث أخيرا مع «بهي»: «أنت هنا ليس للتعزية يا بهي»، يقترب الرجل الأصلع والرجل الذي يحمل حقيبة الكاميرات، يقفان خلف ظهر المصور تماما، يشكلان شعورا ضاغطا بعدم الراحة والحرية، يشير «عاكف» إلى أحد الأطباء، الأعين تنظر إلى الرجل الخمسيني المسيطر، يناول الطبيب ظرفا أبيض مغطى ببعض الدماء مكتوبًا عليه عبارة غير واضحة للمصور حيث يقف، يقول الطبيب مؤكدا: «الفحص الثاني كالأول تماما، لا بصمات على الظرف سوى للكاهن، أما الصور فتحمل بصماتهما».

بصماتهما! هل قال بصماتهما؟ بالتأكيد «بافلوس» أحد المذكورين، يتمنى «بهي» في قرارة نفسه بعد سماع الكلمة ألا يكون الطرف الثاني لضمير الغائب المثنى الذي ذكره الطبيب، يهز قدمه لطرد الخوف الذي يزيد رغبته في التبول، فيلحظ الرجل الخمسيني توتره.

يمسك «عاكف» الظرف بيسراه التي يرتدي فيها قفازا جلديا أسود، يخرج أحد رجاله قفازا طبيا أبيض ويلقيه في وجه «بهي»، فيأمره «عاكف»: «ارتدِهما!».

يجثو «بهي» ويتناول القفازين من الأرض، ويُدخلهما في كفيه، يناوله «عاكف» الظرف، يتفحصه «بهي»، ينظر إلى العبارة المكتوبة

عليه بالخارج، خط «بافلوس»، يعرفه جيدا، كتبه باليونانية التي يجيدها الكاهن إضافة إلى إجادته للعربية والإنجليزية والفرنسية، لا يفهم «بهي» العبارة، فينظر إلى «عاكف بك» مشيرا بإصبعه إلى العبارة، يقول «نستور» قبل أن يبدأ المصور سؤاله: «مكتوب.. تُسلم إلى بهي.. هنا حيث تجدونني».

يضيف «عاكف»: «كانت في جيبه الداخلي»، يفتح «بهي» الظرف، يخرج منه مجموعة من صور الدير ذات حجم اعتيادي يعرفها جيدا، الصور الوردية كما أسماها، لا يعلم أن «بافلوس» احتفظ بها، فقد ثار عليه حين أهداه الصور في عيد مولده، ومزق إحداها بيديه أمام عينيه، وحين علم أن الصور مصورة بكاميرا فيلمية وليست رقمية طلب الفيلم وقال إنه سيحرق تلك التفاهات.

مئات الذكريات تطوف في رأسه لا يجد لها حيزا للمشاركة الآن، فبين يديه صور فنية لأركان مميزة من الدير صورها خصيصا بكاميرا فيلمية من التي تعمل بأفلام سعتها ٣٦ صورة.

٣٦ صورة اختارها بعناية واستغرق تصويره لها أسبوعا مكثه خصيصا من أجل تلك الهدية، المختلف في تلك الصور هو طباعتها، طبعها بمساعدة ألواح الطباعة الأربعة: «سيان، ماجيتا، يلو، بلاك»، إلا أنه نزع لوحَي الأزرق والأصفر قبل الطباعة واكتفى بالـ«ماجيتا/ الأحمر» والأسـود، لتظهر درجات ألوان الصور جميعها وردية مائلة إلى الحمرة.

لا يعرف ما علاقة ذلك به! يرفع كتفيه ويقول لـ«عاكف»: «لا أفهم!»، فيلمح «نستور» هامسا مترجما لأسقف الدير «إيوانيكيوس» ما يُقال، يرد «عاكف»: «بصماتك على الصور»، يجيب «بهي»:

«بالطبع فقد طبعتها وأهديتها للأب بافلوس قبل ٤ سنوات، وشعر بضيق وإهانة من الهدية، فمزق إحدى الصور لحظتها وطلب مني البقية والفيلم للتخلص منها، أندهش من احتفاظه بها، وبديهي أن يكون عليها بصماتي إثر الطباعة».

يقول «عاكف بك»: «ألا تراه غريبا أن يكون آخر ما يشغل تفكير شخص يتعرض للقتل، هو أن يعيد لك هدية ضايقته؟».

يستجمع «بهي» شجاعته قليلا، مقتل كاهن في دير سانت كاترين ليس أمرا هينا بالتأكيد، سيثير أزمة إن صح، يتطلب رجل أمن على درجة عالية، لكن ليس بالدرجة التي يمتلكها «عاكف» بالتأكيد، لا تحتاج إلى رجل يستطيع التحليق بطائرة في الليل من مطار القاهرة ليهبط بها في سيناء، لقد عاصر أزمات قليلة بين الرهبان والبدو، تتدخل قيادة أمنية على معرفة بالطرفين لحلها بالطرق الأقل ضجيجا، والطائرة والأنوار تحمل من الضجيج ما ينبئ بأن هناك ما هو أكبر من ذلك. يقول وهو يقطع الطريق على الرجل الصارم: «سيادتك تعلم جيدا أنني كنت في المغرب طوال الأسبوع الماضي، أتيتم بي من المطار، يمكن التأكد أنه لا علاقة لي بالأمر.. لا أعرف لماذا أنا هنا!».

يسود الصمت للحظات، يرمقه «عاكف بك»، إن كان لا يعرف الشاب سبب وجوده هنا، فيجب عليه على الأقل أن يعرف سبب تواجد «عاكف بك» في مسرح الأحداث.

يقرر «عاكف» أن يرمي مزيدا من أوراق اللعب، يخرج صورة من المجموعة كان الكاهن «بافلوس» يمسكها بكفه قبل أن يصل المصور، ويناولها لـ«بهي»، وهو يضيف: «وكان ممسكا بتلك»، يلتقطها «بهي»، إحدى صور المجموعة، أيقونة للسيد المسيح

من أيقونات الدير، يقف فيها المسيح مرتديا عباءة حمراء على نصفه الأيسر، بينما يظهر وجهه والخلفية بلون وردي متوهج، يدل التوهج على أن الأيقونة الأصلية كانت باللون الذهبي بينما يظهر ورديا بسبب طريقة طباعة «بهي» للصورة، ينظر المسيح في سكينة وحول رأسه هالة دائرية حمراء كبيرة، يضم خنصر ووسطى كفه اليمنى بإبهامه، ويحمل في يده اليسرى مخطوطة لعلها الكتاب المقدس، على ظهر الصورة يظهر خط «بافلوس» الذي كتب بالعربية ٣ أسطر، الثاني والثالث يحتويان مجموعة أرقام صغيرة بلا معنى هي: «٢٧، ٩١٢»، «٢، ١٢٧، ٤»، أما أبرزها السطر الأول الذي كتبه بخط كبير وكأنه يشير إلى قاتله»: «تخطيط أحمد شفيق».

تجحظ عينا «بهي»، الآن يمكنه إدراك أن الأمر يتجاوز بكثير مقتل كاهن دير أحبه كثيرا، فمقتل مطران أو قس بدير سانت كاترين قد يشعل الفتنة بمصر لوقت، يمكن تناسي الأمر أو إغفاله وسط صخب المظاهرات والمشاحنات السياسية الحالية واهتمام الناس بالحشد لأول انتخابات رئاسية بعد الثورة، لكن أن يتهم الكاهن المغدور أن وراء قتله سياسي بارز في النظام السابق، أصبح قاب قوسين أو أدنى من الترشح لرئاسة مصر خلفا للرئيس الذي أطاحت به ثورة يناير سيشعل النار في مصر بكاملها!

(٨)

يُخرِج الشيخ البدوي فرعا أخضر صغيرا من النبات، يقول للعريس الوافد: «هذه قصلة ابنتي على سنة الله ورسوله، إثمها

وخطيئتها في رقبتك من الجوع والعري»، ينهض العريس الذي لم يغير العمل في مجال الهندسة بمدينة الطور أصوله السينائية وفهمه للعادات، ينحني ويقبل رأس الشيخ البدوي، لتكون تلك القبلة بمثابة الإشارة لبدء الأفراح.

الإشارة!

الإشارة التي يعلمها الجميع فاضحة، تنبه الحلفاء والأعداء على حد سواء، يرى «سليم» ألسنة اللهب الأزرق من القمم البانورامية في الجبال: فرشة أبو جيفة، نبق الرحاب، ورأس الصفصافة، لا يزال «الجبالية» يؤدون دورهم بطريقة عفا الزمن عليها، فليسرع إذن.

يقرر «سليم» الهبوط من موقعه متجها إلى الدير لينجز مهمته، يطلب رقما وهو يجتاز المنحدر المؤدي في «وادي زواتين»، أحد فتيان زواج «القصلة» الذين يدينون لـ«سليم» بالولاء، يأمره الأخير أن يلاقيه عند أول الوادي الأحمر بدراجة بخارية صحراوية وملابس وحقيبة أدواته، يعلم أنه لا سبيل إلى هناك إلا الطريق الجنوبي، متجاوزا صخرة التمني، ووادي الأربعين وصولا إلى فرشة إيليا حيث لا طريق ممهد لوسائل النقل بعد ذلك، سيسير نزولا في الطريق الحجري المؤدي إلى غايته، يستبعد الطريق الشمالي لأنه سيضطره لاجتياز طريق السيارات الأسفلتي الرئيسي حيث تتمركز الكمائن الشرطية، لا يريد أن يهدر وقته في صراعات جانبية.

قبل سنوات لم يكن ليتخيل أن يغدو بدويا عالما بشعاب الطرق، ينام في وديانها، ويأمر أتباعًا فيطيعونه، لم يتمنَّ ذلك حين زار صخرة التمني صغيرا، ولم تكن تلك إجابته حين سأله مقرئ الكُتاب عما يريد أن يصبح عليه في مستقبله، لكن الخط

الذي رسمه لمستقبله محاه سيل ضرب منزل والديه، فأغرقهما ونجا الطفل ذو السنوات السبع، لم يسأل عنه أحد من أخواله، أو يساعدوه في استخراج شهادة ميلاد أو الاعتراف بنسبه من الزواج العرفي المسمى بـ«القصلة»، والمنتشر في ربوع سيناء، لو فعلوا لشاركهم الإرث في الجد بعد وفاته، وهم لن يسمحوا بابن الفتاة أن ترث، وبين ليلة وضحاها، ترك «سليم» الكُتّاب والمنزل المغمور، ووجد نفسه وديعة أحد دور الرعاية والأيتام التابعة لمدينة كاترين، يملؤه الغضب الذي لا يعرف سببه، واللوم.. لا لأحد سوى نفسه، فيعاقبها: يبدأ في شد جلده الرقيق حول أظافره، يتألم، فيهدأ، فيزيد ألمه حتى يحظى بالسكينة.

تكتشف مديرة دار الرعاية الأمر فترهبه من فعلته، تقول للطفل المكلوم: «لا تكررها وإلا فستلاقي في الآخرة عذاب النار»، يلوم نفسه على فعلته أكثر، فلا يجد طريقة للتعبير عن ذلك سوى بالإمساك بشظية ناتئة من سرير الدار الخشبي، يوخز جلده، يضع الشظية بين سِنتيه الأماميتين حتى تُسبب له فلقا يميز شكله إلى الآن، وفي كل مرة كان يتألم فيهدأ، لكن مديرة الدار ترهبه بعاقبة النار، فتضغط على نفسه الساخطة بقوة، فينوي أخيرا أن يستبق النهاية التي تفزعه، يتسلل ليلا إلى مطبخ دار الرعاية يشعل قطعة قماشية ويمسكها بيده، ألم لم يعهده من قبل، وشعور بالراحة يفوق ما اختبره في الوخز أو قطع الجلد، يعلم أن سيفيق منه على تأنيب للضمير، كمرتكب الخطيئة الذي لا يستمتع باللذة المختلسة لأن عقله أفسد الأمر بتذكيره بعذاب الآخرة.

حين اشتمّت مديرة الدار الأمر والدخان عاقبته أمام الجميع،

وقف ينظر إلى الحائط الذي يحمل صورة رئيس مدينة سانت كاترين «عبد العزيز فيّاض» أو «الحاج فيّاض» كما عرفوه، يرتدي بذلته ويحمل هدايا للأطفال الأيتام في إحدى المناسبات خلال زياراته للدار، تخور قوى الطفل لكن المديرة لا تسامحه، لحظتها يقرر البدوي اليتيم أن يشعل النار في الدار بأكمله بعد أن يخلد الجميع للنوم، ينظر إلى ألسنة اللهب المتصاعدة من الغرف والأثاث ويمسك بعضها في نشوة وجنون وسط صراخ أقرانه ومُعلميه.

أعاد «فياض» بناء دار الأيتام، دفع مبلغا كبيرا لإسكات السيدة، وانتزع الفتى من وسطه، ومن وقتها ودروب الصحراء التي رجع إليها تتلقفه.

أغدق عليه «فياض» فاعتبره الفتى بمثابة الأب، واستخدمه الرجل فيما تعجز عنه أمور السياسة، إلا أنه لم ينجح في إنهاء حبه للنار، وتلذذه بها، ففعل ما سبق أن امتاز به مشايخ الدين مع ملوك الأرض، بحث عن نص، فبرر له الأمر وأحله.

الطريق إلى الجنة يحتاج المرور أولا بالنيران، بدأ «سليم» فعلته بعد كل شعور بالذنب بحثا الراحة، الآن صار يحترق بنيران الخطية في الدنيا وهو يعلم أنها نوع من التكفير، ستقلل من بقائه في نيران جهنم التي أنذرته منها مديرة الدار، تحول جسده إلى الأسود لشدة ما احترق، أوَلمْ يصف النبي «الجهنميين» بهذا الوصف، يتذكر الحديث الشريف «يَخْرُجُ قَوْمٌ مِن النَّارِ بَعْدَمَا مَسَّهُمْ مِنْهَا سَفعٌ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّة فيسمون في الجنة «الجهنميين» من أجل سواد في وجوههم»، بذلك أخبره «الحاج فياض» وهو يشرح له ضرورة الكفارة، وأنه ـ أي فياض ـ يكفر عن ذنبه بالمال

أو الأضاحي، فلما أخبره «سليم» بأنه لا يملك الاثنين، أجابه «الحاج»: «إذن بالنفس».

يناول ابن القصلة «سليم» الملابس وحقيبة ظهر، يخلع جلبابه ويلبس كنزة صوفية لها غطاء رأس «هودي» يضعه على رأسه وبنطلون جينز، يفتح الحقيبة ليتأكد مما فيها، يقفز خلف رفيقه على الدراجة البخارية، فينطلق الأخير محدثا سحابة ترابية هائلة، كوّن خلال السنوات العشر الكثير من الأعوان، إن كان منبع القوة القبلي في سيناء هو أن تنتمي لقبيلة الترابين أو الجبالية أو الصوالحة أو القرارشة، فليؤسس هو عزوته من مطاريد القبائل من أبناء القصلة الذين لا يجدون لهم مكانا أو اعترافا من قبائلهم، مجموعة لا تدين بالولاء لأحد إلا نفسها، وتحمل من الكراهية ما يكفي الجميع.

عند «فرشة إيليا»، يترك «سليم» رفيقه ويخبره أنه سيعاود الاتصال به حين ينتهي، قبل أن يغادر يتناول من رفيقه مسدسا وأداة تعمل ككاتم للصوت، يركبهما معًا ليصبحا جهازا واحدا، يخفيها داخل صدره.

يهبط على عَجَل حتى يصل إلى السور الجنوبي للدير، لا وجود لحراس رغم التصاقه بسكن الرهبان، فهي منطقة مؤمَّنة بفعل السور العالي المسمط الذي لا يحوي بداخله أبوابًا أو طاقات يمكن الولوج منها، ولن يستطع أحد تسلق هذا الارتفاع مهما بلغت مهارته، سيتعين عليه الالتفاف حتى يصل للباب الشمالي، يخطف نظره إضاءة قوية غربا مصدرها البستان، يعلم بحكم شكوى الرهبان من سرقات المحاصيل أن المكان غير مجهز بتلك الإضاءة، يدقق،

يجد سلكًا أسود ضخمًا مدلى من الزاوية الجنوبية الغربية، مصدر الطاقة المولد الموضوع فوق سطح نُزل الرهبان.

يقترب منه ويرفع رأسه إلى أعلى، لو أمكنه تسلقه لتجاوز أسوار الدير بسهولة لم يتوقعها، لكن.. وبرغم أن البساط الضوئي سيكون قليلا وخافتا، قد يظهر أثناء تسلقه كسواد متحرك يلفت الأنظار، صرصور يتبختر على حائط المنزل، فريسة سهلة للإسقاط بالشبشب، يحتاج المزيد من العتمة، يخرج مسدسه المزود بكاتم للصوت، يشد الزناد، يسمع من بُعد صدى سحب الزناد المميز متتاليا قويا، وكأن مسدسه الصغير تحول بسبب جرأته إلى مجموعة من الأسلحة، يضرب طلقتين على السلك الأسود الضخم فينفصل إلى جزئين، يراقبهما «سليم»، يتراقص الجزء المتدلي من السطح، يحمل في داخله تيارا يكفي لصعق الفتى، ينذره كلما تأرجح مصطدما بالحائط أو الأرض بما يطلقه من وميض الشرر الكهربي الأزرق.

(٩)

يسأل «عاكف» أحد الأطباء: «هل حددتم ساعة الجريمة؟».

فيجيب الأخير وهو يخرج ساعة قديمة جلدية موضوعة في أحد الأكياس البلاستيكية الحافظة التي تستخدم في الطب الشرعي ويقول وهو يشير إلى القرص المعدني المكسور الذي تشير عقاربه إلى العاشرة والربع مساء ويعقب: «بكل دقة يا افندم.. الفحص الأولي لتوقيت الوفاة يماثل وقت توقف ساعته عن العمل».

يتناول «عاكف» الساعة ويقلبها في يده، يبدو أن كسرًا إثر ارتطام أفسد الساعة، فأماتت عقربيها الكبيرين، وأصابت عقرب الثواني بتردد، يرتعد هو الآخر داخل الدائرة التي تحتوي أرقاما لاتينية، ينظر «بهي» إلى الساعة في يد الرجل الخمسيني ويحك الأرض بقدمه فيجد أن الثلج كوّن طبقة شديدة الحنو فيعلق: «لكن الأرض الثلجية لن تكسر الساعة.. أظنها كُسرت قبل ذلك، ربما بداخل الدير».

يلكز «الأصلع» المصور في كتفه فيصمت الأخير، يرمقه بنظرة لا تتحدث إلا إذا أمر القائد، فيصمت «بهي»، ويسرح «عاكف» في عقرب الثواني الذي لا يقوى على إكمال دورته فيتراجع كلما تقدم خطوة.

يدلف أحد رجال «عاكف بك» بتقريره إلى مسرح الجريمة، يلتفت له قائده ويشير لـ«الأصلع» أن يبقي عينيه على «بهي»، يميل الأخير بدوره جاثيا على ركبته على حدود الأقماع الموضوعة ربما وجد شيئا غائبا.

لم يكن التقرير ليعجب «عاكف»، يلعب الخلاء مساحة في جعل صوت الرجل مسموعا رغم انخفاضه، لا تسجيلات في كاميرات المراقبة، وكأن «عاكف» في حاجة لمزيد من سوء الحظ، يعلل الرجل لرئيسه بأن قرص التخزين «هارد ديسك» الخاص بالكاميرات من المفترض أن يحتفظ بتسجيلات الأسبوعين المنصرمين من لحظة فحصه، ثم يقوم بمحو المادة تلقائيا ليعمل على تسجيل مادة جديدة.. وهكذا دواليك، إلا أن عطبا أصاب قرص التخزين، فلم يقم بعملية المحو، فبقيت المادة المسجلة منذ ٦ أشهر تشغل حيزا لا يسمح بالتسجيل مرة أخرى.

يفقد «عاكف» اهتمامه منذ بدأ رجُله في شرح السبب، الخلاصة أن لا تسجيل يساعده، يقف الآن في المربع صفر بلا أي تقدم، فيقطع حيرته «نستور» الذي شرع في ترجمة رسالة من أسقف الدير «إيوانيكيوس»: «يستأذن نيافة الأب إن كنتم انتهيتم هنا، أن ننقل جثة بافلوس إلى الدير حيث سيعقد أسقف الدير قداسا لدفنه قبل احتفالية قداس سانت كاترين».

«قبل ماذا؟!»، يقولها «عاكف» بحدة، ثم ينظر إلى «إيوانيكيوس» وهو يحرك يده بطريقة شارحة لما يقول لا تحتاج لمترجم لفهمها ويعقب: «أخبر نيافته أن يعلن عن إلغاء قداس كاترين.. نحتاج إلى تأمين المكان أمنيا».

يتردد «نستور» في الترجمة، لكن الأسقف العجوز يفهم الرجل، لطالما تعامل مع رجال أمن كُثر، يعلم أن «عاكف» مختلف، أكثر سطوة ونفوذا، بالتأكيد يحتل موقعا في تلك الأجهزة الرفيعة لا سيما أنه لم يرَ رجال الأمن التقليديين أو أمناء الشرطة، يقول «إيوانيكيوس»: «ليست المرة الأولى يا بني ولن تكون الأخيرة، وإن كان هذا القداس هو آخر أمر أفعله فسأفعله».

يحاول «عاكف» أن يضبط نفسه، يقول: «نقدر دورك الديني نيافة الأسقف، لكنني أثق في دورك الوطني كأسلافك ممن ساعدونا بعد العبور في استعادة طابا بمخطوطات الدير النادرة، دعني أخبرك أن الجريمة ليست استهدافا لكاهن في أقدم دير بالعالم، لكنها استهداف لصورة مصر أمام المجتمع الدولي، ودورك الوطني يحتم أن تلغي الـ...».

يتابع «بهي» المباراة، تلهيه عن تفحص الصور والمظروف

اللذين لا يزالان في يده، كلاهما يمتلك القدرة على السيطرة لأسباب مختلفة، يشير «إيوانيكيوس» إلى «نستور» ألا يكمل ترجمته، يدنو من «عاكف»، يضع يديه على كتفه ويقول: «نفس الضرر سيحدث لصورة الوطن إذا ما تم إلغاء أكبر قداس في الدير يترقبه ضيوف من العالم بأسره قبل ساعات من عقده.. ألا تعتقد أن البعض سيسأل؟! والكثير سيرددِ قصصا مختلفة عن قتل راهب في الدير الأقدم كما تقول».

يصمت «عاكف» مفكرا، بصحبة أحد رجاله الذين يحرسون مدخل البستان يتقدم أحد بدو «الجبالية» المسئولين عن حماية الدير، يحمل سلسلة من المفاتيح القديمة معلقة في حلقة معدنية صدئة قديمة، يقترب من أسقف الدير «إيوانيكيوس» ويناوله الحلقة المعدنية، يقول البدوي: «لقد أتم الرئيس أبو عمران إغلاق الأماكن الحيوية يا مولانا، وأمرني بجلبها لكم، وهو يجوب الدير الآن للاطمئنان».

يعرف «بهي» هذا البروتوكول الأمني، في حالات الخطر القصوى يتم إغلاق الأماكن الحيوية في الدير وتسليم مفاتيحها إلى مطران الدير من قِبل رئيس «الجبالية»، لكل باب في تلك الأماكن الحيوية نسختان، إحداهما يحملها «إيوانيكيوس» الآن، يفتح المطران الحلقة ويعلقها داخل الصليب المعلق على صدره، يخفيهما داخل ملابسه، أما النسخة الثانية فهي مخفية داخل صدر الدير نفسه، منذ بنائه، لا يعلم مكانها إلا رئيس الجبالية فقط الذي أقسم على الذود عن هذا المكان بتوليه شرف حماية الدير.

يقول «ثيودلوس» بهدوء وكأنه ينهي مهلة «عاكف» في التفكير:

«الخيار الأصعب لكلينا هو الاستمرار في عقد القداس، ستحتاج لنشر رجالك للتعامل مع الحدث، وسنحتاج أن يعيننا الرب على فراق أخينا بافلوس.. لكنه بصدق هو الاختيار الأصلح».

ينشر رجاله في الدير، لا يمتلك «عاكف» الكثير للتأمين، فتواجده أساسا للتحقيق في الاتهام الخطير الذي حمله الراهب بين يديه لسياسي بارز، يحك شاربه الكث، بينما يعلو صوت من جهاز إرساله مناديا اسمه: «عاكف بك.. خالد من البوابة.. ابدأ الإشارة»، لا يعيره القائد اهتماما فهو في قضية أكبر الآن، يسأل رئيس الدير: «وماذا عن الأب بافلوس؟ الحضور سيتساءلون غدا عن سبب قتله».

يتدخل أسقف الدير «إيوانيكيوس» ليضع حدا للأمر: «لم يقتل منا أحد يا بني، لقد تنيحت روح الشهيد.. كما سيحدث لنا جميعا حين تحين كلمة الرب».

«عاكف بك.. سامعني يا افندم؟».

يحدد «ثيودلوس» مقصد صديقه فيقول: «قد تأمر بنقل جثة الشهيد إلى مصلحة الطب الشرعي لتشريحه، حينها ستتسع الدائرة ولن نستطيع إيقاف الحديث عن الواقعة التي بالتأكيد ستضر بصورة مصر، لكن الأصعب كما أخبرتك أن تحقق في الواقعة بهدوء والأمور المعتادة للدير تسير بشكل طبيعي».

يشعر «عاكف» أنه يفقد المربع صفر إلى مربع آخر سالب، ليته يعود إلى المربع صفر! يفكر فيما قاله أسقف الدير، يعلم «عاكف» بحكم منصبه أن القرار هنا له، لا يحتاج لاستشارة أحد في القاهرة، يطلبون منه تأمين القداس بعدد رجاله المحدود، ومعرفة

«القاتل» الذي يتضح من الورقة التي تركها المطران أنه سياسي أو تابع لتوجهات سياسي بارز، والأدهى أنه لا كاميرات.. لا تشريح للجثة.. لا شيء.

«عاكف بك..!».

يقول «إيوانيكيوس»: «فلنتعلم أننا مثلك، وربما أكثر، نحتاج إلى معرفة من فعل ذلك بالراهب بافلوس».

ينهض «بهي» الذي يثيره أمر غريب ويقول: «ربما كان السؤال الأدق الذي سيقودنا إلى الكثير ليس مَن فعلها.. بل لماذا؟!».

ينتبه «عاكف» ورجاله، يترجم «نستور»، يرمقه «إيوانيكيوس» بذات النظرة الرافضة لوجوده، لكن فجأة.. البستان تحول لظلام دامس، لا يمكن لأحد رؤية كفيه، ينقطع ضوء الكشاف الضخم، يضطرب الجميع، يصيح «عاكف» في الظلام: «ليؤمّن أحدكم المطران»، بينما يتحرك «بهي» في فزع، فيصطدم بالرجل الذي يحمل حقيبته فتسقط من كتفه ويسقط معها «بهي»، يحتضن الأخير حقيبته، يصيح «عاكف» في رجاله بالتمركز، تدوي أصوات طلقات غزيرة، يتداخل صوت منبعث من جهاز «عاكف» بهمس صلوات «إيوانيكيوس» وصوت آلة تنبيه يتعالى لا يُعرف مصدره، ترتفع حدة الأصوات وصداها فيزداد التوتر، تمتد وسط العتمة كف تسحب «بهي» من كتفه، يشعر بوخز في رقبته، أحدهم حقنه بمادة ما، يساق متثاقلا دون أن يعلم وجهته!

(١٠)

يندفع الممرض المسئول عن الوردية الليلية في مكتب صحة سانت كاترين الواقع داخل المدينة إلى سيارة الإسعاف البرتقالية، على الرصيف المقابل يدخن رفيقه سيجارة ويشرب كوبا من الشاي بالحليب يعينه على الليلة الباردة الهادئة، لكن الأول يركب السيارة وينطلق مسرعا وسط تفاجؤ رفيقه، فيسقط الكوب الساخن عليه أثناء النهوض، يركض خلف السيارة وينادي، إلا أن الممرض الملتاع الذي يقود بسرعة كبيرة لا يعيره اهتمامًا.

تندفع السيارة حتى تصل إلى الميدان المؤدي إلى الدير، ينعطف الممرض بأقصى سرعته يمينا، المسافة بين مكتب الصحة والدير على أسوأ تقدير لا تتجاوز عشر دقائق، لكن الممرض بسرعته الهائلة سيختصرها إلى النصف، يلمح كمين الشرطة المعتاد، فيدير أنوار السيارة الزرقاء التي تنعكس على وجوه رجال الأمن في الكمين، يخفف سرعته ويقول لضابط الشرطة الذي يعرفه جيدا: «هبوط ضغط الدم لأحد ضيوف الدير.. استدعاء عاجل»، يشير الضابط لعساكره بإفساح الطريق فتندفع السيارة في الطريق الصاعد إلى الدير، يتعرق الممرض، يداه ترتعشان على المقود، يعلم أن ما يفعله جنونيا، لكنهم لم يتركوا له سبيلا، يقترب الدير.. إضاءته نجوم برتقالية صغيرة تخرج من غرف داخلية.

عند بوابة البستان يلمح «خالد» رجلُ الأمن الواقف لحراسة البوابة الأضـواءَ الزرقاء المتراقصة صعودا في اتجاهه بسرعة جنونية، يأخذ ومعه بقية رجال البوابة الثلاثة وضعهم بالاستعداد،

يشهرون أسلحتهم، يضغط «خالد» زر جهاز الإشارة المعلق بكتفه اليمنى:

«عاكف بك.. خالد من البوابة.. ابدأ الإشارة».

لا رد.. ينظر له بقية الرجال متسائلين عما يتوجب عليهم فعله، بينما تتضح صورة الأشباح الأربعة الملثمين بالسواد للممرض كلما اقتربت سيارته، فيزداد خوفا وتعرقا، لا إراديا تضغط قدمه دواسة السرعة أكثر.

«عاكف بك.. سامعني يا افندم!».

يتشكك خالد في جهازه، ربما لا يعمل كما يلزم، يأمر أحد الملثمين الذي ينعكس ضوء البستان عليه بالمحاولة، فيضغط جهازه.

«عاكف بك!».

لا رد.. المسافة لم تعد كبيره، يشير «خالد» إلى رجاله فيتأهبون، صوت سحب الزناد لأربعتهم متتاليا يتردد صداه المسموع في المكان، يرفع يده متأهبا لإطلاق الإشارة، ينظر له الملثمون، ثم تعتم أعينهم عن رؤية إشارة «خالد»، وكأنهم فقدوا نور الحياة، لقد انقطعت إضاءة كشاف البستان فجأة، لا ضوء سوى الدوامات الزرقاء أمامهم من سقف سيارة الإسعاف، والنقاط البرتقالية الخافتة في مهاجع الرهبان على بُعد، يبدءون في إطلاق النيران باتجاه السيارة.

يضيء الممرض النور العالي لسيارته فتعمي شدته الملثمين، تندفع طلقات متعددة تخترق إحداها الزجاج وتمر بجوار الممرض، يبحث عن زر الميكروفون، تخترق رصاصة المرآة الجانبية له،

بتوتر، يضغط زر سارينة الإسعاف، أخيرا يتمالك نفسه ويجد زر الميكروفون ليصيح: «لا تقتلوه»، قبل أن يفقد السيطرة على المقود إثر اختراق رصاصة لإطار سيارته، تميل السيارة يمينا ويسارا، ثم تنقلب على أحد جنبيها، فتثبت الإضاءة الأمامية الخاصة بالسيارة صانعة بقعة من الضوء في اتجاه البستان، يرتطم رأس الممرض بالزجاج الجانبي فيسيل الدم من فمه.

يخرج «عاكف» من البستان المظلم وينظر إلى السيارة التي تعامل معها رجاله، يقتربون بحذر من طرفَي السيارة وهم يرفعون أسلحتهم، ينهض الممرض ويمسك بالميكروفون ويقول: «لا تقتلوه.. فهو مجرد رسول».

يقترب الملثمون شيئا فشيئا من السيارة بحذر وتؤدة ليتأكدوا من خلوها من متفجرات، يلمح الممرض ذلك فيقول مسرعا قبل أن يصلوا إلى بابه الذي أصبح سقفا لسيارة الإسعاف: «سائق الإسعاف رسول.. رسالتي إلى الرجل المكلف بالقضية.. مع مَن أتعامل؟».

يلمح عاكف الممرض المرتعد وهو يضع يده حول أذنه وكأنه يتلقى أوامره عن طريق سماعة تلفون.. يتناول «عاكف» ميكروفونا ممن حوله ويقول: «عاكف الوكيل»، يعلم أن اسمه كفيل بإلقاء الخوف في نفوس البعض، فهو ليس بالرجل الهين، وطالما خشي إرهابيون كثر من التعامل معه. يكمل «عاكف»: «وأنت.. مع مَن أتعامل؟!».

مع مَن يتعامل؟! لا يعرف بعدُ أنه ـ رغم قوته ـ يتعامل مع سياسي محنك، صحيح أن منصبه لا يتجاوز رئيس مدينة سانت كاترين، لكن مَن قال إنه يرغب في أكثر؟! النجاح بعد الثورة أن

تبقى متواريا، فكلما ارتقى سهل رؤية ما ينوي فعله، يكفيه أنه استمر في موقعه لسنوات كثر، تغير في وجوده عدد من المحافظين وبقي هو، فاعلا مسيطرا وصاحب الكلمة الفعلية الأولى، يقول «عبد العزيز فيّاض» في أذن الممرض الملتاع:

«أنا الرجل الذي يعرف الكثير.. يعرف ما حدث لبافلوس.. وينذرك إن تأخر قداس كاترين الغد لدقيقة واحدة عن موعده فستجد صورة الكاهن الغارق في دمائه على مواقع التواصل الاجتماعي».

يكمل الممرض الذي يتلقى الرسالة ويعيدها كببغاء مردد: «أمر آخر.. سيد عاكف.. لقد فعل رجالي بالدير ما سبق أن تم في قصر عباس الأول.. ستحتاجون للبدء من جديد».

ينظر «عاكف» إلى «ثيودلوس» فيدرك أن شيئا ضخما حدث في قصر هذا العباس الذي لا يعرفه، يكمل الممرض: «إذا وافقت على إقامة القداس غدا.. فلتؤكد لي ذلك.. ابعث لي رسالة ضوئية من سيارة الإسعاف المقلوبة أمامك.. شفرة مورس.. قل فيها: أحبك».

إن المتصل يستهزئ به الآن، وكم كان يحب «فيّاض» ذلك! يغضب «عاكف»، يحمل مسدسه ويتجاوز جنوده الذين يمشون في تؤدة وحذر من أمر السيارة، يتجه إلى عربة الإسعاف غير عابئ باحتمالية أن تكون مفخخة، يشد الممرض من كوة الزجاج الأمامي المنكسرة فيخرج رغم ثقله من شَدة واحدة، قوة غضب «عاكف» جلية، يرتعد الممرض، يتأكد القائد الخمسيني من وجود سماعة حول أذنه، يناوله الممرض المحمول، يمسكه «عاكف» ويقول مهددا: «دعني أوضح لك أمرا..»، لكن الرجل على الجانب الآخر

يقاطعه بثبات: «هش! فلتُطمئن مصطفى وجيه الممرض الذي أمامك أن طفلته إحسان عادت إلى أحضان أمها كما وعدنا.. لا تنسَ.. أحبك».

يغلق «فيّاض» الهاتف، يبحث «عاكف» عما هو متأكد منه.. الرقم لا يظهر على الشاشة.. عبارة «Private Number» في سجل الهاتف، يلقي المحمول، يعود أدراجه، يصرخ في رجُله «الأصلع» وهو يتلفت حوله: «أين ذهب ذلك المصور؟!»، يلتفت «الأصلع» فيبدو أن الفتى قد هرب، لا يسيطر «عاكف» على الوضع فيزداد حدة ويقول: «جدوا لي ابن الكلاب حالا، ولتراقبوا هواتف أقاربه».

يصمت قليلا، بينما يبدأ رجاله في تفتيش الممرض الواقع على الأرض، يقول «عاكف» لأحد رجاله: «طمئنه أن ابنته إحسان بخير ودعه يذهب»، يقف ويلتفت للممرض ويصرخ فيه: «سأسجنك لو تفوهت بكلمة مما حدث»، يسأل أحد رجال القائد «عاكف»: «هل أحتجزه يا سيدي؟».

ينظر «عاكف» لرجله بضجر، ألا يعرفون شيئا آخر غير الاحتجاز؟! ألا يرى المكان حوله ووضعهم فيه؟! يكرر الرجل الخمسيني تهديده للممرض ثم يشير له بيده أن ينصرف فيركض. يسير «عاكف» إلى حيث يقف الكهنة والمترجم، يسأل: «ما الذي حدث في قصر عباس؟!».

يقول «نستور» الذي يبدو قارئا للتاريخ: «تم تسميم كل ما في غرفته لقتله.. الطعام والشراب.. الوسائد والملابس، معنى ذلك أن خبز القداس قد يكون...».

ينظر إلى «ثيودلوس» الذي يقول باليونانية ـ يتكفل «نستور»

بإيضاحها ـ وهو يهرول: «لننتقل بافلوس إلى الداخل.. ونتجه إلى المطحنة فورا ونبدأ من جديد».

نبدأ من جديد.. هل سيسمح «عاكف» بعد كل ما حدث أن يقام القداس؟ يبعثر رجاله الذين لا يتجاوزون العشرين في أرجاء الدير للتأكد ممن تم تسميمه بالفعل.. قد يكون التهديد أجوف.. لكن خبرته تحتم عليه أن يتعامل مع كل التهديدات بجدية، إذن سيطالب بإلغاء القداس، حينها سيواجهون خطرا من إعلام إلكتروني أصبح لا يرحم ولا يمكن توقع ردة فعله هذه الأيام، قبل عام أخرج هذا الإعلام الجماهير إلى قلب العاصمة.

ما الخيارات المتبقية؟!

يبعثر رجاله لمواجهة تهديد أن يموت أحد الضيوف مسموما غدا، يفكر للحظات، في جميع الحالات سيبعثر رجاله في أركان الدير لأن ما يقارب من خمسة وعشرين راهبا بالداخل، وإن صح تهديد «قصر عباس» لأصبحوا على أعتاب مجزرة داخل جدران المكان المقدس.

يزن بقية احتمالاته.. لا يملك الآن إلا إخلاء الدير، لا، فربما هذا ما يريده الرجل، الاستسلام السريع.. وربما ينشر الرجل صورة الراهب المقتول في جميع الحالات، يتمنى أن يعود للمربع صفر بشدة، ينظر له أسقف الدير «إيوانيكيوس» بمعنى: ما العمل؟ يحتاج «عاكف» للمزيد من الوقت في هذه اللعبة الخطرة، يحاول طرد الفكرة من رأس المطران للمرة الأخيرة، يتعجب من هدوئه وسط ما يحدث، يقاطعه «إيوانيكيوس» قائلا: «نحن زهاد يا بني، نعبد الرب أو نلقاه».

ليس أمام «عاكف» سوى خيار وحيد، سيجاري خصمه إذن..

من قمة رأس الصفصافة الأقرب إلى مدينة سانت كاترين، يتحدث أحد البدو خلال هاتف مؤمّن مهرب وهو ينظر في اتجاه الدير:

«فلاش ثم ضوء طويل.. ٤ فلاشات.. ضوء طويل ثم ٣ فلاشات.. ضوء طويل ثم فلاش ثم ضوء طويل».

يضحك «فيّاض» على الجانب الآخر من الهاتف حتى يسعل وهو يقول: «وأنا أيضا أحبه».

(١١)

الرطوبة الخانقة تزكم أنف «بهي»، يكاد يجزم رغم تشوش رؤيته، والضبابية التي تغشي عينيه، أنه يعرف هذا المكان المغلق الرطب، تقوده أنفه لتعوض حاسته التي تأثرت بفعل ما حُقن به، رائحة الجاز تتصاعد من مصباح معدني محمول، يحاول أن يستعيد وعيه بالكامل، ينظر بتمعن، يتوهج فتيل المصباح الذي تحمله يد شخص يقف أمامه، ويعطي انعكاسات على العظام والجماجم المتجاورة بجواره، لم تخطئ حاسة الشم لديه إذن، إنه يرقد في أكثر الأماكن المقبضة في الدير والتي يخشاها هو الآخر؛ «الكميتريون»؛ «المعضمة» كما يسميها البدو، يجلس هيكل القديس إستيفانوس البواب في ردائه الأسود داخل الهيكل الزجاجي، تمسك عظام كفه اليسرى سبحته المزدانة بصليب خشبي فتلقي في النفوس هيبة، وكأنها تحرس الغرفة المخصصة لكومة عظام الأذرع والسيقان

خلفه، مهمته الأزلية التي يقوم بها هذا الهيكل للقديس المتوفَّى على تلك الوضعية منذ عام ٥٨٠ ميلادية، بينما تعلو الجماجم عن يساره كأنها جبل صغير يرتقي صعودا قاصدا الجنة، مستندة على أرضية رملية خفيفة ذهبية اللون.

تناوله يد الشخص حامل المصباح كوبا من الماء المشوب بحبيبات بيضاء تتحرك فيه، يقول الصوت: «اشرب..»، تحاول أذناه أن تعوض خلل رؤيته، تطربان إلى الصوت الأنثوي الهادئ الذي يكمل بإنجليزية بريطانية: «سيساعدك ذلك على التحسن»، يفرك عينيه بسبابتيه وكأنه يعيد شحنهما، ضوء المصباح المتوهج ينعكس على البشرة المرمرية، يميز أخيرا أنها فتاة تمسك بالمصباح، رآها مسبقا، إنها الفتاة التي طالع صورتها بصحبة الغزال، صاحبة الرسالة الصوتية عبر هاتفه المحمول، ما اسمها؟! يتذكر.. روبي أم روث؟! آه، روث، قالت له في الرسالة «روث»، أوروبية، شعرها أشقر قصير، يمنحها شكلا متمردا محببا، في أوائل الثلاثينيات، هادئة الملامح والصوت أيضا، تقول وهي تطمئنه: «لم تكن أمامي طريقة أخرى حتى لا تقاومني.. اشرب ذلك وسيساعدك أن تفيق بشكل أفضل».

تشرح له «روث» وهو يتناول الكوب أنها منحته مخدرا خفيفا كالمستخدم مع الحيوانات الثديية الصغيرة أثناء علاجها، وأنه لم يغب عن الوعي سوى ثلاث دقائق على الأكثر، لحسن حظها أنه سار معها متثاقلا قبل أن يسقط، لم تكن لتستطيع جره عبر البستان إلى داخل «المعضمة»، ثم تخبره أنه سيتحسن بمجرد أن ينهي كوبه فيتناوله برشفة واحدة.

يشعر «بهي» بأن الخدر في أطرافه زال، يعتدل من جلسته، يسند بيديه على الشبكة الحديدية التي تفصله عن مئات الجماجم المكونة لقديسي وشهداء الدير، بعد فترة سيكون مصير رأس «بافلوس» هنا، في البداية سيتم دفنه في مقابر تتسع لخمس جثث فقط، وعندما يحين أجل السادس يتم إخراج الجثة الأقدم لتحتل عظامها ورأسها مكانا في «المعضمة»، فالأرض الصخرية لا تساعدهم على إيجاد أماكن كافية لدفن الرهبان، فكانت «المعضمة» كمثيلاتها في العالم مكانا مقدسا ومقبضا لحفظ جماجم وعظام الكهنة والرهبان والمطارنة، يتذكر أول مرة دخلها مع «بافلوس»، يوسم الراهب الصليب على صدره احتراما لأسلافه، ويسمح للفتى بالتصوير، يشير إلى جمجمة في الصف الخامس ويخبره باسم صاحبها، يندهش «بهي»، لا بد أن شيئا مميزا فيها، أو أن صاحبها مات بكسر فيها بقي مع الزمن! يبحث «بهي» عن هذا الشق فلا يجده، يبتسم «بافلوس» الذي يستشف منبع حيرته فيزيدها ويخبره باسم جمجمة ثانية، ثم ثالثة.

«كيف تعرفهم؟»، سأله بهي.

فأجاب «بافلوس» بعباراته النمطية المعتادة التي يعطيها صوته المتهدج أثرا أكبر مما تحمل: «وكيف لا؟! المكان يذكرهم ويعيش لهم كما عاشوا فيه طوال أعمارهم، وبقاياهم حفظت أسرار الرب والدير، فحفظهم الدير هو الآخر داخله، وحفظتهم بالتبعية في قلبي ووجداني».

يقف «بهي» متسائلا في أعماقه: هل سيستطيع تمييز جمجمة صديقه الروحي حين توضع في المكان؟ تلحظ «روث» حركة كفه

على أسلاك «المعضمة»، تعلق: «يبدو أن لك الكثير من الذكريات هنا!».

«أكثر مما تتخيلين»؛ يرد، فتسأله: «إذن لماذا منعوك من دخول كاترين بعدها؟!».

يهز كتفيه أنه أمر يطول شرحه، أو أنه لا يريد الحديث عنه، يقول بالإنجليزية: «ليس الوقت المناسب للحديث عن الذكريات.. من أنت؟!».

تخرج «روث» هاتفها المحمول، وتضغط على ملف صوتي؛ صوت الراهب «بافلوس» المتهدج بالإنجليزية: «لم أعد أثق في أحد..»، يصمت لثوانٍ ثم يكمل: «روث.. الآن أكثر من أي وقت مضى يحومون حول الشيء ويريدونه..»، يصمت مرة أخرى لثوانٍ، يعتقد «بهي» أن الرسالة انتهت، لكن «روث» تشير أن ينتظر. ينطق «بافلوس» أخيرا: «أحتاج إلى الشخص المناسب ليساعدني».

ما إن تنتهي الرسالة حتى يطلب «بهي» أن يسمعها مرة أخرى، تعتقد «روث» أن شيئا لفت نظره فيها، فتسأله وهي تنظر له بحيرة: «لماذا؟»، لا يجيب، يشعر بحنين فقط للرجل ويتمنى سماع صوته مرة أخرى، لقد عقَّدت التكنولوجيا الفراق ولم تسهله، أيمكن أن ينسى الرجل وسط كل تلك الصور التي جمعته به خلال السنوات الماضية أو مع صوت ينساب من المحمول في وهَن؟! يتعجب من الرجل الذي عرفه عن قرب طوال سبع سنوات، لم يدرِ أنه يملك محمولا على الإطلاق، لم يكن معنيا بالتكنولوجيا سوى في عمليات ترميم وثائق المكتبة، لقد تغير كثيرا خلال العامين ونصف العام الفائتين، يمتلك محمولا! ويرسل رسائل صوتية أيضا، يترك

فراغات كثيرة بين الجملة والثانية وكأنه نسي الغرض من تلك الرسائل، السرعة، ليست عظة دينية تحتاج إلى فترات الصمت والهدوء، يصارح «روث»: «لم أكن أعرف أنه يحمل هاتفا خلويا».

لا تعلق «روث»، فلم يكن هذا هو أول تعليق تنتظره على رسالة يعترف فيها المطران بخوفه ومراقبته ورغبة الجميع في الحصول على «الشيء»، ينتبه «بهي» لملامح وجهها فيفسر: «أقصد.. لماذا لم يخرج هاتفه ويطلب الأمن لحمايته من القاتل، أو ليخبر الجبالية بهوية الفاعل بسهولة إن كان امتلك الوقت للفرار من المكتبة أو مهجعه إلى البستان في هذا البرد؟!».

تشعر «روث» لأول مرة بوجاهة ما يقوله «بهي»، تحاول أن تجد مبررا منطقيا فتقول: «ربما لم يكن يعنيه القاتل قدر ما يعنيه الشيء الذي ذكره في الرسالة الصوتية التي أرسلها لي».

أخيرا يجد «بهي» شخصا يفكر في الاتجاه الصحيح.. لماذا فعل القاتل ذلك؟

يحاول أن يحافظ على تدفق تحليلهما فيعلق: «إن كان خصَّكِ بذكر الشيء، فلا بد أنكِ تعرفين ما هو بحكم عملك».. يتذكر أنه لا يعرف شيئا عن «روث» إلى الآن رغم كل ذلك، فيسأل: «صحيح! مَن أنتِ وماذا تعملين؟».

في ظروف أخرى، لوجدتْ «روث» فرصة لإخراج بطاقة تعريفها الخاصة، والتي تحمل شعارات برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ومشروع التنوع البيولوجي المصري، بالإضافة إلى مركز أبحاث البيئة التابع لجامعة قناة السويس لدرجة تخطف بصر المدقق من اسمها الثنائي المسبوق بلقب دكتور، وتحته مهنتها

كباحثة في مشروع توثيق الحيوانات المهددة بالانقراض، لكنها لن تتمكن من ممارسة طقوسها المعتادة في التعارف بالإسهاب في الحديث عن الأنواع والفصائل التي تعمل على توثيقها وإنقاذها من الانقراض، أو أنها قضت ما يقارب العام لتتبع «رخمة مصرية»، أو «النسر المصري» الصحراوي النادر ولم تفلح، ثم تستغل الأمر لتشرح لمن تقابله عن أضرار البلاستيك والصيد الجائر في إفريقيا وآسيا بحماس شديد يجعل عروق رقبتها نافرة، لكن «روث» تقول: «أعمل منذ عامين في مشروع لتوثيق الحيوانات البرية النادرة في سيناء، توطدت علاقتي بالأب «بافلوس» لأنه سمح لي بالاطلاع على وثائق الرحالة في توثيق ورسم الحيوانات البرية التي يضمها المكان، وأماكن تواجدها وهجراتها، فكنت أزور المكتبة يومين في الأسبوع، ويبدو أنه وثق بي كما كان يثق بك».

يثق بـ«بهي»! هو من اتخذ قرار منعه من دخول كاترين، أخبره وهو يقف بجوار «أبي عمران» رئيس «الجبالية» في الدير أنه بعدما فعله لم يعد ضيفا مرغوبا فيه؛ فرمان مهذب بمنعه فهمه في حينها، فخرج من الدير ولم يعد.

يعلق «بهي» أنه لا يعتقد أنه كان يتمتع بتلك الثقة في الفترة الأخيرة، تقول «روث» محللة: «إذن لماذا استدعاك؟ كل ما تركه بعد موته كان ظرفا يحمل اسمك».

يحمل «بهي» الصور في يده ويقلبها مرة أخرى، ويقول: «إنها مجموعة عادية من الصور بلا أهمية، وجملته على صورة أيقونة المسيح بلا معنى تقريبا».

تنظر «روث» إلى الصور التي يحملها المصور الطريد الذي لا

يعرف سبب وجوده، تشدها الألوان، تسأله: «هل تسمح لي؟!»، تتناولها، تحرك الواحدة تلو الأخرى، جميعها بألوان حمراء ووردية بدرجة متعبة ولافتة للعين، أماكن متفرقة للدير: اللوحة الخارجية للتأسيس، الزخارف الداخلية لكنيسة العليقة، عباءة رهبنة أثرية مطرزة بأيقونات المسيح والسيدة العذراء، أيقونة القديس ديمتروس من الفسيفساء الخشبية، لقطة بانورامية للدير من أحد القمم الكاشفة، المسجد، الكنائس الصغيرة المنتشرة.

بالفعل لا رابط يمكن ملاحظته في المجموعة التي تحملها، ولا شيء لافت سوى الألوان، تسأله «روث» فيجيب: «تعلمين أن الأب بافلوس كان مصابا بعمى الألوان؟».

تجيب «روث»: «نعم، تريتانوبيا على ما أعتقد».

يهز «بهي» رأسه بالإيجاب: «أندر أنواع عمى الألوان، يعجز صاحبه عن تمييز درجات الألوان بين الأصفر والأزرق وما بينهما، ليحل محلهما أحمر وردي بدرجاته، وكلما زاد الأصفر توهجا تحول في ناظريه إلى لهب مشتعل، هكذا كان يرى العالم».

تعلق «روث» وكأنها تنبهت لأمر قديم: «ألهذا كان الكاهن الوحيد الذي يحمل صليبا فضيا، ويعتمد على إنهاء العمل في المكتبة صباحا حتى لا يضطر إلى البقاء في الضوء الأصفر؟».

بصوت يمتلئ بالشجن والحنين يرد: «في عيد ميلاده الأخير، أهديته تلك المجموعة من الصور لجميع أركان الدير، طبعتها خصيصا وخلافا للمعتاد في هذا الشأن على ألواح طباعة، كان أملي أن يضعها في أطر ليجعل الجميع يرى العالم كما تدركه عيناه كنوع من المشاركة، لكنه نظر إلى الصور وثار غاضبا، مزق الصورة الأولى

أمامي، للمصادفة كانت للمعضمة التي نقف بها الآن، وأخبرني أنه سيحرق بقيتها، اعتقدت أنه ظن أنني أهينه، أو أنه تعامل مع إعاقة عينه بنوع من الحساسية، فانتظرت عدة أيام حتى يهدأ واعتذرت».

لم ترو إجابات «بهي» ظمأ «روث» فتقول بنوع من الاندهاش الذي لا ينتظر إجابة: «إذن لماذا استدعاك؟!».

«بهي» غير معني بالإجابة بما دام الكاهن نفسه لم يوضح السبب، لا يريد أن يكون في هذا السيرك الدامي، يتناول الصور ويضعها في جيب حقيبة معدات التصوير بينما يمسك بصورة أيقونة المسيح، يغلق السحّاب، ويرفع الحقيبة وهو يخطو نحو باب «المعضمة» قاصدا الخروج: «لا أعرف، كل ما أريده الآن الخروج من هنا للبحث عن دورة مياه، فلنعرض التسجيل الصوتي الذي بحوزتك على رجال الأمن بالخارج وننهي الأمر».

تسأله «روث» فيتوقف تماما: «أواثق أنهم رجال أمن؟!».

يلتفت، فتكمل: «هل رأيت هوياتهم؟! إنهم يتعاملون مع الأمر بنوع من الغموض والتكتم».

وكأنها حقنته هذه المرة بمصل الشك، تكمل شارحة: «إنني مثل بافلوس.. لا أثق في الآخرين، وإن كان آخر ما قاله لي إنه يتشكك في الجميع سأعتبرها عظته الأخيرة».

يقول لها وهو يزن الأمور ملوحا بالصورة التي تحمل كتابة «بافلوس»: «أيًا ما كان، سأخرج لهم وأسلمهم الصور، في مثل هذا الوقت لا أريد أن أتورط في أمر يحمل اسم أحمد شفيق».

«من؟!».

يعقّب «بهي»: «سياسي مصر ضليع في النظام السابق.. استعاد مكانته بعد الثورة ويستعد لخوض الانتخابات».

يخطو العتبة العلوية التي تقوده إلى سلم «المعضمة»، يقلب الصورة بين إصبعيه كعملة معدنية بين المسيح وشفيق، ثم يتخشب تماما، تسأله «روث»: «ماذا؟!».

ينتفض قائلا: «نحتاج لدخول مكتبة الدير حالا».

«لماذا؟!».

بنفس النبرة يقول «بهي»: «سأشرح لكِ هناك».

«كيف؟! الأمر ليس سهلا.. الأمن والجبالية وبقية العناصر التي لا نعرف من هي وماذا تريد منتشرون في المكان.. وفرضا اجتزنا كل هذا.. المفاتيح.. إنها بالكامل مع أسقف الدير».

يفرك «بهي» رأسه وكأنه يفكر، يتحرك خطوتين ذهابا وإيابا، تتلاقى عيناه مع التجويفين الداكنين لهيكل القديس «إسطفانيوس» البواب، الحارس الأمين للمعضمة، يقول بلهجة تقريرية: «الخوجة!».. يكمل وهو يضع العراقيل أمام حله: «نحتاج إلى الخوجة.. لكنني لا أثق في أن يساعدني».

(١٢)

عقل «عاكف» يعمل كماكينة طحين، كالتي تعمل أمامه مباشرة، حيث يقف الأب «إيوانيكيوس» بنفسه في المطحنة، وتتناثر بقايا الدقيق على الطاولة الخشبية، يشير «ثيودلوس» لأحد بدو الجبالية

بتنظيف الطاولة بماء البئر المغطاة، يدخل أربعة من الجبالية حاملين شكائر دقيق، يشمر أسقف الدير كُميه فيعطي الإشارة لبقية الكهنة والجبالية بفعل الأمر نفسه والبدء في عمل خبز القداس (القربان) من جديد، يحاول وكيل الدير «ثيودلوس» المسئول عن الأمور الحياتية للدير أن يثني الأسقف عن العمل بيده وأن يخلد للراحة من أجل قداس الغد فيأبى الأخير.

يسأل «عاكف» مترجم الدير: «وكيف تضمنون أن هذا الدقيق أو البئر المغطاة غير مسممة؟!»، يجيب «نستور»: «رئيس الدير يخزن عددًا من الشكائر في مكان سري من أجل الطوارئ، ويغلق إحدى الآبار فلا يُفتح كلاهما إلا بمفتاح خاص به».

«بحسابات المنطق، لا يوجد أي ضامن لنقاء ما يفعلونه هنا»؛ هكذا يُحدث «عاكف» نفسه، ينظر إلى الخبز القديم المرصوص على ألواح خشبية وضعت على الأرضية لاستبعاده: «إن كان الأمر يتعلق بدخيل أو جاسوس قادر على نشر السم في المكان، فمن المحتمل أن يعرف تلك الخبايا السرية».

يسأل «عاكف» أحد البدو: «أين رئيسكم يا هذا؟».

«أبو عمران ربما يطوف المكان للتأمين».

يسأله «عاكف»: «كم عددكم داخل الدير؟».

يهز البدوي كتفيه، فيقول «نستور»: «في الأيام العادية لا يسمح سوى لرئيس الجبالية بالمبيت داخل الدير، أما هؤلاء فهم مَن يحرسون البستان ويبيتون في المناطق الجبلية الكاشفة بالقرب من الدير، ربما كان عددهم عشرة على أكثر تقدير.. سيفيدك أبو عمران أكثر».

يأمر «عاكف بك» البدوي: «ابحث عن رئيسك واستدعه».

ثم يلتفت إلى «نستور» ويقول: «نتحدث عن وجود ٣٠ راهبًا داخل الدير».

يقول «نستور» بعربية ركيكة ونبرة منكسرة: «بعد وفاة أبونا بافلوس.. نحن في حضرة خمسة وعشرين راهبا».

الدافع؛ نواة العجين الأساسية لأي جريمة، غرض المجرم الذي تصبح معه كل الأمور مشروعة، البوابة التي تسلسل منها الشيطان لإقناعه بما يفعل، حتى في أولى الجرائم الإنسانية كان الدافع حاضرا؛ الغيرة، القربان الذي لم يقبله الرب من أحدهما فدفعه لقتل أخيه، ما الدافع يا ترى؟!

تدور الأفكار في رأس «عاكف» مع المطحنة، تقلب مكوناتها بحثا عن قوام قابل للاقتراب من النيران، يبدأ بمجموعة من الأمور العاجلة، يعطي أوامره لرجاله بالانتشار على المدخلين الشمالي والغربي، يجري اتصالا هاتفيا لوحدات شرطية طالبا بوابات كاشفة للمعادن ليتم تركيبها قبل قداس الغد، ثم يلتفت لرجله الأصلع الذي يحتل مكانا مميزا بعده، يطلب منه أن يبحث عن المصور بنفسه بعد أن فشل الرجال في إيجاده بمحيط البستان وفندق الدير المغلق والخالي من الزوار لاعتبارات تأمين القداس، يتحرك الأصلع، فيأمر عاكف أحد البدو الجبالية طالبا خريطة للمكان حتى يستطيع نشر بقية رجاله، ينظر البدوي إلى «ثيودلوس» طالبا الإذن بعد أن ترجم نستور ما يحدث، يتجه «ثيودلوس» إلى «إيوانيكيوس»، يهمس في أذنه، المطران الأكبر وأسقف الدير يبدو حادا قاطعا في رده الهامس، تكشفه حركات يديه العاجيتين اللتين تنفران العروق

بتنظيف الطاولة بماء البئر المغطاة، يدخل أربعة من الجبالية حاملين شكائر دقيق، يشمر أسقف الدير كُميه فيعطِي الإشارة لبقية الكهنة والجبالية بفعل الأمر نفسه والبدء في عمل خبز القداس (القربان) من جديد، يحاول وكيل الدير «ثيودلوس» المسئول عن الأمور الحياتية للدير أن يثني الأسقف عن العمل بيده وأن يخلد للراحة من أجل قداس الغد فيأبى الأخير.

يسأل «عاكف» مترجم الدير: «وكيف تضمنون أن هذا الدقيق أو البئر المغطاة غير مسممة؟!»، يجيب «نستور»: «رئيس الدير يخزن عددًا من الشكائر في مكان سري من أجل الطوارئ، ويغلق إحدى الآبار فلا يُفتح كلاهما إلا بمفتاح خاص به».

«بحسابات المنطق، لا يوجد أي ضامن لنقاء ما يفعلونه هنا»؛ هكذا يُحدث «عاكف» نفسه، ينظر إلى الخبز القديم المرصوص على ألواح خشبية وضعت على الأرضية لاستبعاده: «إن كان الأمر يتعلق بدخيل أو جاسوس قادر على نشر السم في المكان، فمن المحتمل أن يعرف تلك الخبايا السرية».

يسأل «عاكف» أحد البدو: «أين رئيسكم يا هذا؟».

«أبو عمران ربما يطوف المكان للتأمين».

يسأله «عاكف»: «كم عددكم داخل الدير؟».

يهز البدوي كتفيه، فيقول «نستور»: «في الأيام العادية لا يسمح سوى لرئيس الجبالية بالمبيت داخل الدير، أما هؤلاء فهم مَن يحرسون البستان ويبيتون في المناطق الجبلية الكاشفة بالقرب من الدير، ربما كان عددهم عشرة على أكثر تقدير.. سيفيدك أبو عمران أكثر».

يأمر «عاكف بك» البدوي: «ابحث عن رئيسك واستدعه».

ثم يلتفت إلى «نستور» ويقول: «نتحدث عن وجود ٣٠ راهبًا داخل الدير».

يقول «نستور» بعربية ركيكة ونبرة منكسرة: «بعد وفاة أبونا بافلوس.. نحن في حضرة خمسة وعشرين راهبا».

الدافع؛ نواة العجين الأساسية لأي جريمة، غرض المجرم الذي تصبح معه كل الأمور مشروعة، البوابة التي تسلسل منها الشيطان لإقناعه بما يفعل، حتى في أولى الجرائم الإنسانية كان الدافع حاضرا؛ الغيرة، القربان الذي لم يقبله الرب من أحدهما فدفعه لقتل أخيه، ما الدافع يا ترى؟!

تدور الأفكار في رأس «عاكف» مع المطحنة، تقلب مكوناتها بحثا عن قوام قابل للاقتراب من النيران، يبدأ بمجموعة من الأمور العاجلة، يعطي أوامره لرجاله بالانتشار على المدخلين الشمالي والغربي، يجري اتصالا هاتفيا لوحدات شرطية طالبا بوابات كاشفة للمعادن ليتم تركيبها قبل قداس الغد، ثم يلتفت لرجله الأصلع الذي يحتل مكانا مميزا بعده، يطلب منه أن يبحث عن المصور بنفسه بعد أن فشل الرجال في إيجاده بمحيط البستان وفندق الدير المغلق والخالي من الزوار لاعتبارات تأمين القداس، يتحرك الأصلع، فيأمر عاكف أحد البدو الجبالية طالبا خريطة للمكان حتى يستطيع نشر بقية رجاله، ينظر البدوي إلى «ثيودلوس» طالبا الإذن بعد أن ترجم نستور ما يحدث، يتجه «ثيودلوس» إلى «إيوانيكيوس»، يهمس في أذنه، المطران الأكبر وأسقف الدير يبدو حادا قاطعا في رده الهامس، تكشفه حركات يديه العاجيتين اللتين تنفران العروق

منهما، يهز «ثيودلوس» رأسه بالإيجاب للأسقف، ويعطي أوامره للبدوي بتوفير خريطة للمكان.

الأيادي تضع الدوائر العجينية على اللوحة المعدنية استعدادا لإدخالها إلى الفرن، طاقة المكان البشرية بالكامل تقريبا، ما الدافع الذي يجعله ينبه الجميع بوجود سم من الأساس، إن كان الأمر يسهل تداركه حتى وإن أنهك الجميع قبل القداس؟!

الدافع.. لا يمكنه أن يعتبر الجريمة انتقامية، فلا تمثيل بالجثة رغم أن الفاعل كان يمتلك الوقت والمكان المعزول ليفعل فعلته، كما أنه وجد رسائل المطران في يده، فلا يعقل أن يعوز الأمر للسرقة، وقد شهد طوال حياته المهنية جرائم طائفية كثيرة، يكون منبعها الفخر لا التكتم، يعلن أصحابها النصر الديني الذي حققوه: لقد أرضينا خالقنا بقتل ذاك الرجل، انتصر خالقنا على خالقه، وعقيدتنا على ضلاله، وكتابنا على محرفاته، الرجل الذي حدثه هدده بإعلان الجريمة لكنه لم يعلنها، يعتبرها ورقة ضغط عليه، كل ما يريده هو إقامة القداس في موعده، ربما أراد إتمامه ليجهز عليهم في عمل أكثر ترويعا وإرهابا، لكنه إن أراد لتركهم على جهلهم يتناولون الخبز المسمم بسهولة، يشعر «عاكف» أن أفكاره تحتاج إلى سيجارة، يشعل واحدة فينظر المطران «إيوانيكيوس» في صرامة للرجل الخمسيني، يهز «عاكف» رأسه في تعجب ويخرج ليقف على باب المطحنة، غريب أمر الرجل! يخشى السرطان في الوقت الذي يملأ السم جنبات ديره.

يُخرج أحد البدو الخبز المسمم خارج المطحنة، يضعه على الأرض استعدادا للتخلص منه كما أمر رئيس الدير، وحتى لا يختلط

بما أدخلوه إلى الفرن الآن، يدخل إلى المطحنة ثم يعود لـ«عاكف» قائلا: «أبونا إيوانيكيوس يقول لك التدخين ممنوع يا بك»، اللعنة على التعليمات في تلك الأوقات، يلقي «عاكف» سيجارته في نفاد صبر وهو يقول متبرما: «أقال يا بك؟!»، يرد البدوي في عفوية: «لا.. يا بك إضافتي أنا»، يدوس «عاكف» السيجارة في غيظ، ليذهب صفاء ذهنه إلى الجحيم، ومعه الدافع والمصور وما يخفيه الراهب المقتول..

ما يخفيه الراهب المقتول! ربما كان هذا هو الدافع.. وربما كان دافع «بافلوس» في استدعاء المصور أيضا.. وما يحدث الآن ما هو إلا عملية إلهاء.

يمعن «عاكف» في النظر إلى خبز القداس المسمم على الأرض، ثم يميل فجأة ويتناول رغيفا، يقضمه في فمه، لا يدري إن كان فعل الصواب! سيعرف بعد قليل أو ربما لن يعرف في هذا العالم أساسا، يلوك عاكف قطعة أخرى، يجهز على الرغيف.. لا يزال واقفا على قدميه، حلو المذاق، لطالما كان خبز القداس طيب الطعم، غصن السلام بين الدير والعربان حوله، يعطونهم الخبز والزيتون والزيت كل فترة في طقس يسعد الأطفال ويعتبره البدو فرضا على الرهبان.

يمسح «عاكف» بقايا دقيق من فوق شاربه، يبتسم في هدوء، يطل برأسه على الأيادي المنهكة في المطحنة، يتركهم، لا داعي لكشف الأوراق الآن، يحتاج ألا يكون ردة فعل لعدوه مادام لم يمت، يميل جاذبا رغيفًا آخر يعينه على برد الشتاء، ويتحرك قاصدا البوابة الغربية، يخرج منها، يمشي في اتجاه سيارة الإسعاف المقلوبة، يقول له أحد رجاله المتمركزين إنه سيتم رفع السيارة خلال دقائق

لفتح الطريق لضيوف قداس الغد، يخبره «عاكف» أن يتمهل لمدة ساعة، يناوله ورقة تحمل «شفرة مورس»، تلك الشفرة التي تحول الأحرف لنقاط قصيرة وأشرطة طويلة يتم بثها صوتيا أو ضوئيا، يطلب منه أن يبثها بالأضواء ويكررها خلال تلك الفترة:

«معي ما يخصك.. فلنتقابل.. عاكف.. أحبك الآن أكثر».

(١٣)

لا تركض.. ففي مثل هذا الجو ستنفجر رئتاك.

ما إن يطل «بهي» برأسه في البستان حتى يجد الظلام دامسًا، رحل الجميع إلى الدير لتأمينه، تسأله «روث» عن كيفية دخول الدير وسط تلك التأمينات، يشير لها في عكس اتجاه الدير فلا تفهم، يخبرها أنهما سيذهبان إلى «الجبانة»، المقابر التي يدفن فيها الرهبان، بجوار «المعضمة»، تشعر «روث» بالتوتر، فتسبقه ممسكة بهاتفها المحمول الذي ينير كشافه الصغير طريقهما، تتحرك مهرولة تقارب على العَدْو فيوقفها!

لا تركض يا بهي..

إن كنت تنوي زيارة الدير كثيرا كما تقول فلا تفعل.. ستشعر بالهواء جافا كتيجان الشوك فوق رأس المسيح.. فلتسر بمحاذاة خطوتي.

لكنك تمشي الهوينا مولانا «بافلوس» وأنا في عجلة من أمري.

وهل ركض الأنبياء تجاه الوحي؟! لم يفعلوا.. الحكمة تتطلب

التؤدة.. دراسة التاريخ تحتاج تاريخا مماثلا.. والعلم لا يستقيم مع الرعونة.. وإلا لكان آدم يحيطنا بذراعيه في الجنة إلى الآن.. قلت لك لا تركض.. وستفعل ما أقوله.

تتوقف «روث» ظنا أن شيئا خلفها، يخبرها «بهي» بأمر الجو، ترى ملابسه خفيفة على البرد الذي يحيط بالمكان فتناوله وشاحها، يبتسم ولا يقدر أن يرد عرضها فهو أحوج ما يكون لذلك.

يدلفان إلى «الجبانة»، شواهد بيضاء بلا أسماء، فلا أحد يطيل بقاءه هنا، ستُفتح إحداها بالغد من أجل «بافلوس»، تسأله «روث»: «ماذا نفعل هنا؟ ربما أرسلوا أحدا للتأكد من جاهزية وسلامة المقابر قبل دفن بافلوس في الفجر؟».

يجيبها: «هل تعلمين بطقوس المعضمة؟!».

«بالطبع، يرويها المرشدون السياحيون في الجولات رغم أنهم يمنعون زيارتها إلا فيما ندر.. شدتني في زيارتي الأولى التي سمح لي بها، خمسة رهبان يُدفنون، ثم يخرج أقدمهم إلى «المعضمة» بمجرد وفاة السادس، لأن المكان لا يتسع إلا لخمس جثث، توضع جمجمة الأقدم في غرفة وساقيه وقدميه وذراعيه في غرفة أخرى داخل المعضمة».

يشير لها إلى الأرض ويقول لها بطريقة استعراضية:

«وبالرغم من ذلك لم يسأل أحد قط عن سبب وجود ست مقابر».

تندهش «روث»، تسلط ضوء المحمول، وتبدأ في العد بأصابعها: «واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة.. خمسة.. ستة!».

في الوقت الذي يتجه فيه «بهي» إلى المقبرة الأولى العلوية من جهة اليمين.. يزيل طبقة ثلج وتراب خفيفتين.. فيظهر تحتها باب خشبي قديم بلا مقابض.. ينفتح من المنتصف، من النوع الذي يرتد بمجرد دفعه، سواء تم ذلك من الداخل أو الخارج، يشير لها إلى داخل القبر المظلم، ويشير لها داعيا «هيا بنا».

لا تخبر أحدا.

وما فائدة التاريخ إن كنت سأكتمه في قلبي يا مولانا «بافلوس»؟!

لأننا لسنا في برنامج «توك شو» ليلي غرضه جذب أكبر عدد من أصحاب الفضول يا بني، من أجل التاريخ يقتتل البشر، قد يبدو لك أن أغلب الحروب قائمة بسبب الأرض وتملكها، أو بسبب مطامع، ليس صحيحا، نحن نحارب من أجل رواية تاريخية، نصدقها، نؤمن بها، وتعطينا الشرعية، الضمير المستريح لسفك دماء من لا يؤمنون بتلك الرواية، أو لأن روايتهم تتعارض مع روايتنا التاريخية، حينئذ يتوجب طمسها، ولا تطمس رواية إلا بموت كل رواتها يا بني.

لكنك تخبرني الآن مولانا «بافلوس».

ربما أرتكب حماقة سأندم عليها كثيرا.. فلتتبعني إلى داخل القبر.

تنظر «روث» إلى السلم الضيق الذي يقود نحو المجهول، تبدو مترددة، يتناول «بهي» هاتفها المضاء، يسلطه إلى الأسفل ويسبقها هابطا درجات إلى داخل القبر، يهبط كما يفعل العصاة في لوحة سلم الفضائل «سلم السماء» للقديس يوحنا السلّمي، فتتبعه في خوف.. تفكر أنه رغم الفاصل الصخري ترقد على يسارها في قبر مجاور

جثة مطران، المكان في الداخل ضيق، مبني من الحجارة، بقبة مقوسة تجبرهما على الانحناء، يعلو صوت أنفاسها من الخوف، يقرر «بهي» أن يكسر فزعها بأن يحكي لها: «الدير فيه أقدم وأطول أنفاق سيناء على الإطلاق، كان الرهبان يستخدمونه في الهروب في أوقات الشدة من داخل الدير إلى البستان أو بالتحديد إلى الجبانة في البستان».

تسأله «روث»: «ولماذا لا يعرف أحد بأمر هذا النفق؟!».

يقول: «لأنه غير مدرج في المعالم السياحية للدير، دأبوا على إخفاء الأمر، بافلوس سمح لي بالتصوير مرة».

تسأله: «وإلى أين يقودنا هذا النفق؟!».

يقول: «داخل الجدار.. سمك جدار الدير يجاوز المترين ونصف المتر لدرجة جعلتهم يبنون في أجزاء منه كنائس صغيرة، باب هذا النفق صغير يغطيه باب البوابة الغربية الشمالية عندما يُفتح فلا يظهر أن بابا خلف المفتوح موجود بالجدار».

يتوقف «بهي» عن الحديث متخشبا مما أمامه، تطل «روث» برأسها، لا تحتاج لوقت تدرك أنهما أمام «أم جنيب» كما يسميها بدو سيناء، أو الحية الفارسية المقرنة، تلك الصغيرة الكفيلة بأن ترديك قتيلا بسهولة، ورغم ذلك فقد رأت «روث» بعض البدو يصطادونها، ليس دفاعا عن النفس بل بحثا عن الفحولة، يعتقدون أنه إذا ما تم قليها في زيت الزيتون وأكلها مع الفتة فإنها تمنح الرجل قوة لا تضاهى شريطة ألا يشرب الماء بعد تناولها ليوم كامل، فإن فعل وشرب، فإن الموت نتيجة انتفاخ المعدة مصيره.

تمسك «روث» يد «بهي» ألا يخاف، تسحب الهاتف وتصوب الكشاف تجاه الفحيح الذي يتردد صداه في الممر الضيق، لا يوجد سوى واحدة، لكنها لن تتركهما بسهولة.

لا تثق بأحد.

لكنك تفعل الآن يا مولانا!

سيصيب قلبك يا بني علامات بأن تلقي بجزء من حملك لهذا الشخص تحديدا.. حين ترى تلك العلامات لا تتجاهلها.

يرى «بهي» «روث» وهي تُخرج من جيب بنطالها الجانبي الكبير عصا معدنية يمكن فردها، تشبه تلك العصي المستخدمة في الكشافة أو رحلات التسلق الجبلية، وسكينًا سويسريًّا متعدد الأغراض، تلف الثعبان في هدوء حول عصاها، فيلتف الأخير، عيناه تلمعان في الضوء، بيدها الأخرى التي تحمل الهاتف تبعد «بهي» يلتصق ظهره بالحائط، يقشعر، يحاول أن يشغل عقله عن الذيل الذي يتلوى بالقرب من وجهه، طريقته المعتادة في الهروب، يدعو عقله للتداعي الحر، يتذكر أن أول تعارفه بالفتاة كانت أن أسمعته رسالة تحمل جملة «بافلوس»، إنها تلك العلامات التي تحدث عنها العجوز. هل تترك عضات الأفاعي علامات؟!

تفشل طريقته في الهروب، كلما فكر في شيء عاد إلى الأفعى الراقصة أمامه، يضيق نفسه قليلا، فيضع يده على صدره حتى لا ينهار كما فعل في المطار، يرتعد جسده، يستشعر الثعبان ذلك فيغير وجهة رأسه الذي كان يشق طريقه بهدوء نحو أنامل «روث»، ترى الأخيرة ذلك، فترتجل مسرعة، تحرك يدها حركة نصف دائرية

لأعلى لتلقي الثعبان والعصا خلفها، قبل أن تشد «بهي» مهرولة في النفق.

لا تنسَ ما قلته لك يا بهي.

ولماذا كل تلك النواهي؟!

أوَلَمْ تكن أغلب وصايا الرب العشر لكليمه موسى نواهي؟ ثماني تحديدا، أوَلَمْ يفعلها مع آدم وحواء في شجرته المباركة؟ النهي أسبق دائما من الأمر وأشد أهمية، ففي فعله يحدث الجرم أو الخلل أو المعصية، أما الأمر المنسي ففي عدم فعله ضرر أقل، وذنب يجوز تكفيره أو تداركه.

(١٤)

النار أحد قطبَي المعادلة.. الشعيرة التي بات يحرص عليها البعض، والكفَّارة التي يدفع بها آخرون ذنوبهم، ونتيجة الامتحان الذي يضعه الخالق في نهاية الكون، ويضعه فرعون في نهاية يوم عادي لطفل لا يتجاوز العامين.

يحبو الطفل لاهيا في هذا المُلك الفرعوني الممتد، رحابة حضن آسيا امرأة فرعون تعطي للقصر امتدادا نحو الجنة مباشرة، يلتقط في يده مرآة نحاسية ومشطًا على أرضية مخدع السيدة، أما المرآة فتتخذ شكل الإلهة حتحور ربة الأمومة؛ سيدة ذات قوام ممشوق، لها قرنان وتحمل فوق رأسها شمسا دائرية هي موضع المرآة، رأى ذات الربّة تتخذ شكل البقرة في المشط الذي تصفف

به السيدة شعرها، ولم يكن يعلم وقتها أن تلك البقرة ستؤثر في مجرى حياته، لكنها لن تكون البقرة الأخيرة المؤثرة، أو القرنين الوحيدين في مشواره، يصدر فرعون صفيرا من فمه لجذب انتباه الطفل، فيحبو مسرعا باسما، يجثو حاكم إيجيبت على ركبتيه ليلتقطه، يرفع الطفل المشط، ويحرك يده الصغيرة بسرعة وخفة، ينطح قرنا البقرة النحاسية رأس الفرعون فينتفض، يصرخ، وينادي على حرسه: «يا خدم.. اقتلوا الطفل موسى فهو عدوي!».

ترتمي آسيا تحت قدميه، تخبره أن الرضيع لا يفطن، يشك حاكم إيجيبت الذي سفك دماء بني إسرائيل من أجل نبوءة، ينظر لزوجته الراجية، ثم إلى كاهنه الذي دخل المكان في أعقاب الخدم ويقول: «إذن لنختبر ذلك..».. ثم يكمل: «بالنار!».

النار التي يختبرها سليم يوميا، يستعد لإجراء تجربته الأصعب الليلة، يسير في كنيسة القرن السادس الملاصقة للسور الجنوبي والمجاورة لمبنى المخطوطات بالمكتبة، يتجاوز المذبح، والمسيح المصلوب، وأيقونة للنبي موسى خالعا نعليه، يفعل مثل الأخير، يخلع نعليه بجوار السور، يضع حقيبته من يده، يضع مسدسه بجوارها، يُخرج منها معولا حادا، ينظر إلى البروز في الأرض تحته، يضع يده، الدفء والسخونة يلامسان جلده الميت، يكسر أرضية الكنيسة فتظهر من تحتها ماسورة خزفية كبيرة، يبلغ قطرها نحو المتر، ماسورة نظام التدفئة العتيق في الدير بأكمله.

في الركن الجنوبي الشرقي يستقر تحت الأرض أفران تدفئة قديمة الطراز كالتي تستخدم في كنائس روسيا، ساهمت الأخيرة

في بنائها وإهدائها للدير في فترات تَقارُب، تعتمد الأفران على حرق الأخشاب مع عمل فتحة لإطلاق الدخان خارج أسوار الدير، ومواسير تتحرك بطول الدير وعرضه لتوزيع الهواء الساخن الناتج من اشتعال الحطب، لا يحتاج «سليم» سوى خمسة أمتار داخل الماسورة ليصل أسفل المكتبة القديمة، فيضرب بمعوله ويلوذ إلى الداخل، يرفع يده، ويهوي برأس المعول فيكسر الماسورة، يلفحه الهواء الجاف الساخن، فيتراجع بوجهه إلى الوراء، يتشكك عن قدرته على تحمُّل الهواء الجاف الساخن لكنه يقنع نفسه أخيرا أنه تحمل النيران نفسها كثيرا.. وهل تحملها في العالم أحد مثله؟!

لا، فما سيلقاه من ألم يتفاداه «الشيعة» في طقس السير فوق النيران داخل إيران وباكستان بتقافزهم، يقللون زمن التلامس، بينما يرطب الهندوس أجسادهم قبل طقسهم الكرنفالي المعتمد على النيران والذي يعرف باسم «تيمتي»، ولو عرف أطباء المعهد الدولي للمشي على النار بالولايات المتحدة «Firewalking Institute of Research and Education» أو ما يحمل الاختصار «F.I.R.E»، بما سيفعله «سليم» لمنعوه بقوة القانون.

أخيرا يعب «سليم» في صدره هواء الكنيسة، وينزلق داخل صهد الماسورة.

يقرب الكاهن طبقين أمام الطفل، ينظر لهما الأخير؛ أحدهما تتراقص ألوانه بين الحمرة والوردية، والثاني كأنه لآلئ وردية مجتمعة في عنقود صغير، يقول الكاهن: «بين الجمر والتمر الأصفر، سنرى يا مولاي.. إن كان رشيدا حكيما أم مجرد طفل لا يقلقك وجوده».

يقترب «موسى»، لا فرق في لونَي مكونات الطبقين، لكن عينيه تنجذبان أكثر للحمرة، يحبو على أربعة أمام طبق الجمر، يبتسم فرعون، وتترقب آسيا لكنها ترى في ذلك ضررا أقل من القتل، يمد الصغير يده الهشة فيمسك بالقطعة الملتهبة، يصرخ ويبكي لكنه لا يستطيع أن يفلتها، ينفض يده من الصدمة كثيرا، يقربها من وجهه لينفخ فيها، تصطدم الجمرة بشفتيه ولسانه، تركض آسيا نحوه، تدفع الجمرة وتحمل الصبي، بينما يهز الكاهن رأسه لفرعون مُعلنا براءة الطفل.

يزحف «سليم» عبر الماسورة مترا، يشعر باحتراق لم يعهده من قبل، درجة حرارة الهواء تجاوز المائة والعشرين درجة، جافًا لا يستطيع استنشاقه فيصعب الأمر، ابن القصلة محصور بين اختناق واحتراق يضرب كل مسام جسده، ضيق الماسورة يجعله عاجزا عن خلع ملابسه التي التصقت بجلده فزادت الأمر ألما، يفتح عينيه بصعوبة، لا يزال الطريق طويلا، يترك معوله ويعود أدراجه، يحس من الهلع أنه محشور داخل المكان، لا يتمكن من العودة، يحاول ألا تخور قواه ويسقط داخل هذا القبر الناري، يمسك المعول بيد متخاذلة ويضرب فوقه ضربتين، وفي الثالثة تسقط الحجارة وتنفتح كوة، يخرج منها بصعوبة، يتلوى من الألم، يخلع الكنزة، جسده محمر، كون عددا من الفقاقيع البيضاء والحمراء، حروق من الدرجة الثانية، يرتمي على أرضية الكنيسة الباردة، ويفرد ذراعيه كمسيح مصلوب، آملا أن يأخذ أكبر مساحة من برد الرخام لجسده الساخن، ويصرخ كما صرخ موسى حين لامست الجمرة شفتيه، ثم يغيب عن الوعي.

(١٥)

يدفع «بهي» بابًا خشبيا ثقيلا يطل برأسه منه، يسحب «روث» ويتوجهان إلى الداخل، تنظر روث خلفها، يشرح لها «بهي» موقعهما: «إنها البوابة الغربية الشمالية.. أقدم بوابات الدير.. أغلقوها قبل قرون طويلة».

تسأله عن وجهتهما فيشير إلى المسجد أمامها مباشرة: «هناك سنجد الخوجة»، تلتفت يمينا ويسارا، وترفع رأسها إلى أعلى، تتأكد أن المكان خاليا، فتهرول، تصعد السلالم التي تقود إلى باب المسجد مطأطئة رأسها لتتوارى، وكذلك يفعل «بهي»، يتجاوزان المسجد فتتعجب: «ألم تقل إنه متواجد في المسجد العُمري؟!»، يخبرها أنه لم يُشِر إلى المسجد، بل نحو المئذنة المنفصلة التي تبعد ثلاثة أمتار عن المسجد، ثم يقول وكأن شيئا في حديثها لا يمكن التغاضي عنه، يقول: «ليس العُمري.. الآمري».. ينطقهما بالإنجليزية محولا حرف O الذي نطقته إلى A، فتخبره أنها لم تقل شيئا مختلفا لهذه الدرجة، وتعقب: «عَمْري.. مسجد ومئذنة عمرو بن العاص».

تعلم روث أن المسجد بني أولا على أنقاض كنيسة، ثم بنيت المئذنة منفصلة، تقول له إنها سمعت مترجم الدير ذات مرة في أحد البرامج التلفزيونية التي تتحدث عن السماحة في دير سانت كاترين يشير إلى المسجد والمئذنة ويخبر المذيع أنها بنيت في عهد ابن العاص.

يزمّ «بهي» شفتيه وكأنه يخبرها أنه يعرف ما يقال، يدلف إلى داخل المئذنة وهو يقول: «الإسلام لم يعرف المآذن وقت ابن

العاص.. حتى إنه لم يكن هو باني مآذن مسجده الشهير في الفسطاط».

يصعد درجات منارة المسجد، تنظر «روث» إلى أعلى، ست وثلاثون درجة تقود إلى قمة المئذنة، يعلق «بهي»: «هل أزيدكِ من الشِّعر بيتا؟ لطالما قال لي بافلوس إن هذا المسجد عمل شجاع، رغم أنه شاهد على حالة الخوف التي عانى منها أسلافه في بعض العهود.. لكنه التاريخ الذي يجب أن ننسى بعض رواياته».

يصل «بهي» قمة المنارة، يسبق رفيقته بعدة خطوات، باب الصومعة الخشبي مفتوح كالعادة، يدخل، يجول بناظريه سريعا، لا أحد، يلتفت إلى «روث» التي لا تزال تصعد ويقول: «لا أحد هنا»، كان يثق أن «الخوجة» داخل المئذنة، منارات المساجد لم تكن فقط لرفع الأذان على امتداد التاريخ، كانت أيضا للمراقبة، لذلك لا تزال تسمى بالعساس في المغرب حيث قضى بهي ليلته بالأمس، لن يجد «الخوجة» مكانا بانوراميا كاشفا للبازليكا وكنيسة العليقة سوى الـ..

من خلف الباب الخشبي يخرج أحدهم في الظلام، يمسك «بهي» من الخلف، يضغط بإحدى ذراعيه على رقبته، وبالأخرى يمسك مؤخرة رأسه، قبضته قوية خانقة، تجعل «روث» تتقهقر قليلا، يحاول «بهي» التملص من القبضة بلا جدوى، يقول الرجل بصوت أجش آمر: «قربي يا حُرمة!».

لا تفهمه فيعيد ما قاله بإنجليزية تخالطها البداوة، يعرف «بهي» الصوت، فيقول في هستيريا: «أنا بهي.. أحمد بهي.. أحمد بهي يا خوجة.. يا أبا عمران».

يرخي الرجل قبضته فيلتفت «بهي»، بينما تستشعر «روث» نوعا

من الأمان فتقترب قليلا لكنها لا تدخل إلى الصومعة، يسأله الرجل بلكنته البدوية: «بهي! ما الذي أتى بك في هذه الليلة الغبراء؟!».

«سؤالك يجيب نفسه يا رئيس الجبالية.. مجبر.. ترك الراهب بافلوس رسالة فجلبوني».

مستنكرا.. يطقطق الرجل الذي لا يمكن بسهولة معرفة سنه، تلك الملامح الخادعة الجامدة تصلح لرجل أربعيني كما كهل سبعيني والتي عجز «بهي» لسنوات عن تحديد الإجابة، لكن الثابت أن صحته وقوته كانتا لرجل ناضج، يتحسس «بهي» ألما في رقبته من مسكة «أبي عمران» الذي ينطق بغضب: «واصطحبت معك داخل الدير ليلا حُرمة! ألا تعرف القوانين يا بهي؟ لا يُسمح للحريم في خلوة الرهبان».

هنا تهم «روث» بالحديث، فيستوقفها «بهي»، لن يفهم الرجل المسئول عن تأمين الدير برجاله من بدو الجبالية محاضرتها عن دور المرأة والصوابية السياسية، ويقول وائدا تلك المعركة المرتقبة: «ترك لها بافلوس رسالة أيضا».

يعلق «أبو عمران»: «فلتتركها وتخرج من هذا المكان الطاهر.. لن أتحمل التستر على طريد وسيدة في البقعة المباركة».

«الأمر أكبر من ذلك يا أبا عمران.. فلتساعدنا قبل أن تضع طبقة ثالثة لعقالك».

لا تحفز جملة «بهي» الرجل الذي كان يرتدي جلبابا رمادي اللون وجاكيتًا أبيض بلا أكمام كعادة العرب، مع صندل جلدي يكشف تقرحات قدميه، ويضع عقالا أسود، أو ما يسميه «المريرة» من طبقتين كعادة «الجبالية»، الأولى اقترنت بوفاة الرسول، والثانية

بسقوط الأندلس، أما الثالثة فقد تعاهد أسلافه على وضعها إن حدث مكروها للدير، عوضا عن ذلك ينفث الرجل في غضب وكأنه يحذر «بهي» من الضغط عليه ويقول مُنهيًا الحديث: «أستغفر الله العظيم..».

ينفعل «بهي» قائلا: «الوقت والظروف ليسا في صالحنا يا أبا عمران.. الأمر لا يحتاج لكل تلك البداوة، لا تنسَ أن أسلافك كانوا...».

لا يكمل «بهي» جملته، فيمسكه «أبو عمران» من ملابسه ويجره في اتجاه سور الصومعة الخشبي ليلقيه من المنارة التي ترتفع نحو أحد عشر مترا على أرض صخرية تعلو بقية أراضي الدير، تركض «روث» التي تشاهد الأمر نحو مدخل الصومعة ملتاعة، يحاول «بهي» التملص من قبضة الرجل، يفشل، يُساق كما الشاة، يلمح صخور الأرضية من الحافة، قبل أن تصيح «روث»: «لقد قال لك بافلوس قبل ليلتين إن القادم سيكون خطيرا وأن تستعد».

يتوقف «أبو عمران» وهو لا يزال ممسكا بـ«بهي» على الحافة، فتكمل «روث»: «ثم أوصاك أن تستجيب لنداء قلبك وقت المحنة وتساعد مَن يستحق»، تكمل: «وأهداك إنجيله».

يسألها «أبو عمران»: كيف عرفتِ؟! لم يكن هناك أحد في...».

تقاطعه: «أخبرني ببساطة.. وطلب مني مصارحتك في الوقت المناسب، وأنك ستدافع عنّا بروحك إن لزم الأمر».

يلقي «أبو عمران» بـ«بهي» على أرض الصومعة، وينظر إلى «روث»، يسألها: «ماذا تريداني أن أفعل؟!».

يرد «بهي» الواقع على الأرض: «نريد أن ندخل المكتبة الجديدة».

يقول «أبــو عــمــران»: «مستحيل، المفاتيح مع الأسقف إيوانيكيوس بعد الحادث كما هو متبع».

ـ «المفتاح الاحتياطي».

ـ «أنت لا تفهم الأمر.. لا يوجد مفتاح احتياطي».

«مــاذا؟!»، تسأل «روث»، فيجيب: «لا أملك مفتاحا فعليا احتياطيا للأماكن الحيوية، إن تلك المفاتيح مخبأة في أركان الدير عبر الأزمنة المختلفة، ما أملكه هو مجموعة رسائل مرمّزة عن تلك الأماكن».

ينهض «بهي» ويسأل: «وأين تلك الرسائل؟!».

يجيب «أبو عمران»: «تحت قدميك».

يخبط إحدى البلاطات بقدمه، ثم يميل ويرفعها، يُخرج صندوقا خشبيا، به عدد من الأنابيب الرفيعة تشبه أنابيب التحليل، بجوار كل منها كتبت ورقة صغيرة للمكان الذي يخفي مفتاحه، ينظر لهما «عمران» سائلا: «هل يجيد أحدكما اليونانية؟!».

لكن «بهي» يسحب بيده أنبوبة، ويقول: «تلك تعني المكتبة، نفس النقش الموضوع فوقها؟».

يعلق «أبو عمران» ساخرا: «هذا لن يحل الأمر»، يفتح الأنبوب، يخرج بردية صغيرة، هنا يفهم «بهي» سببَ سخريته، الرسالة مكتوبة باليونانية!

علامات الجهل بادية على وجهَي «بهي» و«روث»، فيزيد «الجبالي» قائلا: «مفتاح المكتبة كان مشطورا، نصفان يتم دمجهما بشكل متداخل ليكوّنا مفتاحا واحدا قادرًا على فتح الباب، دون أن

أفهم الرسالة فهي تقود إلى مكانين، هل فهمتم الآن ما أقصده بأنه لا يوجد مفتاح احتياطي؟!».

تُخرج «روث» هاتفها المحمول، تفتح متصفح الإنترنت وتختار أحد مواقع الترجمة، تقترب من «الجبالي»، في الوقت الذي يعقب «بهي» باستهجان:

«google translate! لا أستأمنه على ترجمة بريد إلكتروني».

تنظر له «روث» بحدة فيدرك أنهما لا يملكان خيارا آخر.. تبدأ في كتابة الجملة على البردية، تقول بنوع من التأتأة وكأنها تحاول تكوين جملة مفهومة:

«شطره.. آ.. نصفه بين كلمتين.. والثاني تخفيه.. آ.. تحرسه عين المهندس الماسوني الباني».

(١٦)

تتحرك أنامل عازفي الخماسي، كلٌّ على آلته: العود والقانون والكمان والطبلة والرق، يعزفون لحنا كلاسيكيا لـ«طاتيوس أفندي»؛ الموسيقي الذي عاش قبل نحو قرنين من الزمان، يرتدي «الطبال» و«العواد» و«الرقاق» طراطير حمر فوق رءوسهم، بينما يرتدي عازفو الكمان والقانون طرطورين أسودين، يشعر سامعهم الوحيد بالنشوة والهدوء من الموسيقى فيميل برأسه كثيرا يمينا ويسارا، كمخمور أعياه الكأس، أو كفرع ناحل لشجرة عجوز تؤرجحه الرياح على مضيق البوسفور.

لكن هواء الشتاء الليلي يتكالب على طرطور أحمر لفريق التخت الشرقي الجالس في اليخت فيدفعه، يسقط ويتجه بسرعة نحو الحافة استعدادا للقفز في مياه مضيق البوسفور، ينتفض المستمع الوحيد، يفيق من سكره، يلقي سيجاره فيتطاير الرماد أيضا، يشير إلى خادمه الواقف على مقربة، ينظر العازفون إلى بعضهم البعض فلا يدرون إن كان حريا بهم الاستمرار في العزف بلا طراطير، يصيح فيهم المستمع أن يصمتوا، يخبط على القانون في غلظة فيسقطه من حامله، يتوقفون، بينما يهرول الخادم للحاق بالطرطور الأحمر، يدوسه بقدمه فيسكنه، ويميل فيتناوله، يحاول أن يربت بكفه لإزالة آثار بصمة نعله، فيصيح المستمع بعدم أهمية ذلك وأن يسرع، يناول المستمع الطرطور، فيضعه بنفسه فوق رأس الطبال، مميزا عن بقية الحمر ببصمة حذاء الخادم، يشير لهم في هدوء أن يعاودوا العزف، ويعود إلى موقعه، فيجلس، ينظر لهم، هكذا يميز اليهود عن المسيحين منهم، مثلما كان يفعل سلفه حسن باشا الخادم أحد باشوات الأتراك الذين أصبحوا ولاة لمصر وقت الحكم العثماني، أصدر فرمانه في القرن الخامس عشر، فليرتدِ اليهود الطراطير الحمر والنصارى الطراطير السود، بينما يضع الأتراك طرابيش عِلية القوم والوجهاء.

يومها تعجب رهبان دير سانت كاترين الذين وصلهم الفرمان عن طريق حاكم الطور وقالوا: «لكننا رهبان»، فجاءهم جواب الحاكم: «لكنكم نصارى»، نصارى تتحصنون عسكريا بقبيلة رومانية، كتيبة عسكرية لا تدين بالولاء سوى لكم. وقد وصل مسامع أسلافه ما يتردد عما يخفونه في الدير، لا بديل عن فعل المثل، فليحاربهم

ببعض البدو، يُصدر فرمانا باستقدام أولاد العايد، الخفر الذين تركوا سيناء وتحضروا في مهن الأمن بالشرقية، سيصبحون مسئولين عن أمن الدير بقرار الحاكم، ربما يجدون شيئا، يتعرض الرهبان لاعتداءات برغم ذلك، يبعثون الشكاوى إلى السلطان العثماني، فيأمر الوالي الحاكم التركي المقيم في مصر بحمايتهم، يتعهد الأخير بذلك، ثم يعيد الكرَّة، فهو يعلم ما لا يعلمه سلطانه، ولو علم سلطانه لفعل مثله، يوقن الرهبان بأن كل باشوات مصر فاسدون، وأن لا وعد ينفذ، تتوالى الفرمانات في عهود السلاطين، بل وفي عهد السلطان الواحد.

سيكتب مؤرخ مخضرم مثله يحب سماع الموسيقى على مضيق البوسفور أن تلك الفرمانات دليل سماحة الحكم العثماني لمسيحيي الشرق، لكنه يعلم بحكم مهنته أن كثرة تأكيد الأمر يعني عدم تنفيذه أو إيمان الولاة به، لا يهمه ذلك، فما سيسطره في التاريخ ويكرر سرده بقية المؤرخين من تلاميذه وأقرانه سيصبح جزءا أصيلا في تكوين القارئ، سيعتقد العرب كذلك، ألم يهضموا كلمة «تخت» الفارسية وأضافوها إلى شرقي للتعبير عن الموسيقى التي بدءوها بأنفسهم في عهد هارون الرشيد؟

في مراجع التاريخ دائما ما يتم ذكر فترات الاضمحلال على عجالة، لا تدري حقا كيف ومتى انهارت تلك القوى المسئولة عن البلاد، لكنه هذه المرة يراها بعينه على امتداد البحر المتوسط، يذكر كمؤرخ ما يحدث بـ«الربيع»، رغم شتوية أجوائه وتوقيته، يتأكد من أن المصطلح سيبقى كذلك كـ«التخت»، دوره الآن استغلال هذه الفرصة بقوة، يكفي أن يحرك بأصابعه الأمور ويقف ليتفرج وينتظر

الخبيئة التي ظلت في حماية الرهبان لسنوات، ولم تفلح معهم حيلة الغارات المتتالية أو إضعاف «الجبالية»، بل صبر الرهبان على ما أصابهم من الولاة لسنوات، ولما ضاقوا ذرعا هددوا في القرن السابع عشر بإغلاق الدير نهائيا وتركه والذهاب إلى القاهرة والشرقية وبلدان أخرى، لكن الوالي رفض ذلك، بل سعى لتهدئتهم ومصالحتهم، فماذا سيفعل لو خرجوا ومعهم الخبيئة؟ فعجز عن إيجادها للأبد، أو ماذا سيفعل لو خرجوا وتركوها في مكان لا يعلمه سواهم وماتوا أو ضاعوا فضاع منهم الكنز للأبد؟ لقد كان سلفه أحرص على التخلص منهم، وفي الوقت ذاته على بقائهم، وكان الرهبان يقدسون الموت كالحياة، يطلبون من الوالي أمام العدول عن رأيهم بإغلاق الدير أن يتم تمكينهم من دفن موتاهم بطريقتهم وعدم التعرض لميراثهم بعد أن وجدوا تعديا من العربان حتى على القبور، فوافق الحاكم ومنحهم العهد.

وها هو ذا المؤرخ الغارق في الموسيقى في نفس الموقف، يخشى أن يتم إغلاق الدير بعد حادث قتل «بافلوس» بأوامر أمنية، فتضيع فرصته في الوصول لضالته، ينظر إلى هاتفه المحمول كل دقيقة، يرن هاتفه أخيرا، في الجهة الأخرى يدون المتصل اسم الرجل الجالس على مضيق البوسفور برمز «#»، لا يعلم عنه أكثر من تلك الإشارة والأموال التي يغدقه بها، لا يعلم أنه مؤرخ عاشق للتحف وبيعها، وما بداخل الدير يتجاوز الوصف بالتحفة، ما بداخل الدير هو تلك القوة على أن يعيد التاريخ نفسه، التي إن حملها إلى ضريحَي جدّيْه سليم الأول أو سليمان القانوني لضمن صحوة ترجع شكل الحدود الجغرافية إلى سابق عهدها!

يرد المؤرخ على اتصاله الوارد وينهض متحركا، ينظر الطبال

إلى العواد ولا يعرف إن كان مطلوبا منهم الاستمرار أثناء المكالمة أم التوقف، يخبر المتصل الرجل الذي يحمل في هاتفه رمز «#» بأن القداس لا يزال قائما، فيتهلل، لقد فعلها فيّاض!

ثم يخبره بأنهم وجدوا على صدر «بافلوس» المقتول ورقة تحمل الإدانة لـ«أحمد شفيق»، لا يدري المتصل إن كانت المعلومة مهمة للرجل، يسأله الأخير عن صورة، فيجيبه المتصل أنه سيحاول أن يتحصّل على واحدة، ثم يسأل بسذاجة: «هل هي معلومة مفيدة؟!».

لا يجيبه ويغلق الخط، يشير المستمع المؤرخ بيده للعازفين أن يرفعوا صوت الموسيقى، كمايسترو يقودهم، ويتمايل أكثر من النشوة، مفيدة؟! طبعا، وأي فائدة! ففي ذات الليلة يحظى بجائزتين، أكبرهما الخبيئة، أما الثانية فأن يصبح كالسلطان، يساعد على وصول والٍ جديد لإدارة شئون البلاد، باشا كما يسمونه في التاريخ، يدين بالولاء للباب العالي، لكن الرهبان يعلمون علم اليقين بأن كل باشوات مصر فاسدون.

(١٧)

لا تقترب..

ماذا؟!

لا تقترب أكثر من التاريخ يا بهي! لا تتعمق.. هل تعتقد أن التاريخ بحرا شاسعا تم اختصاره في الكتب المدرسية عند حدود شواطئه الرملية الساحرة، وأن تعمقك سيفتح أمامك تلك الأمواج

المغرية للسباحة؟! لا يا بني، التاريخ مستنقع وحليّ، الكتب المدرسية انتقت أطرافه، منعتك أن تغوص فيه فتكتشف أن الجميع بشر، دافعوا عما يؤمنون به كلٌّ بطريقته، من أجل الهدف والنتيجة فعلوا ما لا يمكن سرده، والمدارس تضع إطارا ذهبيا حول أهداف ونتائج الثورات والفتوحات والعهود والتحالفات، تركز عليها في الامتحان، لكنها تعميك عن الوسائل، لذلك لا تعيد المكتبات طباعة أمهات الكتب، أو يتعمد الطغاة حرق المكتبات وإغلاقها، أو تُرمّز بعض الهيئات الحقائق في رسائل خفية.

«نصفه بين كلمتين.. والثاني تخفيه عين المهندس الماسوني الباني!».

«هل يعني لك شيئا يا أبا عمران؟؟»، يسأله «بهي»، يعيد «الجبالي» ترديد الجملة بالعربية مرة، وبالإنجليزية التي يجيدها مرة أخرى، يتوقف كثيرا عند «عين الماسوني الباني»، ويقول: «الباني.. المهندس إستفانوس».

يسأل «بهي»: «لكننا نتكلم عن القرن السادس الميلادي.. لم تكن الماسونية قد ظهرت».

تعلق «روث»: «ليس صحيحا.. ربما لم يكن صدر دستورها الخاص المعروف.. لكن الماسونية أقدم من ذلك، لدرجة أن البعض يعزى أن يكون موطنها الأول مصر، وأن يكون مؤسسها السامري الذي خرج مع موسى من بلاد فرعون».

يضيف «بهي» موضحا قصده: «ما أقصده أن للبنايات الماسونية علامات يضعها البناءون.. لم أرها في الدير طوال سنوات زياراتي، لم تلتقط الكاميرا الخاصة بي ولو واحدة منها».

تعلق «روث»: «لا تنسَ أنه في بعض الترجمات يقصد بالماسوني البنّاء الحر وليس الطائفة نفسها.. ونحن نترجم من اليونانية باستخدام موقع ترجمة إلكتروني يسخر منه الجميع».

يقول «أبو عمران» حاسما المسألة: «المهندس الباني الذي كلفه الإمبراطور البيزنطي جستنيان هو إستفانوس.. وتصبح العين المقصودة.. هي عين إستفانوس»، تسأله «روث»: «أتعني أن المفتاح...».

يقاطعها قائلا: «بل نصفه».

تتدارك «روث» وتكمل: «نصف المفتاح داخل عين المياه التي تحمل اسم إستفانوس.. أمام الكنيسة التي تحمل ذات الاسم في الدير».

«وماذا عن النصف الآخر؟!»، يسأل بهي.

لا تنتظر إجابات سهلة يا بني.. ابحث في الكتب..

أتقصد أنني أستطيع استخدام المكتبة؟!

بالطبع، شريطة أن تتذكر ما قلته مسبقا.. لا تخبر أحدا، فالناس ليست على استعداد لهزّ ثقتها في الثوابت التي تؤمن بها.. وكأنني أخبرك بأن أقرب الناس إليك مزيف ليس كما كنت تحسبه.. ماذا كنت تفعل؟!

ماذا أفعل؟! أوَلَمْ أخبرك سبب هروبي إلى هنا مسبقا.. أوَلَمْ أقدم لك اعترافي كاملا فاحتويتني؟

«نصفه بين كلمتين.. والثاني تخفيه عين المهندس الماسوني الباني!».

«الكلمتين.. الكلمتين»، يرددها الجبالي ثم يقول: «A.K».

تضيف «روث» مكملة تدفق أفكاره: «اللوحة الصخرية في مدخل البوابة الشمالية اختصار للقديسة كاترينا».

يهز أبو عمران رأسه بالإيجاب: «أجيا كاترينا».

يُخرج «بهي» الصور الوردية من جيب حقيبته، يقلبها باحثا عن صورة للمدخل الخاص بالسياح الذي يقصدانه، ينظر إلى البوابة التي يعلوها الحرفان المحفوران في الصخر، يقول متشككا: «لكنهما ليسا كلمتين.. إنهما حرفان.. اختصارات..».

يقول «أبو عمران» منتقدا تحذلق المصور: «أتعرف مكانا آخر به كلمتان؟!».

تتداعى الأفكار في ذهن «بهي»، ملايين الكلمات لمئات الكتب التي قرأها منذ أن كان طالبا جامعيا، أو في المواصلات لكسر ملل الطريق في السفر والترحال، وبين ملايين الكلمات يبحث عن كلمتين.. أتعرف ما معنى الكلمة؟

لطالما أحب هذا المقطع من مسرحية «الحسين ثائرا» لـ«عبد الرحمن الشرقاوي»، تدرب كثيرا عليه في إحدى السنوات لأدائه على المسرح الجامعي، حفظ المونولوج الأبرز الذي تبارى فيه المسرحيون العظام، بحث بفضول محب التاريخ عن مقاطع أدائهم له، ربما تعلم أو اقتبس شيئا، أحب صدق أداء نور الشريف وتهدج صوته لكنه عشق عبد الله غيث، طريقته في تقطيع الجُمل وضبط نفسه، يتذكر أن كل ذلك انتهى فجأة، لم يظهر لجمهور الطلبة، بعد أن ألغى الأمن المسرحية، يبدو أن عقله شرد عن مقصده، يحاول «بهي» العودة.. يشق طريق التداعي عكسيا من الكلمة صوب الكلمتين..

لا تخبر أحدا

سأحاول

ستفعل..

سأحاول يا أبونا بافلوس

ستفعل يا بهي

إممم.. حاضر

هي كلمتك التي تعاهدني بها

الكلمة!!

«الكلمة!»، ينطقها بهي بانفعال «أرشميدس» في مسبحه، تتعلق العيون عليه فيكمل: «الكلمة في كل اللغات تقريبا هي الوعد والعهد.. نحن لا نبحث عن كلمتين بالمعنى الحرفي.. بل عن عهدين».

«عهدين!؟»، تعلق «روث»، فيكمل «بهي»: «على مدار سنوات الدير، كما يعرف الخوجة أكثر مني، حاول الرهبان درء خطر السلاطين والعربان والغزاة بتحييدهم، بالحصول على عهد يؤمن لهم ممتلكاتهم ويجنبهم الاعتداء، طالبوا بتلك العهود وبعثوا المطارنة والكهنة لاستجدائها أحيانا، أو افتعالها في أوقات أخرى».

ينهره «أبو عمران» غاضبا: «هل ستعود لهذا الكلام مجددا؟ ألا تتذكر كيف أغضبت بافلوس؟!».

يهدئ «بهي» رئيس الجبالية ويقول: «ليس هذا محور نقاشنا.. نحن نبحث عن العهدين الأكبر.. يتواجدان في ذات المكان، وليس هناك أضخم من عهد يحمي الدير من تتابع سلاطين المسلمين

عليهم بعد الفتح العربي، خاصة وأن منهم مَن أمر بهدم الدير، أو منع ملوك العصر الحديث من الإغارة عليهم لاستغلال الأبراج تحصون.. العُهدة المحمدية، وعهد نابليون بونابرت».

يقول «الجبالي»: «سكيفو فيلاكيون!».

لا تفهم «روث» فيوضح «أبو عِمران»: «متحف الدير، أو ما يسمى سكيفو فيلاكيون.. المكان المخصص لحفظ الأغراض الدينية من أيقونات وأوانٍ مقدسة وثياب رهبان ومخطوطات.. هناك يحتل العهدان مكانا بارزا».

تضيف «روث»: «إذن فلنسرع..».

تهم بالتحرك فيوقفها «أبو عمران»، ويقول: «لا يمكنكما التحرك بتلك الهيئة».

يقترب من دولاب خشبي صغير موضوع في الصومعة غالبا لحفظ الأحذية، أو لإبقاء الأردية في الأيام الباردة، كما أنه مخزن لإقراض الأوشحة للأجنبيات اللاتي قررن زيارة الدير نهارا كاشفات أكتافهن أو سيقانهن. يُخرج وشاحين، يلثم «بهي» و«روث» على الطريقة السيناوية فلا يظهر سوى أعينهما، ثم يناولهما ما وجده من ملابس رثة في الدولاب: جلباب ضخم من أجل روث غاصت داخله، وعباءة يضعها على «بهي»، يضمها الأخير على صدره، يلقي «الجبالي» نظرة من أعلى الصومعة للتأكد من خلو المكان ويأمرهما بتتبع خطواته، يتوجهون في خفة بين الأزقة الضيقة والدروب المعتمة التي يعلمها «الجبالي» أكثر منهما إلى السور الشمالي المسمى بـ«ديوار دواره» (Diwar-Douwara) أو «سور كليبر»، والمكون من أربعة طوابق، أعلاها كنيسة القديس

جورج، أما الدور الثالث فهو «الدوفارة» أو الونش الدوار؛ وهو رافعة أولية يتم عن طريقها سحب المؤن وأحيانًا الأشخاص للدير في العصور الوسطى أو في زمن الغزوات على الدير.

الطابق الثاني هو مقصد الفريق الملثم، حيث يقع متحف الدير، يقفون أمام باب إلكتروني حديث يختلف عن بقية أبواب الدير؛ ذلك أن المتحف تم تجديده في أوائل الألفية فلزم وضع أنظمة إلكترونية للحفاظ عليه من أي دخيل.

تسأل «روث» وهي تنظر إلى اللوحة الإلكترونية التي تطلب إدخال أرقام سرية: «في زيارتي الأولى للمتحف تعجبت من لوحة الأرقام الإلكترونية، فقال مترجم الدير إنه برغم النظام الحديث فإن الرهبان اختاروا سنة تأسيس الدير لتكون كلمة السر؛ وذلك لضعف ذاكرتهم أحيانا في تذكر الأرقام».

يقلب «بهي» الصور بين يديه، بينها صورة لحجرة من الرخام في الواجهة نُقش عليها بالعربية واليونانية في ستة أسطر.

«أنشأ طور سيناء وكنيسة جبل المناجاة الفقير لله الراجي عفو مولاه الملك المهذب الرومي المذهب يوستيانوس تذكارا له ولزوجته تاوضوره على مرور الزمان حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، وتم بناؤه بعد ثلاثين سنة من ملكه ونصب له رئيسا اسمه ضولاس، جرى ذلك سنة ٦٠٢١ لآدم؛ الموافق لتأريخ المسيح سنة ٥٢٧».

ينظر «بهي» إلى اللوحة التي تطلب أربعة أرقام.. يضغط ٦٠٢١، تنير شاشة القفل الإلكتروني بالأحمر مع عبارة «كلمة السر خطأ،

أمامك محاولتان»، تتدخل «روث» قائلة: «دائما ما كان هناك تشكيك في سنة بناء الدير، فسنة ٥٢٧ المذكورة هي عام تولي جستنيان الحكم، أو مَن يُسمى بالعربية «يوستيانوس»، وبما أن العبارة تشهد أن الدير تأسس بعد ثلاثين عاما من حكمه، فأعتقد أننا يجب أن نضيفها إلى تاريخ آدم المذكور».

تضغط «روث» أربعة أرقام، فتعاود الشاشة الإنارة بالأحمر، مع التنبيه أنه تبقى محاولة واحدة، يرتبك «بهي» ويتساءل عما يحدث إذا ما تم إدخال المحاولات الثلاث خاطئة، يدفع «أبو عمران» الشاب والفتاة خلف ظهره ويقف أمام اللوحة الإلكترونية فيحجب عنهما الرؤية، يسمعان صوت الأرقام على الشاشة، ثم ينفتح الباب دون أن يعرفا ما دوّنه الجبالي.

يتوقع «بهي» أن يرى بسمة نصر على وجه الخوجة، لكنه كان يدخل المكان متجهما كعادته، من تحت مسامه الجبلية يبرز تاريخ أسلافه، يُجن جنونه إذا ما ذكّره به أحد، مثلما فعل مع «بهي»، لكنه لا ينساه، بذل ومعه بقيةُ الجبالية عبر أجيال متعاقبة مجهودا كبيرا كي يتكيفوا مع المكان، يطمسون ماضيهم، ويصبحون جزءا من صخر الجبال.

يتناولون بداوته بدلا من الإفطار، ويحاولون مصاهرة بقية البدو الذين ينظرون لهم بدونية، فهم أجانب، من سلالة محاربين قدامى سكنوا رومانيا، جلبهم الإمبراطور جستنيان لحماية الرهبان، حتى قبل إتمام بناء الدير، أغراب بلا تاريخ قبلي ممتد لرجل يتنسبون له كقبيلة «أولاد سعيد»، أو لمكان كقبيلة «العليقات»، أعاجم بحثوا عن اسم عربي يميزهم ويشبههم بالبدو المقيمين فلم ينتقوا سوى

أسهل الأسماء وأكثرها مدعاة للسخرية القبلية.. «الجبالية»، أوَليسَ جميع البدو ينتسبون للجبل؟!

يهمس «بهي» لـ«روث»: «طوال سنوات وبقية القبائل تناصبهم العداء لأنهم أغراب، ينادون «الجبالي» أحيانا للحط من قدره بـ«فلاح»، تصادف أن يكون للكلمة معنى عربي أيضا، يستخدم في التنابذ العرقي كذلك، ويبدو أن الأجيال الجديدة نست أصل الكلمة التي كان يقصدها الأجداد، أبناء فلاخ أو فلاش (Vlah)؛ تلك الأراضي التي جاءوا منها على شواطئ البحر الأسود، حتى عندما جاء الإسلام أسرعوا بالدخول ليؤكدوا أنهم عربانا جاءوا من شبه الجزيرة العربية، طمسا للحقيقة التي قد يقتلون من يفكر في نطقها، لكن يكشفها ببساطة رمز إلكتروني على باب المتحف».

يسمع «أبو عمران» بعضًا مما قيل فيعلق دون أن يلتفت لهما: «سنة ٦٠٢١ من آدم توافق ٥١٣ ميلادية وليست ٥٢٧؛ لذا فكل التواريخ المذكورة على اللوحة خطأ، لا أحد يعرف التاريخ الصحيح لإنشاء الدير سوى رهبانه وحراسه من أبناء البحر الأسود».

ثم ينظر بذات النظرة المتجهمة العاتبة نحو «بهي» ويمضي مكملا مهمته التي خُلق وأسلافه من أجلها.. صدق «بافلوس»، كُتب التاريخ المدرسية والسياحية مثل صور إنستجرام، مشرقة لامعة، مربعة، تخفي عمقا واتساعا حولها أقل جمالا وأكثر قبحا، صور السياح حول «تاج محل» تخفي سائقي «توكتوك» والمشردين، وحول برج إيفل تخفي الزحام الذي لم يمنح صاحبه خصوصية مثل الصورة التي نشرها، الصورة الجمالية التي دأبوا على تصديرها عن «الجبالية»، قبيلة بدوية مسلمة تحمي رهبان الكنيسة.

لكن أبا عمران مختلف بالفعل، أو اجتهد لفعل ذلك، يعمل ولده في حماية دير الراهبات في وادي فيران على بعد ساعة من كاترين، علّم الفتى من علمه، فقد كان يحفظ التاريخ الإسلامي، ويقرؤه بكثرة على خلاف الجبالية، يبارز به في الأيام الخوالي هذا الشاب المصور الذي أحبه «بافلوس» وفتح له أبواب المكتبة لينهل من التاريخ، ويرى في عينيه رغبة في معرفة المزيد، حتى ما تخفيه الأعين أو الصدور.

يعرجون من مدخل المتحف نحو اليسار، على الحائط الأيسر للغرفة الرئيسية تستقر اللوحات الثلاث الأشهر، تنظر «روث» إلى المسيح في المنتصف، طالما شدتها تلك اللوحة المسماة «بندوكاتور»، ممسكا في يده اليسرى بالكتاب المقدس، ناظرا إلى العالم بوجهين: الأيمن يحوي نظرة حادة تراقب العالم كقاضٍ على منصته، والأيسر بعين حزينة هادئة تعكس دور الشفيع المنقذ، تتساءل: يا تُرى بأي عين ينظر لي المسيح اليوم؟!

عن يمينه ويساره تستقر لوحتان تنتميان لنفس الفترة في القرن السادس الميلادي، يتخذ القديس بيتر الميمنة ممسكا بصليب ذهبي طويل، بينما تقف العذراء ممسكة بطفلها بين القديسين جورج وثيدور في اللوحة اليسرى.

يتذكر «بهي» ملحوظة قالها سلفًا للأسقف «إيوانيكيوس» في إحدى المرات؛ أن اللوحات الثلاث تحتاج لتعديل مكانها، فهي الأبرز لديهم كما يقولون، لكنها تحتل الحائط الأيسر للقاعة بينما تستقر أيقونتان للنبي موسى في الواجهة، إحداهما يرتدي فيها إزارًا ورديًا ويتلقى الوصايا العشر، والأخرى يرتدي وشاحا أحمر ويخلع

صندله في الوادي المقدس، لو كان الأمر بيده لفعلها الآن، وتلذذ بنظرة المفاجأة لدى الأسقف عندما يكتشف الأمر.

يتجاوز «أبو عمران» القاعة الأولى إلى الثانية نحو خطاب نابليون بونابرت على الحائط الأيمن، يقر الوصف الشارح باللغتين العربية والإنجليزية للسياح أن الخطاب نسخة، دون أن يفصح عن مكان الأصل، تقترب «روث» من الخطاب ثم يتبعها «بهي»، القائد الفرنسي يجلس على صهوة حصانه مُعتدًا بنفسه في صدر الخطاب، تقول «روث»: «الجمهورية الفرنسية.. مصر المحروسة في السنة السابعة للجمهورية الفرنسية، لأن دير طور سيناء مأهول بطبقة من الرجال الذين يعيشون وسط سكان البادية الهمج؛ أمرتُ بأن يعفى الرهبان من دفع الرسوم الجمركية ويبقوا متمتعين بسلام الامتيازات الممنوحة لهم في أنحاء عديدة من سوريا ومصر، سواء فيما يختص بأراضيهم أو بمحصولاتهم.. نابليون».

«أتجيدين الفرنسية؟!»، يسأل «بهي»، تهز رأسها بالإيجاب، بينما يتجاوز هو حجرة على اليسار إلى أن يصل نحو «العهدة المحمدية»، تستقر النسختان التركية والعربية من ذلك العهد خلف زجاج عازل، ينظر «بهي» إلى المسافة الفاصلة بينه وبين عمران، ينظر إلى الواجهة الزجاجية في القاعة التي اجتازها للتو، تضم مجموعة من الأيقونات المعدنية للدير، يبحث عما يصلح لإخفاء نصف المفتاح: صليب المباركة ورفعَ المائدة الخشبية، لا، تاج حبري من الفضة المطلية يحوي مجموعة من الأيقونات المحفورة والبارزة، لا، يهبط بنظره إلى تحفه تستند على أرضية الواجهة الزجاجية، صندوق على هيئة كنيسة مزخرف بصور فضية مطلية بالذهب ومموهة بالمينا ومرصعة بالأحجار واللآلئ يعود

لعام ١٦٣٥، يشير «بهي» إليه ويقول لـ«أبي عمران»: «فلننظر داخل ذلك الصندوق».

«نصفه بين كلمتين.. والثاني تخفيه عين المهندس الماسوني الباني!».

يرد «الجبالي» وهو يتحرك نحو إحدى القاعات الداخلية: «سأحضر شيئا لفتح الزجاج».

كانت الأيقونات بالكامل محفوظة خلف واجهات زجاجية سميكة، رغم ندرتها لم تكن كالزجاج المؤمّن المستعمل في المتاحف الكبرى والذي يطلق صافرات إنذار بمجرد أن يتم كسره، يعرف «بهي» تلك المعلومة، فيندهش أن «الجبالي» لم يختر حل كسر الزجاج، وكأن عهده بالحفاظ على الدير روتين يومي يفعله دون تفكير، يطل «بهي» برأسه، فيراه يبحث عن شيء ما داخل غرفة المخطوطات التي تضم نسخًا نادرة لأعمال أفلاطون ويوحنا ذهبي الفم، والإلياذة باليونانية، وسفر أيوب، وكتاب سلم الفضائل بالعربية، يعود إلى حيث يقف، فيلحظ اقتراب «روث» من لوحة «العهدة المحمدية»، الكف المطبوع للنبي محمد، واللوحة الجانبية الشارحة للعهدة.. يقرأ «بهي» ليسمعها:

«هذا كتاب كتبه محمد بن عبد الله إلى كافة الناس أجمعين بشيرًا ونذيرًا على وديعة الله في خلقه، لتكون حجة الله في سجل دين النصرانية في مشرق الأرض ومغربها، قريبها وبعيدها، فصيحها وعجميها، معروفها ومجهولها، كتابًا جعله لهم عهدًا فمن نكث العهد الذي فيه وخالفه إلى غيره وتعدى ما أمره كان لعهد الله ناكثًا ولميثاقه ناقضًا وبدينه مستهزئًا، سلطانًا كان أو غيره من المسلمين.

وقد بدأت العهد بنفسي، أن أحيط قاصيهم في ثغوري بِخَيْلي ورَجِلي وأعواني وأتباعي من المسلمين، سلما كانوا أم حربا، وأن أؤمّنهم وأذُبَّ عنهم وعن كنائسهم ومُصلاهم ومواضع الرهبان، ولا يكن عليهم جبر ولا إكراه، لا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته، ولا حبيس من صومعته، ولا سايح من سياحته، ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم وبِيَعهم، ولا يدخل شيء في بناء مساجد ولا في منازل المسلمين، فمن فعل شيء من ذلك فقد نكث عهد الله وخالف رسوله ولا يحمل على الرهبان والأساقفة.

وأشهدوا على هذا الكتاب الذي كتبه محمد رسول الله بين النصارى الذين اشترط عليهم وكتب لهم هذا العهد:

عتيق بن أبي قحافة، عمر بن الخطاب.. «ثم تلاه توقيع عشرين صحابيا».

كتبه علي بن أبي طالب بإملاء رسول الله في الشهر الأول من السنة الثانية للهجرة».

تفتح «روث» فمها في ذهول من الوثيقة، وتقول: «رائع!»، يتململ «بهي» كطفل صغير غير قادر على كتم مشاعره ويقول: «من أجل هذه العهدة منعني الأب بافلوس من دخول الدير، كنت قد بدأت عمل رحلاتي السياحية المختلفة والتي تحكي التاريخ غير المروي في كتيبات السياحة.. فطردني وقاطعني حتى استدعاني الليلة بعد مقتله».

تسأل «روث» في فضول: «لماذا؟».

يقول «بهي»: «هل قرأتِ كتيب الدير السياحي من قبل؟».

ـ «نعم، لكن لا أذكره بدقة».

ـ «إذن في عجالة، الرواية المذكورة أن النبي محمدًا أعطى للرهبان عهدا بحماية ممتلكاتهم وثرواتهم، وأن السلطان العثماني سليم الأول حمل الأصل معه إلى الأستانة، وأن اللوحتين أمامكِ نَسْخًا من العهدة المحمدية الأصلية.. وإلى الآن لم تظهر النسخة الأصلية قط».

ـ «وماذا في ذلك؟».

ـ «يوجد في الدير ست نسخ للعهدة المحمدية كتبت في سنوات مختلفة على ورق كتب أو جلد غزال».

ـ «وماذا في ذلك أيضا؟!».

يشير بهي بيده إلى الوثيقتين ويقول: «إحدى النسخ تقول إن الرسول أملى العهد معاوية بن أبي سفيان في السنة الرابعة للهجرة وشهودها ما يزيد عن ثلاثين صحابيًّا، والأخرى يلعب فيها دور الكاتب علي بن أبي طالب في السنة الثانية للهجرة وشهودها نحو عشرين صحابيًّا».

تتسع عينا «روث» في اهتمام فيضيف: «ليس هذا فقط!».

يشير بيده إلى أسماء الشهود في نسخة معاوية ويقول: «حمزة بن عبد المطلب استُشهد في العام الثالث للهجرة، أبو ذر الغفاري أسلم ورجع إلى بلده ولم يقدم إلى المدينة إلا في العام الخامس للهجرة، جعفر بن أبي طالب هاجر بعد إسلامه للحبشة ولم يعد إلا عام سبعة للهجرة، عبد الله بن عباس ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات، نحن هنا أمام طفل في السابعة من العمر يحضر مجلس الرسول للشهادة، وغيرهم الكثير، وهو نفس الأمر في نسخة علي، فأبو هريرة وأبو الدرداء لم يدخلا الإسلام وقتها!».

يدخل عليهما «أبو عمران» حاملا مفتاحا أحمر اللون معقبا: «الديَّ حاسة سمع لا يمكنك توقعها يا بهي، هل ما زلت تحكي في نفس الأمر؟!».

يرد «بهي» بحماسة: «ولماذا تشعرون بالضيق كلما فعلت؟! ولماذا منعتموني أساسا من إقامة جولاتي السياحية؟!».

ـ «أنت تعرف.. قالها لك بافلوس نقلا عن الأسقف.. ستثير بلبلة».

يضع «أبو عمران» المفتاح الأحمر في مكانه أسفل الواجهة الزجاجية، يبدو أنه المفتاح الرئيس في حالة فقدان مفاتيح الواجهات، وأنه كان مخبئا داخل المتحف، يقول «الجبالي» وهو يرفع الزجاج: «أضف إلى ذلك أن إيوانيكيوس رد على هذا الكلام، أن النساخ كانوا أعاجم فحدثت أخطاء وفروق أثناء عملية نسخ الأصل، وهذا ما يفسر الأخطاء النحوية في تركيبات الجمل أيضا».

يُخرج «الجبالي» الصندوق الذي يحمل هيئة الكنيسة المزخرفة ويقلب فيه بيده، فلا يعبأ المصور بذلك، يعنيه أكثر الرد، يبتسم «بهي» في سخرية ويقول وهو ينظر إلى «روث»: «حجتهم المعتادة.. الترجمة! الخطأ يا صديقي القديم العالِم للتاريخ الإسلامي قد يكون في حرف أو كلمة، لكن في أسماء وتواريخ؟! أضف إلى ما أقول شيئا تعرفه أنت جيدا.. التقويم الهجري لم يكن مستخدما وقت كتابة الوثيقتين.. فكيف لعلي أو معاوية بتدوين تاريخ الوثيقة بعد أسمائهم بذكر العام الثاني أو الرابع للهجرة؟!».

يصمت الجميع، فتيل التوتر يوشك على الاشتعال، ينظر «الجبالي» شزَرًا إلى المصور الطريد، بينما ينظر الأخير نظرة مَن

ـم التنكيل به لمجرد منطق يعتمد على الكتب والدراسات، وتقف «روث» عاجزة بين الاثنين، إلى أن يُسمع صوت معدني على أرضية المتحف، تتجه العيون صوبه: نصف مفتاح فضي مشغول يسقط من داخل الصندوق الذي يتخذ شكل كنيسة ساحرة، يعلو نصف المفتاح دائرة تحمل نصف شكل هندسي.. يقترب «بهي» منه في اهتمام.

لا تقترب أكثر يا «بهي».. لا تقترب أكثر من التاريخ يا بني.

لكنني أريد ذلك أبونا «بافلوس».. ربما باكتشافي أن لكل منّا جانبه المظلم في التاريخ أبرأ مما أنا فيه.

لن تبرأ يا بني.. لن تبرأ.

(١٨)

في مدخل الدير يقترب طفل بدوي في العاشرة من «عاكف» ليناوله خريطة، ينظر الأخير فيها، ثم يتساءل وهو يحاول ألا يثور في وجهه: «ما هذا؟!»، يجيب الطفل البدوي الذي يحمل عينين عسليتين: «خريطة المكان التي أمر بها أبونا..»، يقاطعه «عاكف» بعصبية هذه المرة وهو يناول الخريطة لأحد رجاله الواقف بجواره: «هذا ما أسميه هزارا!».

كانت الخريطة رأسية عامة للدير، كالتي تطبع في كتيبات السياحة، بلا معالم تفصيلية: هنا الكنيسة، شجرة العليقة، المكتبة، مربعات ومستطيلات بلا تسميات، يسأل أحد رجال «عاكف بك»

الطفل البدوي محاولا إيجاد حل: «نحتاج إلى خريطة تفصيلية.. لو حدث حريق بالمكان كيف تتحركون وتخرجون منه؟!».

يجيب الطفل البدوي: «لا نحتاج خرائط.. نحن نحفظ الدير هنا»، يشير بسبابته إلى دماغه. لو كان هذا البدوي رجلا بالغا لصفعه «عاكف» جزاء لأدائه المسرحي، لكنه يكتفي بالتنفيس عن غضبه بتنهيدة طويلة وبسؤال الطفل الذي يبدو ودودا رغم كل ما يحدث: «ما اسمك يا ولد؟»، يجيب الطفل: «جمعة»، يقول عاكف وهو يمسك رأس الطفل بين راحتيه ويهزه: «أريد منك ذلك إلى أن أنتهي من مهمتي يا جمعة.. هلا ترشدني إلى بعض الأماكن؟».

يهز الطفل رأسه بالإيجاب، يعطي «عاكف» أوامره قبل أن ينصرف لرجله: «لا تتوقف عن إرسال الرسالة.. سيصلنا رد»، يسأل الرجل «كيف يا افندم؟!».

«لا أعلم، لكن لتبقَ متيقظا.. لا أريد أن تقتحم سيارة أخرى الدير».

يدلف «عاكف» إلى الدير خلف «جمعة»، يقوده الصغير إلى حيث سأله، غرفةِ المطران «بافلوس»، إن كان عاكف يشك أن سبب مقتل المطران شيء ما، فمن الممكن أن تفيده رؤية مهجعه، يصعد سلالم القسم الغربي من الدير، تقع غرفة «بافلوس» في الطابق الثالث، درجات السلالم مرتفعة صخرية قديمة، تجبره أن يتذكر بدانته، وربما سِنه، كان بكامل لياقته قديما، وحاول أن يحافظ عليها قدر الإمكان لكنه أخفق، يحسد المطران الميت على صحته في صعودها برغم سِنه، يتلقى اتصالا عبر جهاز اللاسلكي الخاص به، يخبره أحد الرجال أن البوابات الكاشفة وصلت وسيتم تثبيتها على المداخل الرئيسية، يعطيهم «عاكف» موافقته.

يطلب من أحد رجاله أن يخبره بالوضع في المطحنة، يأتيه

التقرير بأن القساوسة لا يزالون على وضعهم هناك، بين العجين ونيران الفرن، يأمره «عاكف» أن يعرف موعد قداس الجنازة على «بافلوس» والمكان الذي اختاره الأسقف لها ثم يخبره.

أوامر العمل التي يعطيها والتقارير التي يتلقاها تُهون عليه مشقة السلم، يتلقى واحدا يفيد بأن عدد الرجال غير كافٍ لأماكن التمركز، وسؤالا حول الاعتماد على «الجبالية» في تغطية بقية النقاط، لا يثق «عاكف» فيهم، يقترح أحد الرجال إقصاءهم خارج الدير حتى ينتهوا من عملهم، يوازن «عاكف» الأمر! وكأنك دخلت متاهة وأغلقت الأنوار وقتلت الدليل الذي سيقودك لباب الخروج لمجرد شكك فيه، يأمرهم ألا يلتفتوا للجبالية، لا يعتمدون عليهم في التمركز، ولا يناصبونهم العداء، لكنه لن يخرجهم من الدير؛ فهو يتحرك خلف طفل منهم لمعرفة مكان غرفة في هذا المكان الفسيح.

يتلقى تقريرا آخر من رجله «الأصلع» يفيده أنه لم يجد المصور إلى الآن، ويبدو أنه هرب إلى الصحراء، يطلب «عاكف» تقريرا تفصيليا عن محيط أسرته: زوجته إن كان متزوجا، عائلته، مكان إقامته ومن يقيم معه.

يصل أخيرا إلى الدور الثالث، يلتقط أنفاسه، يقنع نفسه أن البرد والملابس الثقيلة هما السبب في شعوره بالمجهود، وليس البدانة والسن، يسير في ممر طويل يحتوي غرفا للرهبان، أبوابها مفتوحة، تكاد تتشابه، بلا إجراءات أمان كالتي يعهدها، لو تسلل قاتل إلى أحد الأدوار لاستطاع أن يجهز على الرهبان واحدا تلو الآخر دون أن يحتاج لطرق الباب، إذن لماذا فعلها القاتل في البستان؟! لا يجد إجابة!

يشير «جمعة» إلى إحدى الغرف قائلا: «غرفة أبونا بافلوس»، الغرف بلا لوحات أو أسماء، متماثلة، يعرفها «جمعة» غيبا كما قال، تَماثُل تلك الغرف مُحير لأي غريب عن المكان، قبل أن يدخل الغرفة، ينظر «عاكف» وراءه، ثلاثة أبواب مفتوحة لغرف الرهبان، يخطو إلى الأمام في اتجاه الممر بينما يظل «جمعة» واقفا، أربع غرف متماثلة أيضا، يفطن لأمر بسيط فيحك شاربه، ربما لم يفعلها القاتل في الغرفة لأنه ببساطة لا يعرفها، يحتاج الأمر لدراية بالمكان ومعرفة بتفاصيله، الغرف متماثلة، مترامية في الجناح الغربي في عدة أدوار، تتباين بين غرف الرهبان أو نزل لضيوف المكان من قساوسة الأديرة الأخرى حول العالم.

يدخل غرفة «بافلوس»: حجرة صغيرة نظيفة مرتبة، مجموعة من الصور والأيقونات الدينية معلقة، العذراء مريم مع طفلها المسيح، سرير خشبي صغير، منضدة بجوار السرير، عليها بعض الكتب، يقلب «عاكف» فيها، تبدو كتبا دينية ومراجع كنسية، أحدها بالإنجليزية والبقية باليونانية، في الركن كرسي هزاز صغير، وموقد، أطباق خزفية معلقة على حامل فوق الموقد، وبرطمان يحفظ الشاي، يتجه «عاكف» إلى الكرسي الهزاز ويجلس عليه، يصعد ويهبط، يراقبه الطفل من خارج الغرفة، يصدر اللاسلكي الخاص به إشارة، يأتيه التقرير الذي طلبه، يُعلِمه أن «إيوانيكيوس» ينوي إقامة قداس الجنازة من كنيسة العليقة بعد الفجر بقليل.

يسأل «عاكف» «الأصلع» عن تقريره، فيخبره الأخير أنه جمع بعض المعلومات من المكتب وفي انتظار المزيد، يأمره «عاكف» أن يتعجل الأمر ويخبره بما وصله، يسرد له الأصلع أن «أحمد

«بهي» مصور يعيش بمفرده في المعادي، ترك العمل في الصحافة إثر خلاف مع والده «حسن»؛ وهو مصور مخضرم والمدير السابق للأرشيف المصور بأكبر الجرائد اليومية القومية، اكتشفت الإدارة سرقته وبيعه للأرشيف للوكالات الأجنبية، فانتهى به الحال خارج الجريدة والمهنة.

يضيف الأصلع أن «بهي» لم يتحمل البقاء في نفس المجال بعد فضيحة والده، فابتعد قليلا، سافر إلى كاترين، تعرف على «بافلوس»، وانشغل بالتاريخ والأرشيف كما كان يفعل مع والده، ثم عاد بفكرة العمل في مجال التصوير والرحلات السياحية المختلفة، لم تكتمل خطبته من إحدى الفتيات بسبب فضيحة الأب، وله علاقة عاطفية بفتاة تونسية تأتي من وقت لآخر إلى البلاد لكنها ليست هنا الآن. يعلق «عاكف»: «إذن ليس له مكان أو شخص سيتصل به إن هرب، ولن يقلق عليه أحد إن غاب، فلتعطِ أمرا لأحد رجالنا بمراقبة شقته في المعادي، ولتعمم صورته وأوصافه في كمائن الشرطة من هنا وحتى القاهرة.. وأريدك أن تبحث عن...».

يتوقف عن الحديث لوهلة، لمح شيئا في حركته الأخيرة على الكرسي الهزاز يقبع تحت السرير، يسأله «الأصلع»: «عمَّ أبحث يا افندم؟!»، يعلق «عاكف» وهو ينهض: «نفذ ذلك.. وسأعاود الاتصال بك».

ينظر «عاكف» إلى «جمعة»، يناديه، يأمره بدفع السرير قليلا، يفعل الولد، يظهر عقب سيجارة، ينحني «عاكف» ويبتسم ساخرا.. آه لو عرف الأب إيوانيكيوس بما كنت تفعله يا بافلوس، يعلق الطفل في خوف وكأن أعقاب السجائر جريمة في الدير: «ليس أنا!».

يهز عاكف رأسه، فيضيف «جمعة»: «ولا أعتقد أنه مولانا بافلوس أيضا»، يفرك «عاكف» السيجارة، فيتساقط التبغ على حصيرة تحت السرير، يلمح تقوسا في الحصيرة، فيجثو على ركبته، يشير لـ«جمعة» بدفع السرير أكثر، يرفع الحصيرة، يُخرج جهازا في حجم البطارية الجافة الصغيرة: ميكروفونًا موصولًا بجهاز إرسال صغير وفائق المدى، جهاز تنصت، يعرفه جيدا لأنه ليس جهازا عاديا كالذي يباع في المنتديات الصينية الرخيصة، إنه أحد الأجهزة المستخدمة أمنيا لدى الأجهزة الشرطية والمخابراتية، يمكن استقبال بثه عن طريق شبكة إنترنت مؤمّنة، أو بإرسال البث إلى عدد من الخوادم المتابعة والمختلفة، تماما مثل عمليات تحويل الأموال القذرة، فيصعب تتبعها، أو تحتاج إلى سنوات للوصول إلى مصدرها الأساسي ووجهتها النهائية. يسأل الطفل «عاكف بك»: «ما هذا يا افندم؟!».

لا يجيب «عاكف بك»، فكلما وصل لاستنتاج نسفته البراهين الجديدة، يركض تجاه الغرفة التالية لغرفة «بافلوس»، وخلفه «جمعة»، يأمره بدفع السرير، يميل ويرفع الحصيرة، لا شيء سوى البلاط الهندسي الملون، الغرفة التالية والتي تليها نفس الأمر، فلتسقط نظريته بأن القاتل لا يعرف غرفة «بافلوس».

فأحدهم كان يتنصت على الأب «بافلوس».. ويضعه دون غيره تحت المراقبة.

(١٩)

«نصفه بين كلمتين.. والثاني تخفيه عين المهندس الماسوني الباني!».

يقلب «بهي» نصف المفتاح بين كفه، وهو يمضي خلف «الجبالي» في الطريق إلى عين المياه، كان مفتاحا فضيا ذا قضيب غائر من المنتصف لينزلق فيه نصفه الثاني فيكونا معًا أسنان المفتاح، يحمل رأسا دائريا مستديرا يملك «بهي» نصفها، بداخله نصف شكل هندسي، زوايا متقاطعة، بالتأكيد لن يكون هذا الشكل صليبا، يتعجب، يقف قليلا مدققا النظر فيتخلف عن مرشده، يلتفت «أبو عمران» مناديا بذات التجهم: «أسرع يا هذا»، يهرول «بهي» الذي تكاد مثانته أن تنفجر منذ بداية الليلة، يسأل «الجبالي» عن دورة مياه قريبة، يشير «أبو عمران» إلى إحدى الغرف القريبة في السور المليء بالتعرجات والغرف الصغيرة التي تم وضعها على مر التاريخ، يمد ذراعه للمصور ويدعوه للدخول، تتناول «روث» نصف المفتاح من «بهي» ربما أضافت شيئا برؤيتها، يقول «الجبالي» وهو يدلف خلف «بهي»: «لا تبارحي مكانكِ يا حُرمة.. هذه الدورة ستخفيكِ عن الأعين ريثما ننتهي»، تهز «روث» رأسها، فيمد يده رافعا وشاحها السينائي على أنفها ليلثمها.

كان الحمّام إفرنجيا من عينين، ينظر «عمران» إلى الباب المغلق الذي يقف خلفه «بهي» فينتقي العين الثانية، يجلس، فيلاحظ «بهي» حذاءه من أسفل الفاصل الصخري ذي الكوة السفلية، الصمت يغلف المكان عدا صوت الخرير الخفيف الناتج عن تبولهما، لا

يدري «بهي» لم فعل ذلك أو اختار هذا المكان ليتفوه بما قاله، لكن مشاعره كانت حقيقية!

«آسف يا أبا عمران»، لا يرد الخوجة ويتعجب، يفتح باب حمّامه خوفا من أن يهرب الفتى، إلا أنه لا يجد المصور قد فتح بابه، لا يزال مكملا عملية تبوله، بل يضيف للجبالي: «لم أقصد أن أعيد معارك قديمة أو أثير حنقك بحديثي عن العهدة أو تاريخ الجبالية.. إنني أفتقد المكان والأب بافلوس بالفعل، ربما لم أجد الوقت لفعل ذلك لكنني كنت أحوج ما يكون لأسمع صوته لمرة أخيرة».

ينهض «الجبالي»، يتجه نحو الحوض، يغسل يده ويقول: «لقد كان يحبك يا بهي، حتى بعد أن أصدر أمره ألا تدخل الدير أو تنظم رحلات في جبل سانت كاترين، وألا يعاونك بدوي في سيناء، كان بداخله شيء ما ناحيتك، شغفك وحبك للقراءة أو التهام مكتبته».

يخرج «بهي»، يتجه ناحية الحوض الوحيد، فيناوله «الجبالي» بقية صابونة ليستخدمها ويضيف: «لكنه كان في الآونة الأخيرة خائفا دون أن يوضح السبب، يترك باب غرفته مفتوحا فأسمعه وهو يدعو بتضرع ويطلب أن يعينه الله بمَن يساعده».

يعلق «بهي» ساخرا: «وهل أصبحت تجيد اليونانية الآن يا أبا عمران؟!».

ـ «لا، كان يصلي في الأيام الأخيرة في مهجعه بالإنجليزية، قبل ليلتين وجدت غرفته مواربة، قضى الليل ساهرا، ثم سمعته ففطنت لما يقوله، دخلت قلقا لأطمئن عليه، سألته عن كل هذا الخوف الذي يحمله دعاؤه فأجاب بدبلوماسيته المعهودة أن الخوف واجب

وبخاصة على الأتقياء، وأن القادم سيكون خطيرا، ثم أهداني إنجيله ليحفظني من الشرور».

«الله يرحمه». يقولها «بهي» ويربت على كتف «الجبالي»، الذي يرتعش ثغره الأيسر فيما يشبه البسمة الكسيرة لعودة صديق قديم، أو اختلاجة صخرة سينائية تخشى البكاء، يعتبرها «بهي» كافية، فيهز رأسه في تفهُّم، ويخرجان.

«نصفه بين كلمتين.. والثاني تخفيه عين المهندس الماسوني الباني!».

يكمل «الجبالي» - ومن خلفه الشاب والفتاة - طريقهم بين التعاريج صوب عين «إستيفانوس»، المهندس الذي كلفه «جستنيان» ببناء الدير، والتي تستقر في وسط القطاع الجنوبي الغربي، أمام الكنيسة التي تحمل ذات الاسم وتعد من الكنائس الكبرى في الدير، يقفون أمام العين المغطاة بحاجز زجاجي يمكن فتحه وينظرون إلى الجب المظلم، تسأل «روث»: «وكيف يمكننا أن نجد المفتاح في هذا الغيهب؟!».

يرفع «الجبالي» جلبابه ويعقفه ويضعه في بنطاله الداخلي، يزيح الفاصل الزجاجي، ويقول وهو يستعد للنزول: «سأتدلى وأبحث عن حجر غير مثبت في المنطقة العلوية، فلا بد أن الرهبان وضعوه في المتناول، ولم ينزل منهم أحد إلى قاع البئر».

يشعر «بهي» أن أمرًا ما ليس على ما يرام، يدير ظهره وينظر إلى الكنيسة، بينما يستعد «الجبالي» للإمساك بالحبل المتدلي والنزول مستندا بقدميه أم بيديه على الحائط الداخلي للبئر، يهبط فيغيب

قليلا في الظلام، تسأله «روث»: «هل وجدت شيئا؟!»، فيجيب صوته وصداه المنعكس عبر البئر: «لا، الحجارة صلبة».

يتردد هذا الصدى في المكان القريب، يهز قليلا مسامع الفتى الملتهب في أرضية الكنيسة القريبة في السور الجنوبي، يفتح جفنيه فيشعر بالتهاب جلده، ينهض «سليم»، يمسك حقيبته ومسدسه ويرفعهما فيشتاط ظهره، يلقيها، يخرج منها هاتفه المحمول، ويكتفي به مع المسدس المزود بكاتم الصوت، ويسير في خدر وألم نحو الباب والهواء البارد، يود أن يلقي بجسده في هذا الثلج الذي يفترش أرض الدير بالخارج، أو أن يرتمي في إحدى آباره ليرطب ما أصاب جسده، يبدو الباب بعيدا رغم قربه، يكمل طريقه، يهيئ مسدسه تحسبا لرؤية أحد، يتوارى قليلا ويطل برأسه يمينا، لا أحد، يكرر الأمر يسارا فيجد ملثمين يقفان عند بئر «إسطفانيوس»، سمع صوتيهما في غفوته فظن أنهما ملاكا الموت، لكنه لا يزال حيا، يقف ليراقبهما، ليسا رهبانا أو جبالية، يتابعهما، يتحركان وكأنهما يبحثان عن شيء، الأول يمشي باتجاه كنيسة «إسطفانيوس»، والثاني يقف عند البئر، ينظر إلى الأسفل ويحدث ثالثا بالداخل، الأول يلتفت في انفعال جعل صوته مرتفعًا قليلا: «هناك أمر غير صحيح يا أبا عمران.. مفتاح المكتبة ليس هنا».

لا يسمعه «أبو عمران» بدقة، تشد «روث» الحبل لتنبهه أن يصعد، بينما تلتفت إلى «بهي» لتفهم منه، فيقول: «لم يكن المهندس إستفانيوس مرضيا عنه قط، فقد أعدمه جستنيان بعد أن أتم بناء الدير، لدرجة أن كافة الكتابات التي تمتدح المهندس كانت في كَمَرٍ مخفية خلف أسقف كنائس الدير».

يتذكر الآن «بهي» أن المهندس الذي لم يرد اسمه صراحة في الدير سوى في عبارة وحيدة كتبت في عصور لاحقة باللغة العربية لأنها تحتل مكانة أقل في الدير وفوق مصلى موسى لا إحدى أيقونات المسيح، طلبت تلك الجملة المغفرة لـ«إصطفان» ـ إستفانيوس بعد التعريب ـ يدرك أنه لا يُعقل أن يضع الرهبان لذاك المهندس كنيسة أو عينًا باسمه في إحدى أرجاء الدير، فيغضبون جستنيان الذي بنى لهم ما يحميهم.

تقول «روث»: «ربما كرموه بعد موت جستنيان».

يرد «بهي»: «لا أعتقد، فقد كان الإمبراطور هو الأهم بالنسبة لهم».

ـ «لكن جستنيان لم يكن من أشد داعمي المسيحية ليشيد أول دير مسيحي».

يقول «بهي» بهدوء: «لأنهم ببساطة لم يطلبوا منه بناء دير، فكما ورد في الوثائق المحفوظة، ذهب إليه الرهبان راجين آملين أن يبني لهم حصنا، لم يكن المقصود يوما الدير، بل الحصن، الحماية لهم».

تعلق «روث»: «أو لما يخفونه!».

ـ «بالضبط، الرهبان أصلا لم يسكنوا الدير بشكل مستمر إلا بعد نحو مائة عام من بنائه تقريبا، ظلوا يسكنون المغارات والكهوف دون سبب معلن».

ـ «ربما احتاجوا كل هذا الوقت لنقل ما يخافون عليه إلى الدير».

يهز «بهي» رأسه، وينظر إلى «الجبالي» المبتل الذي خرج لتوه

من البئر، يرتعد قليلا من البرد، فيسأله «بهي»: «ألا تعلم يا أبا عمران ما يخفيه الأب بافلوس كل تلك السنوات؟».

يعلق الرجل بهدوء: «وهل يعرف ضابط الأمن، الذي يضع طرف يده في كلبش حديدي وطرفه الآخر مربوط بحقيبة سوداء، ما تخفيه تلك الحقيبة؟!».

يصمت «بهي» فيضيف «الجبالي» لأول مرة: «لكنني أعلم أن شيئا ما يستحق الحماية، ليس لوجودنا فقط ولا لتاريخ الدم المنتشر في المكان، لكن لأن الدير تطور طبيعي للحصون التاريخية، فقبل أن يتم تشييد الدير بمائتي عام زارت القديسة هيلانة والدة الإمبراطور قسطنطين المكان، أتدري ما الذي أمرتْ به للرهبان؟».

ـ «ماذا؟!».

ـ «أمرت ببناء بُرجين لحماية الرهبان.. وجدت أن هذا ما يحتاجه المكان، كما رأوا تماما حينما طلبوا بعدها من جستنيان حصنًا».

تقول «روث»: «هذه هي المرة الأولى التي تشاركنا معلومة يا شيخ».

لا يهتم «الخوجة» كثيرا بتعليقها ويسأل: «إن لم تكن هذه هي عين الباني الماسوني، فلا يوجد أعين أخرى، فالعينان المتبقيتان داخل الدير تسميان: عين موسى، وعين الشجرة المحترقة».

يصفق «بهي» بيده دون داعٍ لذلك ويقول: «إلا إن كان المقصود بالعين ليس المعنى الحرفي».

يعلق «الجبالي»: «العين هي المطرح أو الشقة».

يهز «بهي» رأسه رافضا الفكرة: «لا أعتقد، إننا نترجم من

اليونانية، ولا أعتقد أن كلمة العين تحمل هذا المعنى في لغة أخرى غير العربية على حد علمي».

يصمتون ويتحركون ذهابا وإيابا، يرفع «بهي» رأسه إلى السماء، تقع عينه على السور الجنوبي، يقول: «إلا إذا كان المقصود بالعين.. هي نقطة المراقبة».

يعلق «الجبالي»: «لكن الدير يمتلئ بالعديد منها التي استُخدمت للمراقبة أو لسكب الزيت المغلي على المغيرين».

ـ «إحداها قام بها مهندس ماسوني باني».

«عين المهندس الماسوني الباني».. تكررها «روث» كثيرا، وتقول بصوت خفيض بدون تأكد: «كليبر!»، يعلو صوتها أكثر وكأنها راجعت معلوماتها: «برج كليبر، به كوة للمراقبة وسكب الزيت المغلي، وهو مَن أعاد بناء السور الشمالي حتى نُسب له وسُمي باسمه».

يعلق «الجبالي»: «وهل كان كليبر ماسونيا؟!».

يقول «بهي» وهو لا يزال يتشكك فيما تقول «روث»: «كان ماسونيا، بل إنه أسس أول محفل ماسوني في مصر تحت اسم إيزيس قبل أن يخفت المحفل قليلا بسبب فشل الحملة ومقتله.. لكنه يا روث لم يكن مهندسا».

تقول «روث» وكأنها وجدت فرصتها: «لتراجع معلوماتك أيها المصور جيدا، لقد عمل مهندسا قبل التحاقه بالجيش نحو ١٠ سنوات، صمم وبنى قصورا بنفسه قائمة إلى الآن مثل جرانفلير أو مبنى البلدية، ولا يزال متحف ستراسبرج يضم رسوماته الهندسية، أعتقد أن نصف المفتاح الثاني سيكون...».

تصمت مدهوشة، فيلتفت «بهي» و«عمران» نحو ما تنظر إليه: مسخ دميم محمرّ الجسد، تعلو جلده فقاقيع بيضاء متفاوتة الأحجام، وقشور سوداء إثر احتراق سابق، يمسك مسدسًا ذا فوهة طويلة، يستنتج «بهي» أنه جهاز لعزل صوت الطلقات، يقول المسخ الذي ينظر إليهما بنبرة مخيفة كشكله: «المفتاح!».

يتقدم «الجبالي» خطوة مشكلا سدا بشريا للشاب والفتاة خلفه، فيكرر المراهق البدوي الذي تكشفه لكنته: «المفتاح يا خوجة وإلا ستموت»، يتقدم «الجبالي» خطوة أخرى فلا يتردد البدوي ويطلق على فخذ «أبي عمران»، تخترق الرصاصة جلده، تكتم «روث» صرختها، يميل «الجبالي» قليلا لكنه لا ينحني، كما اعتاد، ينظر «بهي» في عينَي الكائن الخارج من بوابات الجحيم أمامه، يبدو أن ما لاقاه لن يجعله يتهاون، بينما ينتصب «أبو عمران» استعدادا لمواجهة المسلح، لا يريد «بهي» أن يرى مزيدا من الدم في المكان، قبل أن يهم «الجبالي» بخطوة أخرى، ينتزع «بهي» نصف المفتاح من يد «روث»، يلقيه على الأرض أمام «سليم»، يصيح فيه «الجبالي»: «ماذا تفعل؟!».

يرد «بهي»: «لا أريدك ميتا يا أبا عمران».

يقرفص «سليم» ليلتقط نصف المفتاح وهو لا يزال مشهرا مسدسه، يضم مبتغاه بيده اليسرى، بينما تهوي على يده اليمنى ضربة قوية من خلفه، تطيح بمسدسه في البئر، يلتفت الفتى، المطران «ثيودلوس» وكيل الدير استخدم صليبه الذهبي الكبير وكامل قوته الواهية في تلك الحركة، يصفعه «سليم» فيسقط الكاهن العجوز على الأرض، في الوقت الذي يركض «أبو عمران»

برأسه ناطحا «سليم» فيدفعه عدة أمتار، ثم يقفز فوقه فيشتبكان، لم تؤثر لكمات «الجبالي» في الفتى أو تزده وجعا فوق وجعه، يمسك «سليم» «الجبالي» من رأسه ويخبطه في الأرض الحجرية، يكوّر قبضته، يستخدم نصف المفتاح بين أصابعه فينغرس سنها المدبب في خد الخوجة، بينما يرد له الأخير اللكمات.

وسط عراكهما، يركض «بهي» و«روث» تجاه «ثيودلوس»، يحاول «بهي» أن يشده لينهض فيمنعه الكاهن، يقول بصوت واهن: «سأجد مَن يساعدني يا بهي، إن كنت تعرف موقع المفتاح فاذهب الآن، خذه، أخفِه حتى لا يحصل عليه شخص آخر ولا تقلق عليَّ».

يقول «بهي»: «المفتاح ليس في أهميتك يا مولانا.. تعالَ معي وسنـ...».

يضغط «ثيودلوس» على كلماته: «قلت لك اركض.. لن تعرف ما الأهم مثلي.. لقد كان بافلوس يجيد العربية والإنجليزية واليونانية ويختار كلًّا منها لسبب وجيه، ألا تعرف لماذا كتب على الظرف (تُسلّم إلى بهي) باليونانية خصيصا؟! لأنها كانت رسالة لنا.. كهنة الدير.. أن نساعدك».

(٢٠)

دفع العسكري الفرنسي سجينه في غلظة منبعها شعور بالإحباط، لا غيظ ولا حقد، فقط إحباط الخائف الذي لا يعرف ما جلبه إلى هاتين: الأرض واللحظة، ينكفئ السجين على وجهه في القاعة المقابلة، تظهر للقاضي العسكري الجالس على المنصة جروح

حديثة في رأسه لا يمكن الجزم إن كانت بيد جنوده أم قتيله أثناء المقاومة.

يرفع السجين وجهه: شاب في أوائل عشرينياته، اكتست عيناه بلون أحمر قانٍ، أثر غياب النيكوتين الذي اعتاد تدخينه حديثا، يشع منهما اللون الدموي فيحيلهما كرتين من النار، لا تزيد كل علاقته بالدخان عن الشهر واليوم، لم يكن دافعه طول الطريق من غزة حتى القاهرة، أو رغبة في قتل الوقت، أو حظه الوافر بأن يكون ضيفا على قافلة محملة بالدخان، لكنه رأى من فوق سنام جمله شيخا يفعل ذلك مؤكدا أن الأمر يساعد عقله على التفكير، وكان السجين الحالي في أحوج ما يكون لما يطلق العنان له ليدبر كيف سينفذ المهمة الموكل بها.

يحاول جاهدا أن يقف فتمنعه الأغلال المُقيِّدة لقدميه، يشير القاضي العسكري إلى جندي فرنسي آخر أن يساعده على الوقوف، فيقف، متسربلا في ملابس ممزقة خضراء تكشف عن صدر يعاني من رضوض واضحة، هذه المرة يعرف القاضي أن سببها هم جنوده، اعترف السجين بالأمس بأنهم فعلوا ذلك لينتزعوا منه الاعتراف، وامتلك القاضي من الهدوء ما جعله يدوّن ذلك في وقائع الجلسة، إذن لماذا يعيدون الكرة اليوم أيضا؟! تردد السؤال في نفس السجين الذي لم يكن يرغب في شيء سوى بعض الراحة لعينيه، العينان الحمراوان لا تريان العالم بنفس اللون الدامي، تريانه غائما، والشاب لم يألف تلك الغيوم، رآها في ذلك اليوم الذي استدعاه فيه الضابط العثماني إلى مقره فانقبض، لن يسير الأمر بسهولة أمام «أحمد الأغا»، لا بد أن الأمر متعلق بصراخه في الجند حين ضيّقوا

على والده وصادروا بضاعته، هل سيسجنونه؟! ربما، لكن لو أراد «الأغا» فعلها لكلف أحد رجاله بالأمر، إنما الرسول أخبره بأن الضابط يريده فلبّى، نفس الأمر يتكرر الآن لكن أمام القاضي، لا يدري سبب استدعائه، ويبدو أنها نفس إجراءات الأمس بالكامل، يتوسط القاضي «سارتلون» مقعده بين ضابطين على منصة مرتفعة، أسفل منها تجلس مجموعة من الكُتاب والمترجمين، يتأهبون لتسجيل ما يقوله في الأوراق باللغات الفرنسية والتركية والعربية، لم يرَ السجين، مثله مثل غيره ممن يتابعون بترقب ما يصلهم من وقائع استجوابه إجراء مماثلا، لماذا يدون الفرنسيون مثول السجين أمام قاضيهم.. ولـمَ كل تلك الأوراق؟!

يسأل القاضي، فيلتقط المترجم «لوماكا» خيط حديثه ليحوله إلى غَزَل عربي يعرف السجين ملمسه جيدا، يعلو صوته بهدوء ليواكب إيقاع المدون.

> **«ثاني فحص للمتهوم.. نهار تاريخه ستة وعشرين من شهر بريال السنة الثامنة من انتشار الجمهور الفرنساوي نحن الواضعين أسامينا فيه الدفتردار سارتلون برتبة مبلغ والوكيل بينه في رتبة كاتم سر القضاة المنقامين إلى شرع كل من متهوم، أحضرنا المتهوم لأجل نساله من أول وجديد على صورة غدر وقتل المغدور».**

إذن فهو مغدور واحد، لم يمت الآخر بعد، كيف لم تُودِ ست طعنات بحياة الثاني، والأهم من كل هذا، هل سيعتبر «الأغا» ذلك نجاحا أم فشلا؟

ناوله «الأغا» ثمرة مشمش حلبية فأدرك أن الأمر أكبر مما يبدو، ثم تناول لنفسه واحدة وقَسَمها بكفيه إلى نصفين متماثلين إلا من بذرة ناتئة، وركز ناظريه على الشاب القلق، وقال وهو يعيد النصفين المقطوعين بكفيه إلى بعضهما البعض ليشكل الثمرة مرة أخرى: «الاثنين.. احذر ألا تقتل الاثنين».

رحل الشاب الذي لم يجرؤ أن يقضم ثمرة المشمش أمام «الأغا»، عرضُه وإن كان بسيطا إلا أنه صعب التنفيذ، سيرفع يده عن والده وتجارته، في مقابل عملية اغتيال ينفذها في مصر التي عاش فيها مسبقا ثلاث سنوات، لم تألفِ القاهرةُ في ذلك الوقت مثلَ تلك العمليات، ولم يكن ينشد أن يصبح قاتلا أجيرًا، فلا ناقة له أو جمل في ذلك المُعترك.. باستثناء أبيه.

طوال ثلاثين يوما قضاها مُقتفيا أثر هدفَيه، أُتيحت له أكثر من فرصة للتخلص من أكبرهما وأبرزهما، تطوف في مُخيلته صورة المشمش فيتراجع عن فعلته، رآه الضابط «بيروس» ذلك اليوم وهو يَنسلُّ إلى مقر القيادة بحجة تقديم شكوى، ورآه الضابط «ديفوه» ضمن عمال حديقة القصر قبل أن يطرده لتخاذله، يفرك القاضي العسكري كفيه ويتساءل عن سبب إحجامه عن فعلته في المرتين، يعلق الطبيب الذي فحص الجثة أن الخوف ربما منع السجين، لكن السجين كان الوحيد الذي يعلم أن نصفي الثمرة لم يلتئما بعد، في اليوم الحادي والثلاثين وجدهما معا في حديقة القصر.

«وصلنا له فرأيناه في آخر نفس فحصنا جروحاته فتحقق لنا أنه قد انضرب بسلاح مُدبدب وله حد وجروحاته كانت أربعة: الأول منهم تحت البز في الشقة اليمنى، الثاني أوطى من الاول

جنب السوه الثالث في الدراع الشمال نافد من شقه لشقه والرابع في الفخد اليمين، فبهذا حررنا البيان بالشرح باش حكيم دجنط، والجرايحي من أول مرتبة كازابيانكا».

لم يرد السجين الاستماع إلى شهادات الشهود، كان يترقب أن يأتيه الصليل من خارج القاعة قويا، ها هو ذا فعل ما طُلب منه، تقريبا، يكفي أن أبرز المرصودين قُتل، أليس ذلك مشجعا على الانتفاضة ورد الهزيمة المنكرة التي لاقاها العثمانيون في هليوبوليس؟! ألم يكن هذا هو السبب من وراء عمليته كما قال له «الأغا»؟

«أأقتلهما سيدي الأغا؟!».

«تثأر منهما، لقد سرقوا منّا ما نملك».

«الأرض؟!».

«بل أكثر»، يقولها «الأغا»، ثم يلقي له ثمرة مشمش في صحنه الفضي، فيسأل الشاب الذي أصبح شجينا الآن: «وماذا بعد قتله؟!».

«حينها نحرر البلاد من الفرنسيس ونسترد ما نملك».

«ولماذا المهندس إذن؟!».

لم يجب «الأغا».. هنا تناول ثمرة مشمش قسمها بكفيه في مشهد لم يغب عن السجين طوال محبسه، أشار بهما إليه، وقال بصرامة:

«الاثنين.. احذر ألا تقتل الاثنين».

يقرأ القاضي الاتهام والوقائع في النهاية استعدادا للنطق بحكمه، في حديقة القصر كانت الطعنة الأولى أودت بحياة القائد العسكري، إلا أن المتهم سدد له ثلاث طعنات أخرى، ثم أخرج خنجره المدبب من جسد القتيل والتفت إلى المهندس ليطعنه طعنته الأولى في صدغه الأيسر ليقطع عروقه وتفور الدماء منه، ليصرخ صرخة ترددت أصداؤها في حديقة القصر، على إثرها تحركت خيول الحرس.

تماما كالخيول التي تحركت في هذه اللحظة، تنتظم في صفوف، يراها أحد الرهبان من البرج الذي تم ترميمه حديثا، فيركض رغم سنه في فزع.

الطعنة الثانية اخترقت كف المهندس وأطاحت بإصبعه..

يُفلت إصبعُ يده وترَ القوس فينطلق السهم إلى الكوة الصغيرة للبرج ليستقر بجوار الراهب.

الطعنة الثالثة كانت في ضلوع المهندس..

يصل الراهب أخيرا إلى برج الكنيسة التي يصعدها.

ثم في البطن..

يرن أجراسَ الدير في غير موعدها فيخرج الرهبان، بينما يتنبه أحد العربان النائمين في المسجد فينهض، يصعد البرج، ينظر إلى المغيرين، ليسوا عربانا هذه المرة، هيئة أمير يقود جنوده ويمسك في يده ثمرة مشمش تلمع كشمس الظهيرة.

الطعنة الخامسة في الشدق..

هذه المرة أجاد السهم طريقه فاخترق رقبة البدوي المراقب في البرج، يلمح الراهب سقوطه من هذا العلو، ويدرك أنها غارة حربية وليست طائفية، لكنها تعرف ما تبحث عنه، أو تعرف على الأقل أن شيئا مميزا داخل الدير حتى وإن لم تكن تعرف ماهيته، يدخل الرهبان مخابئهم، بينما يقوم بدوي بالتأكد من إغلاق البوابة.

فيما ينتهي القاضي من وقائع الجلسة ويتلو الحكم.. بعد ذلك سيختفي المهندس تماما، لن يذكره التاريخ، سيعود إلى وطنه ويتوارى، حتى عن اللوحات الفنية التي جسدت الحادثة، وكأنه لم يكن هناك ولا يريد أن يعرف مخلوق آخر مكانه أو ما يخفيه في صدره الذي تلقى الطعنة السادسة من الشاب السجين قبل يومين.

تشتعل كرة نار في إحدى أرجاء الدير.

بينما يعلو صوت القاضي:

«أن المتهوم مثبت أثمه الكريه بقتل السر عسكر فلهذا هو يكون مدحوضا إلى تحريق يده اليمنى وبتخزيقه حتى يموت فوق خازوقه، وجيفته باقيه فيه لمأكولات الطيور».

يعم الصمت القاعة، هنا يدرك الشاب أنه لا وجود لأصوات الخيول والسيوف التي ينشدها والتي وعده الأغا أن تخترق شوارع المحروسة للانتقام من الفرنسيين، ولن يعلم أنها الآن تلتف حول الغنيمة التي أنشدها العثماني الذي حرضه، بينما ينهي مدونو المحاكمة أخيرا مهمتهم ويطوي المسئول عن التدوين باللغة العربية نحو ثمانين صفحة قاصدا الغلاف ليكتب عنوانه: «مجمع

التحريرات المتعلقة إلى ما جري بإعلام ومحاكمة سليمان الحلبي قاتل صاري عسكر العام كليبر بمصر القاهرة».

(٢١)

في الدور الثالث من برج كليبر ينعكس ضوء القمر الفضي من داخل شباك الكوة التي كانت مستخدمة في المراقبة وصد الهجمات، بالإضافة لاستخدامها كبوابة طوارئ، غرفة خشبية بارزة تخرج من قلب السور إلى الخارج معلقة في الهواء تقريبا، بباب في أرضيتها يفتح إلى أعلى فيسمح بنزول وصعود المؤن والغنائم، بواسطة حبل ضخم مربوط على ونش دوار معلق دائري كساقية المياه أو ترس الساعات الضخم.

يركض «بهي» و«روث»، يتجاوزان الكوة، بجوارها على بُعد خطوات، لوحة رخامية تسجل أن البرج تم ترميمه بواسطة كليبر، يبدو الإسمنت حول اللوحة، وهي طريقة حديثة للتثبيت تخالف بقية المباني الأثرية في الدير، تنظر «روث» إلى «بهي» وكأنها تسأله إن كان يعتقد أن بقية المفتاح وراءه»، بينما كان عقل «بهي» مشغولا بالإجابة عما إذا كان ما يفعله صحيحا أم لا، سيأخذ المفتاح ويلقي به من تلك الكوة فلا يجده أحد وسط الثلوج ثم يعود لينقذ الكاهن الجريح، لا تنتظر «روث» إجابته، تخرج سكينها السويسري الذي يستخدم في الحياة البرية، تفتحه، تضع سنه على حافة الفاصل الإسمنتي وتطرق براحة يدها فيسقط الإسمنت، تكرر ما تفعله، فتخلخل اللوحة الرخامية، يلتقطها بهي ويحملها بيديه خشية أن

تسقط فتنكسر، يسمعان من نهاية الممر صوتا صارخا: «مكانك».

يميل «سليم» بجسده فوق الرجل العتي رئيس الجبالية رغم سنه، يكيل له اللكمات فتخور قواه، يتأكد المراهق البدوي أنه لن يستطيع أن يجهز على هذا العجوز دون مسدس، لن يتمكن من خنقه وسط آلام الحروق التي يعانيها، يخبط «سليم» رأس غريمه بقوة في الأرض مرة أخرى، بما يتيح له أن يركض في اتجاه الشمال مخترقا مرتفعات ومنخفضات الدير، لا يدري وجهته لكنه يتمنى أن يلوذ بالمفتاح عبر إحدى البوابات، يلمح البوابة الشمالية، رَجُلا أمن ينصبان بوابة إلكترونية ويبحثان عن مصدر للكهرباء، يمدان سلكا طويلا أسود اللون ليصلاه بأقرب مصدر كهربي بالكنيسة القريبة، يختبئ منتظرا اللحظة المناسبة لانشغالهما.

يتجمد «بهي» وينظر في اتجاه الصيحة، كان الرجل الأصلع - مساعد عاكف بك - في نهاية الممر الذي يعلوهما عدة درجات، يجري ناحيتهما حاملا مسدسه، تمد «روث» يدها في الفتحة المظلمة خلف اللوحة الرخامية وتتناول شيئا معدنيا؛ المفتاح! تشد «روث» «بهي» ليهربا، بينما يرتبك الأخير ويقرر أن يقف، يكرر الأصلع تحذيره: «مكانك»، ورغم أن «بهي» لم يحرك ساكنا يبدأ الأصلع في إطلاق أولى رصاصاته، يُسمع دويها عاليا وسط سكون الليل وأصداء الجبال التي تحتضن الدير، يخترق صوتها المكان، يلتفت «بهي» فتصطدم الرصاصة باللوحة الرخامية التي يحملها أمام صدره، يتنفس الصعداء وينظر في فزع إلى اللوحة، ثم يلقيها ملتاعا كما ألقى موسى ألواح الوصايا، فتنكسر، ويركض في الاتجاه المعاكس ممسكا يد «روث»، تحاول الباحثة البيئية أن تكمل طريقها عبر الممر، فيسحبها «بهي» وهو ينظر للكوة، من هنا

هرب القساوسة مرارا، عبر تلك الرافعة القديمة، لا يعرف إن كانت تعمل أم لا، يلمح عربة دفع الرمال والأدوات ذات العجلة الواحدة مربوطة في طرف الحبل الخاص بالكوة الخشبية، معلقة من طرفَي يديها، وعجلتها الأمامية، يدفعها حتى قبل الباب الخشبي الموجود في أرضية الغرفة الخشبية، يفتح البوابة الثقيلة فتظهر الأرض أسفلهم كأنها الهاوية، يضع العربة في الفتحة، ويدفع «روث» فيها، بينما تدوي الرصاصة الثانية وتمر بجوار وجهه، يقفز هو الآخر داخل الغرفة الخشبية البارزة من سور الكوة.

على صوت الرصاص الذي يخترق سكون الدير، يلتفت رجلا الأمن في البوابة الشمالية، يرفعان رأسيهما إلى أعلى، يشير أحدهما إلى اتجاه الرصاصة بالأدوار العلوية، فيتحرك أحدهما ويترك الثاني، بينما يخرج «عاكف بك» من ممر الغرف الغربي ليتبين مصدر الصوت، يصيح في جهاز الإرسال ليعرف ما يحدث، في الوقت الذي يفزع الرهبان والعاملون بالمطحنة الشرقية، يخرج أحد البدو مع أحد رجال «عاكف بك» أمام باب المطحنة ليستطلعا ما حدث، يخرج خلفهما «إيوانيكيوس»، يحاول البدوي أن يمنعه لحمايته، فيزيح المطران يده في هدوء وصرامه ويقف بنفسه ليطمئن على ديره.

تقفز «روث» في العربة المعدنية لتدفعها إلى الأسفل فتحملهما إلى أسفل كما يعمل المصعد، إنها في أحد طرفَي الرافعة، بينما الطرف الثاني مربوط حول عمود خشبي قديم لم يتحرك منذ سنوات ربطة عتيقة متينة، يقفز خلفها «بهي» وينتظر أن يساعد

نقلهما معًا على هبوط العربة المعدنية ذات العجلة ـ التي يسميها العمال «بروبطة» دون معرفة أصل الكلمة الفرنسية Brouette ـ إلى أسفل، لكن ثقليهما لا يزحزحان العربة، فيصابان بالذعر.

ينهض «أبو عمران» من الأرض، يشعر بالألم في فخذه إثر الرصاصة، يعرج بقدمه نحو الراهب «ثيودلوس» يضع ذراع اليوناني العجوز حول رقبته وهو يساعده على النهوض.

يركض «سليم» متألما عبر البوابة التي خلت إلا من حارس وحيد، يمسك من الأرض السلك الكهربي الأسود، يفاجئ رجل الأمن من خلفه، يحيط رقبته بالسلك في غل وغلظة تناسب الصهد المنبعث من جسده حتى يلفظ الرجل أنفاسه فيسقط على ركبتيه، يتركه «سليم» ويخرج نحو البوابة الشمالية، يهبط السلالم بين حرم الدير والباب الخارجي، البازار عن يمينه، يتوقف للحظة، يتناول كرسيًّا أمامه ويلقيه فيكسر زجاج واجهة المحل، تتساقط مجسمات الدير الرخامية والبلاستيكية التي يشتريها السياح كتذكارات فتتحطم تماما كما قلوب الكهنة بعد ما حدث الليلة، تتطاير الشظايا مخترقة وجه المسيح الذي يزين أغلفة الكتب والألبومات بالبازار، فتصيبه كتيجان الشوك، بينما يتناول «سليم» قطعة كبيرة من الزجاج تعينه كسلاح إذا ما واجه أحدا بالخارج.

يركض الأصلع في اتجاه فتحة العربة الدوارة، تتحرك الرافعة أخيرا في بطء شديد إلى أسفل ثم تقف بعد مترين، تحتاج مثل تلك الرافعات القديمة إلى شخص ثالث يقف على العجلة الدوارة ليحركها، ويسمح للحبل الضخم بالتدلي، ويساعد على النزول بهدوء، ينظر «بهي» إلى البكرة المتحجرة، يتأكد أنهما علقا بالفعل

ومعهما نصف المفتاح، تفتح «روث» شفرة سكينها السويسري، تبدأ في قطع الحبل القديم الضخم فوقهما، ينظر بهي إلى ارتفاعهما، يلتفت لها، يصرخ فيها «بهي» وهو يرى آخر النَّسِيل ينقطع أمام حدة السكين: «ماذا تفعلين يا مجنونة؟!».

بينما تتهاوى العربة المعدنية بسرعة وحِدّة إلى الأسفل!

MAGENTA

(١)

يُسلم «الحسن الجيلاني» معلنا انتهاء صلاته، يرفع رأسه إلى الأعلى، وكأنه يتجاوز بنظره السقف الخشبي المجلد باللون الذهبي نحو خالقه، يدعوه أن يعينه على السفر الطويل من القاهرة حتى صعيد مصر، يلملم أوراقــه، ويخرج من المسجد الذي يحمل اسم الحاكم، يلقي نظرة وداع أخيرة على بوابته ذات القبة، ومئذنته العالية، لقد اعتاد أن يأتي هنا رغم بعد المسافة واختلاف المذهب، فقد وجد رحابة لم يعهدها إلا في جامع السلطان «بيبرس البُنْدُقْدارِي»، أو كما يلقبه العامة بـ«أبي الفتوح»، يقطع الطريق المؤدي إلى الجمالية، يصعد درج الرواق السكني الذي يسكنه في حارة الجوانية، يحمل عدة كتب تعينه على مشقة المشوار، يربطها في بغلة ابتاعها حديثا بكل ما يدخره من المال، يغلق باب الغرفة ويخرج فيوقفه «عبد الرءوف السنباطي» وهو يسأل مندهشا من هيئته: «فيمَ الترحال يا الجيلاني؟!».

ـ «رحلة علم إلى الصعيد.. لا أعلم كم سأغيب لكنني لن أطيل».

ـ «إذن سأحصل على أجرة الغرفة أو ستخليها من أجل أحد الرهبان الذين ينزلون الوكالة».

يتعجب «الجيلاني»، يحاول التملص: «لكن يا سيدي المحاسب، أنا أنوي...».

يقاطعه المحاسب لعلمه بالتبريرات الواهية للطلبة المستأجرين، سمعها مرارا، يقول بشكل حاد لا يقبل النقاش: «يا بني.. هذه الوكالة ليست ملكي أو ملك أهلي، ما أنا سوى أجير، تعلم أنها بالكامل وقْف يمتلكه دير كاترين القابع في صحاري سيناء، ينزلون فيه أحيانا حين يمرون على القاهرة، ويتحصلون على أجرته ومنفعته أغلب الوقت، لذلك لن أستطيع إخبارهم بأن مستأجرها في مهمة لا أعلمَ كم ستدوم».

ينظر «الجيلاني» إلى ما معه من نقود، ستكفيه بالكاد في رحلة الذهاب والإيـاب، يلمح من الرواق القس «سرابيوس» يخرج من غرفته، يجري عليه، يوقفه ليتحدث بصوت خفيض لا يسمعه المحاسب من بعيد، لكن المحاسب يعرف ما يرمي إليه «الجيلاني»، يمر القس بجوار «السنباطي» المحاسب متشفعا بإعطاء مهلة للطالب المتصوف وينصرف، ينظر المحاسب إلى «الجيلاني» قائلا: «شهر واحد لا أكثر.. الأفضل لك أن تسرع».

يركض «الجيلاني» تجاه دابته، ويبدأ مشواره، الطريق من حارة الجوانية في «الجمالية» إلى قرية منية بني خصيب في صعيد مصر ليس أكبر هموم الشاب المتصوف، فمثله الكثيرون الذين اعتادوا السفر خلف شيوخهم، لكن ما يقلقه أنه لن يسافر خلف شيخ صوفي كالمعتاد، سيقابل رجلًا يجل علمه، ويهابه في الوقت نفسه، فلا أصعب من مقابلة عالم دين شهد سقوط الأندلس وارتحل إلى مصر ليكمل فيها علمه ويضع أحد أكبر كتب التفسير في هذا العصر وربما لعصور لن يشهدها «الجيلاني»، فمَن من محبي العلم في جيله لم يقف إجلالا أمام المجهود الموضوع في «الجامع لأحكام

القرآن» للإمام «القرطبي»، وشرح الرجل الموسوعي لكتاب الله، معتمدا على تفسير أسباب النزول والقراءات المختلفة والإعراب وتخريج الأحاديث؟! بل إنه استشهد بأشعار العرب ونبذَ بعض قصص المفسرين التي اعتبرها من الإسرائيليات لضعف نسبها أو لاعتمادها في التفسير على روايات الكتب المقدسة الأخرى، يشهد له «الجيلاني» بكل ذلك، لكنه يقف أمام أمر في كتابه لم يستطع تجاوزه!

يتناول «الجيلاني» من الشوال الصوفي الذي يثقل ظهر الدابة أحد الأجزاء من كتاب الرجل الذي يهاب مقابلته ليتعرف عليه أكثر في الطريق، لم يكن للإمام حلقة علم كبقية الأئمة، أو جلسات يعقدها لتلاميذه، يكتفي بالكتب فقط، لذلك فهو كالطلسم، أرض جديدة لم تطئها خيول الملك المظفر الظاهر بيبرس بعد، لكن ما قرأه «الجيلاني» عن الرجل شدّه، ليس لمناظرته، فالمتصوف الشاب يعرف أن مقدرته العلمية بالنسبة للرجل؛ كمغوليٍّ دخل معركة عين جالوت منفردا أمام جيوش المسلمين! يتردد إن كان الأمر يستحق كل هذا العناء، يراجع نفسه، لكنه يلكز دابته بقدمه مكملا مشوارًا لا يعرف نهايته.

يضرب برد الشتاء في الطريق عضديه، يفركهما، ثم يمرر يده على رقبة دابته، يهون على نفسه وعليها، فيحكي لها ليؤنسها بما يعرفه من رحلات الأولياء في سبيل العلم، يتجاوز ذلك، فالأنبياء أيضا ارتحلوا في سبيل الله، ألم تشهد هذه الأرض رحلة موسى؟! ألم يقف على جبل قريب في العراء ليتلقى شريعة الله لبني إسرائيل؟ أوَلمْ يمكث أربعين يوما منتظرا أن يعود لهم بالوصايا

الإلهية؟! يحمل الألواح على إحدى يديه، ويتكئ بالأخرى على عصاه، تعينه بعد أن ضرب الشيبُ شعره، نازلا إلى حيث ترك قومه، من علو يسمع أصوات الضحكات والغناء، كلما اقترب ازداد الضجيج، وتعاظم الغناء، وبدا من بعيد المشهد الراقص، النيران، يهرول موسى، تخلف عصاه أثرا أعمق في الرمال من قوة ضغطه عليها، حزينا غاضبا.

يلمح «حور» ـ رفيق موسى وهارون في رحلة خروجهما من مصر ـ النبيَّ من بعيد، فيتيقن أنه عاد مملوءا بالغضب، بينما يصعق «موسى» من قومه المتراقصين حول العجل ذي الخوار، يتعجب «حور» من عدم توقف «موسى» أمام أمر الخوار، يعلم أنهم خرجوا من مصر أرض السحر، شاهدوا خلالها عجائب الأمور، حتى «حور» نفسه وقف مدهوشا يوم الزينة أمام ثعبان النبي وهو يتلقف بقية الأفاعي، وقتها عرف أن هناك خيطًا رفيعًا ما بين السحر والمعجزة، خيطًا لا يمكن إدراكه بسهولة، شاهد في تلك الأرض الضفادع والنهر الذي يفيض دمًا والقمل وغيرها، وأيقن أنها معجزات، والآن يتكرر الأمر في هذا العجل، لا يمكن أن يكون هذا سحرا، لا يمكن أن يكون تصميمه به تجويف هوائي يحول التيار إلى صوت خوار، هذا أول ما اختبره «حور» ليتأكد أن الأمر معجزة، من تربى في مصر لا يمكن أن يصدق هذه الألاعيب الصغيرة، فنحن أبناء الحواة!

يحيط «موسى» بعض الراقصين، يحاولون شدّه إلى الدائرة اللاهية حول العجل، يُعرفونه على إلهه الذي نسيه حين صعد الجبل وتركهم، فيثور، يلقي بألواحه فيكسرها، يسأل النبي «حور»

عن مكان أخيه، فيجيبه، يتجه موسى نحو «هارون»، يتبعه «حور» مُسترقًا النظر، يرمي النبي عصاه ويستجمع قواه، فيجر أخاه بيمينه من شعر رأسه، وبيساره من لحيته، يعنفه، يتألم الأخ الأكبر ويقص لـ«موسى» الغاضب أن الخوف كان سببا في صمته على ما رآه، والتزامه بأمر النبي ألا يفارق القوم، ثم يخبره بأن العجل من صنع السامري، يلتفت «موسى» نحو السامري، يتابع «حور» الأمر، يتوقع أن يقتله النبي أو يأمر أحد أتباعه بقتله، أوَلَمْ يفعلها موسى سابقا قبل نبوته ويَقتُل؟ لكن «موسى» لم يجُر السامري من شعره كما فعل مع أخيه، ولم يودِ بحياته، يكتفي بسؤال فقط، يندهش «حور».. بعد كل هذا يكتفي موسى بقوله: «فما خطبك يا سامري؟!».

السامري.. سبب الرحلة والمشقة التي يقطعها «الجيلاني».. يفتح كتاب «القرطبي» بجوار نار استوقدها، ويعيد قراءة المقطع الذي جعل النوم يجافيه..

> «مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب الله، وسنة رسوله، وأما الرقص والتواجد الذي يقوم به الصوفيون، فأول من أحدثه أصحاب السامري، لما اتخذ لهم عجلا له خوار، فهو دين كفار وعباد عجل».

في اليوم التالي.. لم تنهض دابة «الجيلاني»، توعكت وارتمت على الأرض، يخرج الزبد من فمها فيفهم الطالب الذي لا يملك علما بالدواب أن رفيقته محمومة، يجلب لها الماء فترفضه، يبقى بجوارها، يجرها إلى بقعة مشمسة ربما ساعد الضوء والحرارة على شفائها، يجمع بعض الأخشاب، يجد بين ما جمعه عصا غليظة،

فيعز عليه أن يحرقها، سيتخذها رفيقا، يشعل بقية الحطب بالقرب من بطن البغلة، ويُخرج كتابه ليكمل القراءة.

كمتصوف، سمع كثيرا من الشيوخ ينعتونهم بالكفر والإلحاد، لم يهتم، فقد كان على قناعة واقتناع أن في حداثة سنه ميزة في اكتشاف مذاهب الدين، لكن ما استوقفه فيما قاله القرطبي هو التشبيه.. أصحاب السامري!

ألهذه الدرجة؟! لقد كان أصحاب السامري عُبادا للعِجْل، وعدهم موسى بأن ينالهم غضب من ربهم، وجزاؤهم أن يقتلوا أنفسهم، الجزاء الأكبر الذي يستحقونه لعصيانهم. لكن أمام هذا العقاب يتوقف «الجيلاني» بسؤاله الذي أقضَّ مضجعه مدخرا إياه لمقابلة «القرطبي».

تنتفض دابته مرتعشة، فينهض «الجيلاني» مفزوعا، يتمنى المتصوف أن يصادف أحد القرويين أو المارة في هذا الطريق فلا يجد، تلفظ دابته أنفاسها الأخيرة وترحل، بينما يقف الرجل الذي قطع نصف الطريق محتارا مما يتوجب عليه فعله، يمسح على رأس دابته بحنو، يلقي نظرة وداع إلى النار المُحمَرّة بجوارها.

يحمل حقيبته بعد أن أبقى بها كتابين فقط لـ «القرطبي»، ويمسك بعصاه الغليظة، يتوكأ عليها كما كان يفعل موسى في مصر، ويسير على قدميه.. قاصدا الصعيد، مرددا السؤال في ذهنه حتى لا يضيع وسط متاعب الرحلة.

لقد حطم موسى ألواحه، جذب أخاه من لحيته، ووعد قومه بغضب ربهم، وأن كفارتهم قتل النفس.. لام نفسه أولا، عارك من استأمنه على القوم، وعاقب العصاة.. فلماذا إذن ترك السامري يرحل بكل بساطة؟!

(٢)

يخرج «سليم» مترجلا، لا يقدر على العدو، ولا يطمئن للمشي في الوقت ذاته، متعب يرغب في الفرار، سواد الليل الذي يلفظ أنفاسه، وبياض الثلج يزداد سمكا في تلك الساعة الأخيرة، معلنا تساقط المزيد من الحبيبات البيضاء، يستقر كيوم أبيض مرتحل على جسده الملتهب فيطيب.

يسمع على بعد أمتار عن يمينه صوت ارتطام هائل، يلتفت، هل سقطت الغرفة الخشبية المعلقة؟! لا ليست هي، إنه الصندوق المعدني المعلق في الغرفة الخشبية، رغم أن الارتفاع يماثل ثلاثة طوابق إلا أن الثلوج صنعت مهدا قطنيا يمتص ذلك الارتطام مخلفا سحابة بيضاء ضخمة تخفي ما وراءها، يقف للحظة، لو أن أحدًا سقط من هذا الارتفاع لأصبح في عداد الموتى، لكنه يرى شبحين من خلف دقائق الثلج البيضاء المتطايرة، ينهضان في وهن كذلك، لكنه يعرف أن الأشباح لا يصيبها الوهن.. فقط البشر!

* * *

«لقد سقط أحد رجالنا عاكف بك..».

يصدح النداء على جهاز عاكف المحمول، فيتوقف للحظة، يكور قبضته في غضب، يخبط سور الطرقة الداخلية لغرف الرهبان، لطالما كان رجال عاكف بالنسبة له بمثابة زهور بستانه، يستطيعون في ربيعهم تحويل القفر لجنة زاهية الألوان، تعطر رائحتها الأنوف، شباب وحيوية، ينثرون حبوب اللقاح، ثم يشيخون ويذبلون وهم يشاهدون النبتة الأحدث، دورة الحياة المثالية التي ينشدها لكل

رجاله، كان يضيق صدره إذا ما قَطَف أحدهم زهوره أو داسها أثناء ركضه، فمنعها من إكمال دورة الحياة التي يتمناها «عاكف».

يحاول ألا يبدي حزنه، يضغط زر جهازه ويسأل «من؟! كيف؟!».

يأتيه الصوت «محمود فواز يا افندم».

وبينما يشرح الصوت ما حدث، يرفع «عاكف» سبابته بالشهادة وينطقها، يتنهد ثم يقول: «فلتعدوا الهليكوبتر».

❖ ❖ ❖

ينظر «بهي» إلى الأعلى غير مصدق لما حدث، يمد كفيه متحسسا جسده، ينظر إلى شريكته، جرح عرضي في جبهتها، أهذا كل شيء؟! يمسك بسحّاب حقيبته ليطمئن على معدات تصويره الأغلى على قلبه، بينما تجذبه «روث» وهي تركض مشيرة إلى الفتى الواقف على بُعد أمتار منهما، فيلازمها «بهي» في العدو نحو الجهة الشرقية.

لا تركض يا بهي! ألم أخبرك مرارا؟!

لقد أخبرتني بالكثير يا «بافلوس» فخذلتك في كل مرة.. أمرتني ألا أخبر أحدا.. فتباهيت بما أعرف في رحلات سياحية، طلبت مني ألا أعود لسيناء مرة أخرى فانغمست أبحث عمن قتلك، وأمرتني ألا أثق بالآخرين.. وهأنذا أهرب من محاولة قتل بواسطة العديد ممن لا أعرفهم أو حتى أعرف سبب إقدامهم على ذلك.. أقلها سيقتلني الثلج لسبب منصف كما يفعل مع الجميع..

لا تركض يا بهي!

فلتخرج من رأسي يا «بافلوس».. فهذا القطن البارد المتساقط من السماء أقل مشكلاتي!

ما إن يشرعا في الركض حتى يتبينهما «سليم» بدقة، يقبض على نصف المفتاح وقطعة زجاجية حادة ويعدو خلفهما، لن يحتاج لإهدار طاقته أكثر، فلا شيء سيفعلانه في تلك الساحة الصحراوية الواسعة التي تتراص فيها عدة سيارات تخص الدير أو زواره، سيتعبان من العدو، أو سيسقطان صريعين بسببه.

«من هنا».. تقولها «روث» وهي تشير له في اتجاه الساحة، لا يعرف «بهي» إلامَ تشير، تُخرج من جيبها جهازا صغيرا تهشّم قليلا، تضغط أحد أزراره، فلا يستجيب في المرة الأولى، تهزه بعنف وتعاود الكرّة، فتضيء عربة سفاري في الساحة الشرقية، تصرخ فيه: «اركب»، يلحظ «سليم» ذلك، فيهرول ليلحقهما.

يركب «بهي»، السيارة في الداخل على برودتها أدفأ من الخارج، يُخرج بخاخته من الحقيبة، ويضعها في فمه، يزيح بيده كتيبات كثيرة بيئية موضوعة على الرف الأمامي، بينما تحاول «روث» تشغيل السيارة، تنظر في المرآة الأمامية، الرجل المحترق الغامض يدنو من السيارة، يتوتر «بهي»، يمد كفه ليدير معها المفتاح فلا تستجيب السيارة، الرجل الغامض يدنو أكثر، بضعة أمتار إضافية كفيلة بالإمساك بهما، يعلو صوت الموتور أخيرا، فترجع السيارة التي تقودها «روث» مسرعة، يبتعد «سليم» عن العربة الطائشة، تغير «روث» موضع ناقل السرعات إلى الأمام وتنطلق، يركض «سليم» نحو السيارات الواقفة، ينظر إلى الأولى، تبدو عربة دفع رباعي

أخرى، بجوارها سيارة نصف نقل معتادة للبدو، يكسر زجاجها ويدلف إلى مقعد السائق فيها.

تتنفس «روث» الصعداء وهي تنطلق هبوطا عبر طريق وادي الدير، يسقط كتيب آخر على بهي فيمسكه، العديد من شعارات برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ومشروع التنوع البيولوجي المصري، إذن فتلك سيارة المؤسسة التي تنتسب لها الفتاة وتستخدمها في أعمالها البحثية لرصد حيوانات سيناء. يخترق ظلام كابينة السيارة ضوء خلفي قوي، فيلتفت «بهي»، بينما تنظر «روث» في المرآة، فيتبدد هدوؤها الوقتي، إنها سيارة نصف نقل مندفعة خلفهما جاءت من ذات الساحة، نجح «سليم» في أن يجد وسيلة للحاق بهم، كيف لا وهو الذي تربى في الصحراء؟! يعرف تلك السيارات أكثر مما عرف والديه، ويجيد تشغيلها حتى وإن لم يمتلك مفتاحا لها، تضغط «روث» على دواسة الوقود، بينما يذكرها «بهي» بما تتمنى نسيانه.

«روث! في نهاية هذا الطريق يوجد كمين الشرطة الدائم في الميدان».

تنظر له «روث» بجدية، تقول وهي تضع يدها على ناقل سرعات آخر بجوار الأول يستخدم في التنقلات الجبلية: «تشبث».

ثم تضيف وكأنها تذكّره بأهمية ما يملكانه: «ولتمسك بنصف المفتاح جيدا».

يضع «بهي» حزام الأمان، تدير «روث» مقود السيارة نحو اليمين لتخرج عن طريق تلة النبي هارون، يصيح فيها «بهي»: «لا يمكننا الخروج عن الطريق.. ففيها مرتفعات جبلية وكثبان رملية.. قد لا ننجو».

ترد «روث» بمنطق حسابي يغلق باب المناقشة: «قد! الأكيد أننا لو أكملنا الطريق في اتجاه الكمين فلن ننجو».

في الطبقات الأدنى يقل سمك الجليد ويزداد اختلاطه بالتراب، خلف السيارة في حركتها سحابة ممتزجة من كليهما كخليط من مسحوقَي القرفة وجوز الهند ينثرهما طاهٍ ماهر على قطعة حلوى، التفت «بهي» محاولا تبين إن كانت السيارة التي يقودها «سليم» لا تزال خلفهما في الطريق الجبلي، يتبدد سؤاله برؤية الأنوار العالية تضرب مقلتيه.

- «لا يزال خلفنا يا روث».

- «والعمل؟!».

لا يجيب «بهي»، يفكر، بينما تنظر «روث» إلى العلامات الحيوية لسيارتها وكأنها تطمئن على إحدى الحيوانات التي تداويها، مؤشر الحرارة جيد، حالة الموتور جيدة، الوقود! المؤشر يشير إلى امتلاء ربع الخزان فقط، تنظر إلى «بهي» وتصيح ليشاركها أفكاره.

- «والعمل؟!».

بتشكك يقول: «نلقي نصف المفتاح في الصحراء».

- «وهل سيمنعه هذا من قتلنا؟!».

يصمت «بهي» بينما تندفع السيارة مسرعة عبر أحد الكثبان العالية، كموجة ضخمة أمام أحد متزلقي المياه، تحتاج إلى عزم ضخم لاجتيازها وإلا...

تميل السيارة على الكثبان الرملية عاجزة عن اجتيازها، فتعود هابطة مرة أخرى، تماما كما يحدث مع متزلجي المياه، تسير سيارة

الدفع الرباعي في اتجاه سيارة «سليم»، يدرك الأخير من خبرته أن الفتاة حاولت اجتياز موجة الكثبان فلم تفلح لارتفاعها ووجود ثلوج، يضغط دواسة الوقود مسرعا حتى يصطدم بهما، تجحظ عينا «بهي»، بينما تدير «روث» المقود في اللحظات الأخيرة لتتفادى اصطدامًا وشيكًا، وتدور في نصف دائرة حول شجرة أكاسيا وحيدة وسط الصقيع وقساوة الصحراء، تخلق السيارة لنفسها مسافة كافية لتمنح «روث» المحاولة مرة أخرى لاجتياز الكثبان الرملية، تتوقف سيارة «سليم»، يخرج رأسه من الشباك راصدا حركة سيارة الفتاة، ثم يدور خلفها.

تتحرك السيارتان على مسافة متقاربة قاصدتين الموجة الرملية، يشعر «بهي» أنهما لن يفلحا، تصعد سيارة «روث» أولا عبر الكثبان، لكنها تميل، تتزحلق، وكذلك تفعل السيارة نصف النقل، ذلك الميل يجعل الجانب الأمامي من سيارة «سليم» يصطدم ملتصقا بالجانب الخلفي لسيارة الهيئة البيئية فيسيران وكأنهما سيارة واحدة، تهلع «روث»، تعتقد أن السيارتين اشتبكتا، تعلم من خبرتها بالصحراء أن أي تحرك عكسي لمقود السيارة يكفي لانقلابها، وآخر ما تتمناه أن تنقلب وسط الثلج والرمال والعتمة والخواء الذي لا يملؤه إلا قاتل مأجور.

تهبط السيارتان الكثبان فتضغط «روث» على المكابح لتخفف من سرعتها حتى تستطيع التوقف.

«ماذا تفعلين؟!»، يصيح «بهي».

لا تجد «روث» وقتا للشرح، فطرف ماصّ الصدمات الأمامي للسيارة نصف النقل مشتبك بالفعل مع سيارتها، تصل السيارة إلى

الأرض المستوية فتتوقف تماما، ومعها يوقف «سليم» سيارته، ينظر إليهما، يخشى أن يفتح بابه ليتحرك نحوهما فينطلقا بسيارتهما، لو كان معه المسدس الآن، لكنه ليس وقت التمني، تستغل «روث» تلك اللحظات، بهدوء تضع يدها على ناقل السرعات، تضبطه نحو السير الخلفي وتضغط دواسة الوقود بأقصى ما تستطيع، ينفك التشابك المعدني لممتص الصدمات وتدور، فيدور سليم بسيارته ليلاحق السيارة التي تسير عكسيا مبتعدة نحو السهل الفسيح، بهذه الطريقة سيسهل عليه لحقاهما، تنظر «روث» أمامها إلى أنوار السيارة التي تلاحقها وموجة الكثبان التي عجزت عن تجاوزها تبتعد تدريجيا، ثم في حركة خاطفة تغير اتجاه ناقل السرعات وتضغط دواسة الوقود في اتجاه الكثبان، يتوقع «سليم» ذلك، بسحب مكابح اليد فتلف سيارته في مكانها نصف دائرة كاملة، ينطلق خلف سيارة الدفع الرباعي.

دوران الإطارات يخلق المزيد من سحابات الأتربة والثلوج، يتمتم «بهي» بالبسملة وهو يرى الرمال ماردا فاردا ذراعيه لإسقاطهما كما فعل قبل قليل، ينظر إلى «روث»، يتوقع أن توسم صليبا قبل محاولتها، لكنها تبادله النظرة وتضع يديها على المقود وهي تصعد نحو قمة الموجة الترابية و...

تطير السيارة في الهواء.. لقد تجاوزا القمة وهما الآن يستعدان للهبوط بالأرض، يتمنى «بهي» ألا تسقط السيارة بشكل خاطئ فتنفجر الإطارات أو تنكسر الدوائر والأذرع المعدنية التي تحملها فيعلقا في الصحراء، يزداد توتره فيتمتم بالمزيد من البسملة، تسقط السيارة لكن محركها يهدر كعجل خائر يركض نحو مصارعة دون

خوف، تنطلق السيارة، وخلفها سيارة «سليم» التي نجحت هي الأخرى في تجاوز التلة.

تكمل «روث» حتى تظهر أضواء بعيدة، حمراء لنيران البساتين، يدرك «بهي» أنهما بقرب طريق وادي الشيخ الأسفلتي، يشير لـ«روث» فتنطلق وخلفها سيارة «سليم» الذي لا يستسلم، تقطع السيارتان هدوء الطريق الذي لن يقطعه أحد في تلك الساعة أو ذلك المناخ، في مفترق الطرق الوحيد الذي يتواجد فيه أحد مكاتب مركز أبحاث البيئة التابع لجامعة قناة السويس التي تقصدها «روث» كثيرا، تنعطف السيارة الفارَّة يمينا.

«يبدو أنه لن يهدأ حتى يمسك بنا».

تقولها «روث» قبل أن ينطلق صوت إنذار صغير متقطع من السيارة، يطل «بهي» برأسه فيجد العلامة القرمزية.. ماجينتا.. لطالما أحب «بهي» هذا اللوح الطباعي بالتحديد، وكأنه يعطي للصورة حياة بعد لوحة الأشباح الزرقاء «سيان»، تكسب الشخوص في تلك الصورة نضارة الدم، فتغطي البشرة بدرجات الأحمر المختلفة، لكنه كرهها يوم أن أهدى لـ«بافلوس» الصور كما تراها عيناه، فمزق إحداها وترك له خمسًا وثلاثين صورة لا يفهم سبب وجودها معه.

«هل هذا..».

تقاطعه «روث»: «مؤشر الوقود».

ينظر «بهي» إلى السيارة خلفهما، يحاول أن يميز موقعهما، ثم يضع يده بسرعة على المقود ليديره جهة اليسار نحو الصحراء، فتعود السيارة وسط الرمال، يقول: «ليس أمامنا سبل أخرى».

- «للفرار؟!».

- «بل لاستعادة نصف المفتاح الثاني».

تندفع السيارة في «وادي خُضرة» الذي يعرفه «بهي» جيدا وزاره مرارا للتصوير في رحلاته، سهل ممتد في الصحراء، تنعكس الأضواء كاشفة عن صخرة شاهقة ترتكز على قاعدة صغيرة وقمة مفلطحة، تشير لها «روث» وقد تبينت موقعهما بفعل الصخرة الشهيرة: «صخرة المشروم».

ثم تنظر له وتسأله مع تكرار صوت تنبيه الوقود بوتيرة أسرع: «إلى أين سنتجه.. لم يعد الوقود كافيا».

يشير «بهي» إلى مدخل أخدود صخري بدأ في الظهور، فتقول «روث» اسمه كما تسمعه من البدو «كانيون مسكّر»، ثم تضيف باللغة الإنجليزية «sugary canyon».

اللعنة.. هل خدعها أحد الأدلة من البدو بتلك الدعابة من قبل؟!

لو عرفت.. لفزعت.

لذلك كان «بافلوس» دقيقا حريصا، بل وذكيا في استخدام اللغة، يفكر «بهي» فيما قاله له «ثيودلوس» وما يعرفه عن الراهب الميت جيدا، كتب جملة «تُسلّم إلى بهي» باليونانية لأنها كانت وصيته لرفاقه، بذات المنطق حين كتب باللغة العربية على الصورة التي تحمل في أحد طرفيها أيقونة المسيح «مخطط أحمد شفيق» كان يوجه تلك العبارة له فقط، لكن الراهب المقتول في أواخر أيامه كان يصلي بالإنجليزية، هكذا رآه «أبو عمران» وتفاعل معه، يتساءل «بهي» في نفسه عن السبب!

لأنه يعرف عدة لغات؟ لا.. حتى المتقنون للغات عدة قد يستخدمونها في أمور العمل أو الحياة، بل والحب أيضا، نرسل عبارات الغزل بلغة أخرى، ونتحدث مع الحبيبة بها إذا كان الطرفان على معرفة بها، إلا الرب، لم يرَ في حياته شخصا يناجي ربه بلغة غير لغته الأم؛ اللغة التي تربى ونشأ عليها، لم يشغل أحد باله من قبل بالتضرع إلى إلهه مستعرضا الحصيلة اللغوية التي يعلمها جيدا من لغة أخرى، نعود في تلك اللحظة أطفالا، نستخدم الكلمات التي فُطرنا عليها، ليس لأنها الأسهل لكن لأن التضرع منبعه القلب، واللغة الأم هي الأقرب دائما للوجدان.

تتوقف سيارة «روث»، أنوارها مضاءة، يترجلان، يحمل «بهي» حقيبته، من بعيد تظهر أضواء سيارة «سليم»، يهرول «بهي» نحو مدخل الأخدود بجواره «روث»، يسألها أن تضيء هاتفها المحمول ليتمكنا من التحرك بداخل الأخدود، تخرجه من جيبها، مهشمًا بالكامل بفعل السقوط من الدير، لا يعمل، ينطلقان رغم ذلك داخل الممر الضيق، يمسك «بهي» كف «روث» حتى لا تهلع وهو يقول: «شيء آخر أريد أن أخبركِ به».

يضيف وهو يضغط على كفها: «كانيون مسكّر لا يعني الأبيض مثل السُّكّر لأن صخوره بيضاء، مسكّر تعني المغلق.. لا يوجد معبر في الجهة الأخرى من الأخدود».

يضيف «بهي» وهو يلمح سيارة «سليم» توقفت، يخطو داخل التعرجات الصخرية وهو يضيف لرفيقته:

.«It's closed»

(٣)

«كيرياليسون».. «كيرياليسون».. «كيرياليسون».

يعلو صوت رنين الجرس، فيختلط بأنينٍ واهن للكاهن «ثيودلوس» المسجى على سرير في مخدعه، يرفع «أبو عمران» رأس الكاهن حتى يناوله شماسٌ حبة مسكنة، يسقيه شربة ماء، ثم يعيده إلى السرير، يدثره الشماس بغطاءين من الصوف لتدفئة وكيل الدير، يغلق صندوق إسعافات معدني موضوعًا على الطاولة المجاورة للسرير، يهز رأسه إلى الجبالي آذنا له بالانصراف، يتردد «أبو عمران» في التحرك، فيقول الشماس: «لا تقلق، الرب معه، وسيكون بخير»، يلحظ خيط الدم الذي انسال من فخذ الجبالي فيضيف وهو يضع يده على صندوق الإسعافات: «دعني أرى جرحك»، يمط «أبو عمران» شفتيه شاكرا قائلا: «سأتدبر أمري بنفسي.. اسمح لي أن أمر للاطمئنان على مولانا».

يتحرك «أبو عمران»، يعرج من الألم، لكنه لا ينحني كما اعتاد، يخرج ليطل من شرفة الممر العلوية لغرف الكهنة، فيتعالى الصوت:

«كيرياليسون».. «كيرياليسون».. «كيرياليسون».

لقد بدأت مراسم دفن «بافلوس»، المطران «إيوانيكيوس» يتقدم الرهبان، أرديتهم قِطَع من الليل، لا يجاورهم «ثيودلوس» كما اعتادوا، يحملون في أيديهم شموعا، يتراقص لهبها صانعا ظلالا على الجدران الصخرية للدير، عمالقة من الخيال، بينما يبرز تابوت خشبي بإطار فضي مائل للسواد، محمول على أكتاف الشمامسة، مزدان بقطيفة حمراء قانية.. ماجينتا.. لوحة تتدرج فيها درجات

الأحمر والأسود فقط، وكأن المشهد الأخير لـ«بافلوس» على وجه الأرض يأبى أن يكون بدرجات ألوان مغايرة عما دأبت عيناه على رؤيته.

تحمل القطيفة العلوية للتابوت أيقونة للعذراء والمسيح، وتمتلئ بتطريز لصلبان قصيرة متساوية الضلعين، بينما يقف الجبالية بدون رئيسهم في أركان الدير منكسي الرأس في خشوع لهول المشهد، فليس منوطًا بهم الاشتراك في تلك المراسم التي تقتصر على رهبان الدير.

«كيرياليسون».. «كيرياليسون».. «كيرياليسون».

يسير «عاكف بك» بمحاذاة الكهنة، تاركا مسافة مناسبة، يشده «جمعة» من كفه، فيميل «عاكف» على الطفل، الذي يهمس في أذنه بشيء ما عن خصوصية الطقس وأهمية عدم اشتراكهما فيه، لا يعبأ «عاكف»، يضع يده على كتف الطفل أن ينتظر هنا، بينما يمشي بتؤدة مع المشهد المهيب، يلمح ذبول قطرات الشمع الدامعة داخل الأكواب الورقية وأنصاف الزجاجات البلاستيكية المملوءة بالرمال والتي تحتضن داخلها الشموع، يقترب من المطران «إيوانيكيوس» الذي يلحقه كظله المترجم «نستور»، يميل على أذنه قائلا بالإنجليزية بحزم تشوبه الغلظة وكأنه يذكر المطران بما تكبده بسبب رغبة الأخير في إقامة القداس: «استشهد أحد رجالي.. هلا تدعو له أيضا؟!».

لا يعير «إيوانيكيوس» الرجل الخمسيني البدين اهتمامًا، ويمضي في طريقه بجوار الكهنة والشمامسة، فيتوقف «عاكف» عن السير وقد وصله الرد، يتحرك الموكب، يمر من أمامه تابوت

«بافلوس»، يشغل «عاكف» نظره بتأمل تفاصيل التابوت ومنمنماته الدقيقة، لكنه يلحظ أن التابوت لا يتحرك، لقد توقف الموكب، يحرك عينيه إلى مقدمته فيلمح أسقف الدير «إيوانيكيوس» منتظرا، ناظرا من خلف دخان المباخر التي يلوح بها الشمامسة كبندول ساعة، بينما يهرول مترجم المطران «نستور» ناحية «عاكف» حاملا شمعة، يناوله إياها ويقول: «يسألك الأسقف عن اسمه؟!».

«كيرياليسون».. «كيرياليسون».. «كيرياليسون».

باليونانية «كيريه» أو «كيريس» تعني يا رب، أما «إيليسون» فتعني ارحم، يكررونها ٤١ مرة في طريقهم إلى المقابر خارج الدير، على الباب الغربي يقف «أبو عمران» بجوار أحد رجال تأمين البوابة ليتأمل الموكب، يخرج أسقف الدير أولا، ومن خلفه الكهنة، يتأخر «عاكف» قليلا، يلتفت إلى رئيس الجبالية الذي لا يزال يتحامل على جرحه، ينظر له بصرامة ويسأله: «رئيس الجبالية؟ انتظرت أن أقابلك كثيرا». يرد «أبو عمران»: «خدامك يا افندم».

يسأل «عاكف»: «لماذا ساعدتهما؟!»، يشير «أبو عمران» ناحية صدره بيده ويقول: «استشعرت شيئا ها هنا.. ففعلتها».

لا يحمل الرجل البدوي ملمحا عاطفيا يلائم ما قاله، فاندهش «عاكف بك»، يكمل «أبو عمران»: «لقد أخبرني رجالك أنك تريد التحقيق معي».

يشيح «عاكف بك» بيده طاردا الفكرة، فالرجل الذي يبدأ حديثه بالإشارة إلى قلبه أو أنه استشعر في فعلته الصواب لن يحصل منه على معلومة مفيدة، ولن يجني من التحقيق سوى ارتفاع ضغط دمه أو تصلب شرايينه جراء الإجابات الروحية

التي قد يثرثر بها الرجل، يسأل «عاكف»: «هل انتشر رجالك في الأماكن التي حددتها لهم؟».

يهز «أبو عمران» رأسه بالإيجاب ويضيف بغير اقتناع: «وقللت أعدادهم كما أمرت.. عشرة رجال من الجبالية حتى تضمن السيطرة على الدير.. وإذا ما أضفنا لهم شخصي وجمعة نصبح اثنا عشر بدويا داخل أسوار الدير».

ينظر «عاكف» إلى جرح البدوي النازف، ويقول: «فلتذهب لمداواة إصابتك».

ينظر «أبو عمران» إلى موكب الشموع المبتعد وسط البستان في الطريق إلى المدافن ويقول: «سأنتظر انتهاء الصلاة».

«كيرياليسون».. «كيرياليسون».. «كيرياليسون».

يهرول «عاكف» لاحقا بالموكب، بينما ترتفع الطائرة الهليكوبتر تدريجيا حاملة جثة رَجُله الذي قتل على يد «سليم»، يقترب أحد رجال «عاكف» ويخبره بذلك، يسأله عن أوامره، فيشير له عاكف أن يتمركز في موقعه، وأن يخبره حين تعود الهليكوبتر.

يكمل طريقه إلى المدافن، يقف في نهاية الصف بجوار «نستور» مترجم الأسقف، يهمس الرجل الذي يتحدث عربية ركيكة: «لحسن الحظ كان أحد المقابر فارغا، نقل بافلوس بمساعدة الكاهن فارياسوس ـ المسئول عن «المعضمة» ـ العظامَ والجمجمة منه قبل يومين إلى المعضمة، معجزات! وكأنه يعلم بدنو وقته».

بلا مشاعر يجيب «عاكف» بلهجة تقريرية: «بعد أن تنتهي المراسم، أريد أن أنفرد بالأسقف».

«كيرياليسون».. «كيرياليسون».. «كيرياليسون».

تتناقص الشموع التي تضيء المدفن تدريجيا في طريقها للخروج والعودة إلى الدير، يتحدث «عاكف» في جهازه مخبرا رجاله أن المراسم انتهت والكهنة في طريقهم إلى الدير مرة أخرى، وأن يبقوا أعينهم مفتوحة لتأمينهم، بينما يبدد الظلامَ ضوءٌ ضعيف لشمعة واحدة يحملها «نستور» بجوار الأسقف «إيوانيكيوس»، تنعكس على نظراته الحادة ولحيته الطويلة المسترسلة وصليبه الذهبي الكبير الذي يحمله مع عصاه الأسقفية المرصعة بالأحجار الكريمة. لا يتفوه «إيوانيكيوس» بكلمة، يطيل الصمت، منتظرا من الرجل الخمسيني أن يلقي بما لديه أولا، يحاول «عاكف بك» أن يتأكد من ضبط نفسه وهو يخاطب أكبر سلطة دينية في الدير، بل وفي سيناء بأكملها، لكنه لم يستطع، يعلو صوته: «لقد قتل مطران في هذا الدير، ومطران آخر يرقد في سريره بعد أن تعرض لاعتداء..». يصمت، يبتلع ريقه، يتحشرج صوته في مرارة: «واستشهد أحد رجالي.. ما الذي تحتاجه أكثر لتخبرني بما تخفونه..».

يقترب «إيوانيكيوسِ» بذات الصرامة من «عاكف» يضع يده على كتفه، يبدوان كخيالي ظِل متصارعين في مسرحية بلا جمهور، منعكسين على شواهد المقابر التي لا تحمل أسماء، يتمتم المطران باليونانية، فيخرج صوت مترجمه «نستور»: «يقول المطران إن بالقرآن آية تتحدث أن الشهداء أحياء.. فلا تحزن وتقبَّل أسفه وعزاءه».

ينظر «إيوانيكيوس» في عينَي «عاكف» ويقول: «إن أردت إلغاء القداس وإغلاق الدير نهائيا كإجراء احترازي.. فلن أعارضك..

فقط أبلغني بوقت كافٍ يسمح بالاعتذار للضيوف، وبقصة مناسبة نقولها معًا».

يكمل طريقه نحو بوابة الخروج من المدفن، ويقول دون أن يلتفت إلى «عاكف» ساحبا في ذيله مترجمه: «القرار لك الآن».

يخرجان ومعهما بصيص النور الهزيل، ليتركا «عاكف» وسط ظلام مدقع وأفكار مشوشة.

(٤)

لم تجرؤ نزعة «فيّاض» الهازئة الساخرة على الظهور في حضرة المؤرخ المتغطرس سوى في مكالمتهما الأولى، طوال علاقتهما الممتدة لسنوات كصديقَي مراسلة أو مهاتفة بالأدق لم يلتقيا، قبل ثلاث سنوات نجح «فيّاض» في الوصول إلى منصبه، سافر لأداء فريضة العمرة شاكرا الله على نعمته، هذا ما قاله للجميع، ثم عاد ينسج خيوطه في المنطقة التي يعلمها جيدا، التعامل مع سيناء يحتاج إلى أخطبوط؛ أذرع ممتدة وقدرة على التخفي وثلاثة قلوب تُمنح كل منها لفئة من المتنازعين على الأرض، صعوبة البشر وتعقيداتهم تفوق صخور الجبال الراسية، إلا أن أصعبها على الإطلاق كان رهبان الدير، بانغلاقهم المربك، وعزلتهم التي إذا ما اقتربت منها لاصطدمت باتهامات الاضطهاد الديني، وعلاج ذلك هو الانغماس في البيروقراطية المصرية والقانون الذي حتما سيضيق الخناق عليهم، صراع المسئول والمواطن محسوم دائما بتلك القدرة الرهيبة على إيجاد نص قانوني ميت ليبث فيه الحياة

مرة أخرى وينفخ فيه الروح فيخور كما خار العجل الذهبي، وقد كان «فيّاض» عليما.

يقف موظف محكمة على باب الدير طالبا مقابلة المطران «إيوانيكيوس»، ينطق الموظف اسم المطران اليوناني بصورة خاطئة، يرفض أن يبوح للبدوي الذي يحرس الباب بالأمر، يأتي المطران ومعه «نستور» على مهل، يوقع باستلام الخطاب الرسمي، يفتحه «نستور» ليجده جلسة محكمة لإزالة كنائس دير سانت كاترين، توضح عريضةُ الدعوى، التي يختصم فيها رئيسُ جهاز مدينة سانت كاترين بصفته رهبانَ الدير، الأسبابَ بأن الكهنة اليونانيين استولوا على أراضٍ لا يملكون سندها القانوني أكبر من مساحة الدير على مدار سنوات، أقاموا عليها عدة كنائس صغيرة مجاورة، بل إنهم زيفوا معالم المنطقة وأسماءها ليطمسوا هويتها، هكذا فند اتهامه، فأسموا الجبل باسم قديستهم، ونقلوا الشجرة المحترقة من موقعها، وأسموا البئر باسم موسى وادعوا في كتيب الدير أنه ذات البئر التي سقى منه النبي بنات شعيب في مدين! للإيهام بأن كل شبر داخل حدود هذا الحصن مبارك، ينتهي «نستور» من الترجمة للمطران، يسأله عما يفعلانه، فيشير «إيوانيكيوس» للمترجم ألا يهتم.

في ثلاث سنوات فقط نجح «فيّاض» في إكمال قضيته، ساعده بعض البدو الذين اختصموا الدير في أمور مشابهة، كان يعلم أن علاج عزلتهم ووحدتهم هو تسليط الضوء على وجوههم، فنجح، يستصدر القرار تلو الآخر بهدم الكنائس وإجلائها، تتردد السلطات التنفيذية في تنفيذ القرار القضائي، فيعقد مؤتمر في

القاهرة لمناقشة قضية الدير، يختار له مكانا مميزا ليتم تناقل وقائعه، فلا يجد أبرز من نقابة الصحفيين، الضوء الكافي والفضول الإنساني والبحث عن عناوين شائكة، باختصار.. المزيد من اللهب الأحمر الذي سيحرقهم بالتأكيد، هناك - في المؤتمر - شاهده المؤرخ لأول مرة خلال تقرير تلفزيوني قصير عبر إحدى القنوات الإخبارية العربية فبحث عن رقم هاتفه واتصل به للمرة الأولى، حين رد «فيّاض» وسأل عن هوية المتصل، قال المؤرخ: «يمكنك أن تعتبرني مُعجبًا».

حينها أطلق «فيّاض» دعابته الوحيدة في علاقتهما التي استمرت تلك السنوات: «لم أكن أعلم أنني سأنافس نانسي عجرم يومًا ما».

يتغير صوت المتصل ويقول بجدية تجبر «فيّاض» على الإصغاء باهتمام: «اسمع! أنت لا تعرفني، ولا تعرف ما أقدر أن أساعدك به في مسعاك..».

- «كُلي آذان مصغية..».

- «أستطيع أن أمدك بالمعلومات.. وبالأموال.. الكثير من الأموال».

- «وما المقابل؟!».

- «أبحث عن شيء نفيس-لا مثيل له داخل الدير».

- «صليب أثري أم كتاب نادر؟!».

- «شيء لا يقدر بثمن.. إنك مسئول عن مدينة كاترين بالفعل، عملت بها طوال حياتك وتدرجت في كل درجاتها الإدارية والوظيفية فحتما سمعت عما أبحث عنه!».

- «أنت تقصد الخبيئة؟!».

يندهش المؤرخ، إذن فمسعاهما واحد، كلاهما يعرف بأمر الخبيئة، يصمت قليلا ثم يقول لـ«فيّاض»: «سأساعدك برجالي وعيوني الخفية وأموالي، ستجدني أتحرك في الظلال، لنجدها معًا.. وحينها سأشتريها منك».

- «تشتريها!».

- «بالطبع.. ما رأيك في خمسة ملايين دولار؟».

لم يصادف «فيّاض» رقمًا كهذا من قبل، بالإضافة إلى أن الرجل الذي يتصل به من بلد آخر يبدو ضليعا، لا يطيل «فيّاض» التفكير كثيرا، فما بين يدَي الغريب المتصل عرض لا يمكن رفضه، يوافق، يسأل الغريب عن اسمه ليدونه على هاتفه، فيجيبه المؤرخ: «سجله كما يحلو لك»، هكذا أصبح رمزا.

يعطيه «#» التعليمات، يخبره أنه سيرسل له خط محمول دوليًا للسرية، وسيتابعه بالمعلومات، ينقل له عربونا من الأموال في حسابه لضمان الجدية، أمام تلك الإجراءات يتأكد «فيّاض» من الشخص المجهول الذي يتعامل معه، ليس فخا أو طعما، لا يبدو كرجل أمن من الداخل مدسوس عليه لمعرفة نزاهته، خاصة وأن المؤرخ الغريب بادر بعرض مساعداته واقتراحاته بعد ذلك، يقول المؤرخ في أحد اتصالاته للرجل الذي امتلك جرأة رفع دعاوى ضد الدير: «إذا لم نستطع هدم الكنائس أو دخولها بالعمال لتنفيذ الحكم القضائي، والبحث على مهل عن الخبيئة.. في ذهني طريقة أخرى يا فيّاض».

- «ما هي؟!».

ـ «أنت تعلم أن للدير استراحة أو فندقًا يؤجرها أحيانا للراغبين في المبيت، وكافتيريا داخل أسوار الدير، بالإضافة لبازار لبيع التحف المقلدة والكتب لمرتادي الجبل».

ـ «وماذا في ذلك؟».

ـ «هل تخضع تلك المنشآت للضرائب؟!».

يا له من داهية! بيروقراطي أيضا، بل إنه من بلاد أسست لجذور البيروقراطية الضاربة في البلاد بهيئاتها ومؤسساتها، يمكن للدولة التغاضي عن الكثير إلا جباية الأموال من المواطنين، لو نجح في استصدار قرار أو حكم يتيح لهم التفتيش الضريبي، ضبطية لا يمكن للرهبان معارضتها، لا تحتاج لهدم الكنائس وإشعال فتنة، يمكن لرجاله وقتها الدخول بحرية للتفتيش تحت دعوى البحث عن البضائع والمخازن والمبيعات غير المدونة في فواتير تحمل سجلا تجاريا.

يبدأ «فيّاض» في العمل على المخطط الجديد لكن حادثا عرضيا يُعطل تنفيذه، مجموعة من بدو الترابين يقتحمون بستان الدير لأنهم لم يحصلوا على نصيبهم من زراعة الزيتون في أرض الدير، يحتجزون راهبين، يتدخل «فيّاض»، لا يريد تعقيدا في الدير الآن، آخر ما يتمناه أن يرى رجال الأمن يطوقون الدير لحراسته بسبب ذلك الحادث، أو أن يستخدم «الجبالية» أسلحتهم فتنشأ حرب قبلية تجبر الرهبان على إغلاق ديرهم والاختباء بداخله، يتوسط بحكم منصبه بين الرهبان والترابين، يمد أذرعه الأخطبوطية لإعادة المشهد كما كان، مائة وخمسون ألفًا كانت كافية لإتمام الصلح.

بسبب ذلك، كان اسم «عبد العزيز فيّاض» ضمن المدعوين بعد

ساعات إلى قداس سانت كاترين كما يقتضي البروتوكول وآداب الدير، يرن هاتف «فياض» حاملا رمز «#» للمرة الثانية في ذات الليلة وهو لم يعتد ذلك، ماذا حدث بعد قتل بافلوس يجعله يتصل مرتين؟! يوبخ المؤرخ فياض بصلف موروث في تلك الساعة من الفجر، ويسأله: «لماذا لم تخبرني أن بافلوس كان يحمل ورقة تشير إلى أحمد شفيق أثناء موته؟!».

يندهش «فيّاض» من الأمر أكثر من قدرة الرجل على معرفة تلك المعلومات، يقول ببساطة: «لأنني لا أعلم»، يأمره المؤرخ بصوت أجش: «أريد صورة من البحث الجنائي؟!».

ـ «ولماذا.. لن تفيدنا في شيء.. أنت تشتري الأمور النفيسة».

يقاطعه المؤرخ: «ومن قال لك إن تلك الصورة ليست قيمة، لها مشتريها كأي تحفة في مزاد مقتنيات».

يغلق «فياض» بقناعه واحدة، لقد جُن الرجل، يشهد «فيّاض» أنه ساعده كثيرا، أخبره سابقا أنه عرف بطريقته أن المسئول عن الخبيئة في الدير هو «بافلوس»، لذلك كانت خطة «فيّاض» هي دخول أحد رجاله إلى مكتبة الوثائق ليلة القداس، استغل رئيس المدينة بيروقراطيته، ففتح أرفف الأدراج المعدنية الصدئة التي لم يفكر موظفوه الكسالى والبُدن وعشاق الروتين والإفطار على المكاتب الألمونيوم، وجد في بعضها رسومات وخرائط قديمة للدير، ذلك الحصن المشيد، الذي لا يمكن اقتحام غرفه إلا بمفاتيحها أو من خلال ما وجده في تلك الخريطة التي تآكلت بفعل الزمن والفئران، أنابيب التدفئة الروسية التي تمتد أسفل الأرضيات وداخل الحوائط لتنفث هواءها الساخن.

مَن أنسب من الفتى الذي يعشق النيران والذي يستغله لإنهاء بعض الأعمال الظلامية، يخبر «سليم» بخطته، المطلوب منه دخول المكتبة، يبحث عن الكنز، يسرقه، فينشغل الرهبان عن السرقة بالقداس، أو على أقل تقدير يسرق الإنجيل السرياني الأقدم، فتكون المفاوضات لمبادلته بالخبيئة، ولنرَ أيهما أقيم لدى الرهبان: الخبيئة أم إنجيلهم؟!

يَعِدُ «فيّاض» الرجل المتغطرس بالتنفيذ، يغلق الخط، يدرك أن الساعة حانت ليتخلى عنه، وأن يؤمن نفسه من شروره، خاصة وأنه لم يفكر يوما في بيع الخبيئة له، فأهدافهما مختلفة، كما كانت دائما، فمثل تلك القوة الهائلة للخبيئة يجب ألا تقع في يد كائن من كان، بل يجب أن تُدمر، يترحم على عباس حلمي الأول، فقد كان ينوي فعلها، ثم يُجري اتصالا آخر ويقول دون أن ينتظر رد:

«السلام عليكم ورحمة الله.. سأنفذ المخطط الليلة وسأغادر البلاد.. أريد أن يتم تحويل المكافأة يا شيخ على حسابي.. خمسة ملايين دولار ليست بكثيرة عليكم.. كما أنني سأنجح بعد تلك السنين فيما فشل فيه والِ علوي.. سأنتظر رد معاليكم..».

لا يطول انتظار «فيّاض»، تأتيه الموافقة، فيعقب للمتصل: «بعد ساعات سأتحقق من تحويل الأموال على حسابي.. وتذكرتَي طيران على بريدي الإلكتروني لي ولزوجتي.. نعم يا شيخ.. لأؤدي فريضة العمرة».

(٥)

«اهرب من مصر ولا تفكر بالرجوع إليها.. لأن القلوب التي حنّت إليها لم تتمكن من مشاهدة أرض اللاهوي».

يتناول «فيّاض» ملابسه وحذاءه من الدولاب، يتجه إلى غرفة المعيشة الصغيرة التي تمتلئ ببراويز تحتوي آيات قرآنية، وتلفازًا متوسطًا مسطحًا وضعت فوقه مشغولات بدوية ملونة زاهية تغطي حوافه وتمنع من رؤيته بالكامل إذا ما أراد المشاهد، يخلع ملابس نومه ويبدأ في ارتداء ملابسه حتى لا يزعج زوجته التي تقاوم الصحيان، يصب «فياض» كوبا من الشاي الممزوج بالحبق، يبحث عن عازل خشبي يضع عليه الكوب بدلا من وضعه على زجاج السفرة مباشرة، يسحب كتابا صغير الحجم بغلاف أبيض جعل أحد أعوانه يشتريه له من بازار الدير نظير سبعة دولارات ليرفقه كدليل في قضية الضرائب التي حرّكها ضد الدير، ينظر إلى عنوان الكتاب الذي لم يقرأه قط: «سُلم السماء للقديس يوحنا السّلمي»، ويسخر في هدوء أن ذلك هو أغلى حامل أكواب شاي اشتراه في حياته.

يشرع في ارتداء قميصه ريثما تقل حرارة مشروبه، تخرج زوجته من الغرفة يجافيها النعاس بعد مكالماته الليلية، تسأله عن وجهته في تلك الساعة المبكرة التي لم تشرق شمسها بعد، فيخبرها أنه في حاجة لمتابعة أمر ما يخص عمله، يجلس ليرتدي حذاءه ويقول لها: سأرسل لكِ سائقا خلال اليوم لتتحرك نحو شرم الشيخ، تتبرم السيدة التي لا تعشق المفاجآت من زوجها الذي دأب على إخفاء

خططه عنها، تسأله: «هل سنسافر؟!»، يجيبها بهدوء: «إن سافرنا فسأخبركِ».

تسأل السيدة بنبرة حانقة: «متى؟!».

ـ «بعد الظهر».

ـ «لا أسأل عن السائق، بل عن موعد إخباري باحتمالية سفرنا».

ـ «في حينه يا عزيزتي».

تسأله في محبة وقلق: «هل نحن في ورطة ما؟!».

يتركها ليرتدي فردة الحذاء الثانية، يرن أحد هواتفه المحمولة، يمد يده له، تنظر له الزوجة، لطالما أحب العمل أكثر، تتمنى لو يستريح قليلا، أو أن تقصيه قيادات ما بعد الثورة كما حدث مع غيره فتقضي معه الوقت القليل المتبقي لهما معا، تتنهد بينما يرد «فياض»، فيأتيه صوت أحد البدو: «هناك رسالة شفرة مورس يتم بثها منذ أكثر من ساعة من نفس سيارة الإسعاف».

بقلق يسأل «فيّاض»: «ماذا تقول؟!».



«إن الذين يسمعون بالكنز المدفون يفتشون عنه، وإن وجدوه بعد تعب كثير حفظوه بحرص».

يدخل «عاكف» الدير من بوابته الشمالية، يشير إلى دليله الصغير جمعة الذي ينتظره بجوار البوابة أن يتبعه، ينحني الرجل الخمسيني برأسه ليمر من المدخل الصغير، ترتعش إضاءة حمراء على اليسار في الداخل، مصدرها البازار الذي حطمه «سليم»، قبل خروجه،

بخطو «عاكف» نحو تلك الغرفة الصغيرة، شاردا، يفكر في القرار الأصوب، الحل المثالي الذي لن يلومه عليه أحد هو إلغاء القداس وفرض سياج أمني حول المكان، وكيف يلومه أحد وهو الحل المتبع في كل الأمور من كبيرها إلى صغيرها، لا أحد يجيد إدارة تقاطعات هذه البلاد، ألا ترى المظاهرات في القاهرة تسد الشوارع منذ يناير، لم يُدرّب الشعب على كيفية استخدام إشارات المرور جيدا، التوقف من أجل حركة الغير سيتيح له التحرك بسهولة بعده إن انتظر قليلا، حتى أمام منزل عاكف في منطقة مدينة نصر، تلاشت تقاطعات الطرق تدريجيا، يسميها مدينة الـ U-turns، لا السائقون يمتلكون الدراية ولا عسكري المرور يمتلك الحزم.

يخطو داخل المكتبة، يدوس الكتب والمراجع التي سقطت بقدمه، يطبع حذاؤه علامته على كتاب صغير بغلاف أبيض، ينظر له «عاكف» فيجد عنوانه بالعربية لكن الإضاءة تمنعه من رؤيته بوضوح، يسأله «جمعة»: «عمَّ تبحث يا سيدي؟!».

يتمتم «عاكف»: «لا شيء.. فلا أحد هنا يهوى الحديث».

يقول الفتى بعفوية: «ولن تجد أحدا.. سيخافون المطران إيوانيكيوس».

ـ «لم؟!».

ـ «لأنه كان على خلاف كبير مع أبونا بافلوس.. منذ ثلاث أو أربع سنوات ومن وقتها لا يتحدثان رغم أنهما يعيشان في ذات الدير».

تتسع عينا «عاكف» في اهتمام ويسأل: «وفيمَ كان الخلاف؟!».

يقول الطفل البدوي: «لا أعرف، لم أحضر الواقعة التي شهدها

جدران الدير وتحاكى عنها البعض، كانت في غرفه المغلقة، لكن انفعال بافلوس وصوته المرتفع على خلاف بقية الرهبان كان مسموعا لدى الجبالية الذين يخدمون بالدير، وبالطبع امتنع الجميع عن الاقتراب من الغرفة التي شهدت خلافهما خشية من الرهبان».

- «ربما كان خلافا عاديا».

بثقة يقول «جمعة»: «لا.. فالرهبان لا يتخاصمون.. ولا ينفعلون.. إنها القواعد»، ثم يشير إلى الكتاب الذي يدوسه «عاكف» ويكمل: «هكذا يقول سلم الفضائل الثلاثين للرهبنة».



«المكر هو تغيير الاستقامة، تفكير ضال، تدبير كاذب، قَسَم مهلك، أقوال معقدة، قلب عميق الهوّة، لجة الغش، كذب مصطنع، غرور طبيعي، معاند التواضع، مراءاة في التوبة، تقى مزيف وحياة شيطانية».

يدلف «نستور» غرفة الكاهن «ثيودلوس» في تردد، فيسأله الأخير الذي استلقى من التعب والصفعة التي تلقاها من «سليم»: «هل رآك أحد؟!».

يهز «نستور» قلقا رأسه بالنفي وهو يتلفت وينظر إلى الباب الذي أوصده فأحكم الفعل، يقول «ثيودلوس» بهدوء وتجهم ليسا في طبعه: «إذا سألك أحد عني في القداس فأخبرهم بأنني متعب مما حدث».

يجيب «نستور» بالإيجاب، مصدومًا مما وجد عليه «ثيودلوس»

الليلة، وما طلبه منه الراهب، كان «نستور» يعتبر «ثيودلوس» المثال الحي للفضائل التي ذكرها يوحنا السلمي في كتابه، يعتقد بتفاخر أن ذلك اليوناني العجوز الهادئ الصامت الوديع قد صعد السلم بمفرده وجلس على عتبة السماء متدليا، يحرك ساقيه مع الهواء كالأطفال الذين يزورون الحدائق، ناظرا من سمائه إلى بقية رهبان الدير الذين يحاولون إدراك معراجه.

لكن طلب الليلة أدهش «نستور»، فاجأه، كسر تلك الصورة عن الكاهن الذي عهده واقترب منه بحكم معرفته لليونانية وبعض العربية، ليس بنفس درجة إتقان «بافلوس» بالطبع، فالأخير كان علّامة، سيبويه يوناني، إلا أن «نستور» أحب محاولة «ثيودلوس» التحدث بالعربية، يكفي أنه الراهب الوحيد الآن بعد موت «بافلوس» الذي يجيدها قليلا، فالبدو يحبون مَن يجيد لغتهم.

يُخرج «نستور» من حقيبة جلدية صغيرة ما يخفيه، ويناوله للراهب، جهازًا أسود صغيرًا، يستخدم في الإرسال والاستقبال، يخرج منه صوت بشري يصيح بالعربية.

«عاكف بك! ابدأ الإشارة».

يقول «نستور» ليؤكد أن تعليمات «ثيودلوس» نُفذت بحذافيرها: «كما أمرت.. جهاز إرسال الجندي الذي قُتل الليلة من رجال عاكف، أخذته دون أن يشاهدني أحد».



«ولاحظت مشهدا يرثى له عند أناس غضوبين، كان يحصل لهم خلسة من جرى غرورهم، فكانوا يغضبون بسبب انهزامهم للغضب، فتعجبت إذ شاهدتهم يعاقبون السقطة الأولى بالثانية، وفيما كنت ألاحظهم ينتقمون من خطيئة بارتكابهم خطيئة أخرى».

لا تغضب مما حدث مولانا بافلوس؟

أعلم أن نيتك حسنة يا بهي.. لكنني سأحرق الصور الحمراء كما أخبرتك.

احرقها.. لكنك مازلت غاضبا مولانا.

غضبت من غضبي الأول.

...

لا تضحك يا بهي.. أشعر أنني لن أجتاز سلم الفضائل إلى المجد الأعلى.

وما هو سلم الفضائل يا مولانا؟

ألم تشاهد تلك اللوحة التي تحتوي كتابات عربية ويونانية؟! السلم المائل الذي يصعده الرهبان إلى السماء، بعضهم يتساقط إلى الأسفل في النيران، حيث تتلقفه التنانين، الكتاب الذي وضعه القديس السينائي يوحنا السلمي، الذي شاهدت أيقونته وهو يصلي بحرارة لكي ينال التميز بينما كان النبي موسى بجواره.

هل سيدنا موسى في تلك اللوحة أيضا.

ها هو ذا.. في الركن الأيسر.. يتوسل الله من أجل قديس الثلاثين درجة إلى السماء، عدد السنوات التي قضاها المسيح نبيا،

كل درجة تتجرد فيها من صفة تجذبك إلى الأسفل.. وأنا أسقط دائما من الدرجة الثامنة.

الغضب؟!

حاولت لكنني لم أفلح.

ألن تخبرني لماذا غضبت من الصور مولانا بافلوس؟

لا.

دعنا من ذلك.. ألن تخبرني لماذا غضبت من المطران إيوانيكيوس واحتد النقاش بينكما قبل سفرك الغامض إلى أمريكا؟

لا يا بهي.

لماذا يا مولانا؟!

حتى لا أسقط من الدرجة الثانية عشرة إذا وصلت لها.. الكذب.

❖ ❖ ❖

«عندما نتنقى كليا من الكذب يمكننا عندئذ أن نلجأ إليه، ولكن بخوف وعند الضرورة القصوى فقط».

يسير «بهي» في منتصف جولته السياحية التي يقودها داخل الدير بصحبة سبعة من عشاق التصوير، يقفون على السلم المؤدي إلى المتحف الخاص بالدير حتى يلتقطوا صورة معتادة وشهيرة لبرجَي الكنيسة والمسجد، هذا العناق المرغوب بين الأديان، قد يحالفهم الحظ في الشتاء فتثمر شجرة البرتقال التي تظلل السلم فيغدو الغصن الأخضر الوافر بين البرجين طفلا لهذا التزاوج ودليلا أكبر للسلام، تلك الصور التي تحظى بإعجاب الآلاف

عبر مواقع التواصل الاجتماعي، ينتقي «بهي» هذا المكان تحديدا ليشرح لمتابعيه بطريقة استعراضية منبعها المفاجأة التي يتعمد إعدادها لهم: «ليست الصور كالحقائق، الصور هي الكذبة التي نحاول تصديرها للآخرين، تماما كما قمتم الآن بتصوير البرجين، هذا المسجد شاهد على كذبة كبيرة داخل الدير لدرء اعتداء أحد الحكام المسلمين، فقد كانت في الأصل كنيسة صغيرة حولوها على عجَل إلى مسجد، ولذلك أيضا بُنيت مئذنته بعيدا على المبنى وليس فوقه كالمعتاد».

تتبدل ملامح فتاة محجبة بين المجموعة فتقول بنبرة عدائية: «ما لي أراك متحاملا على الدين في كلامك وكأنك تحاول أن تشوه صورته، تماما كما فعلت بداخل المتحف حين أخبرتنا عن العهدة المحمدية؟! لماذا تحاول أن تبين أن كل تاريخنا أكذوبة كبيرة؟!».

يعلو صوت الفتاة، فيلاحظها أحد العربان الجبالية الذي لم يرتح لكثرة تردد هذا الفتى وتقربه من «بافلوس» خلال السنوات الأخيرة، ينضم إلى دائرة الخلاف دون أن يدعوه أحد، يتطفل فيسأل: «ماذا هناك يا سيدتي؟!».

تشير الفتاة وكأنها تبحث عن قاضٍ منصف بنفس الحدة: «هذا المصور الذي اكتسب شهرة عبر وسائل التواصل، والذي اشتركنا لنرى زاوية مختلفة للدير كما يقول خلال إعلانه أو عبر أحاديث من سبق واشترك في رحلاته، زاويته المختلفة هي هدم الأديان أو الافتراء عليها».

يقول «بهي» بحزم كارها أن يضعه أحد في هذا الموقف: «ما أقوله مجموعة من الحقائق الموثقة التي قد يجهلها هذا البدوي».

يثور البدوي ويهدد أن ينقل الأمر برمته للكاهن «بافلوس»، ثم يقول بشموخ: «أنا أعرف عن هذا الدير كل شيء، فأجدادي ولدوا بالقرب منه».

يغضب «بهي» من هذا التحدي الأجوف، يقلق على صورته التي بناها أمام جماعته، فيقول بخبث: «إذن لماذا سُمي الدير بهذا الاسم؟!».

لم يفطن الرجل إلى الفخ الذي نصبه له المصور بسهولة سؤاله، من كثرة ما ردد الأدلةُ القصة ألفوها، الدير الذي كان يحمل اسم «دير طور سيناء» قائم على حلم، رؤية ملائكية لأحد الرهبان، بسبب تلك الرؤية تغيرت معالم المنطقة حتى بالنسبة للرحالة والباحثين القدامى في الكتب المقدسة عن الجغرافيا الدينية التي دارت فيها الأحداث الكبرى، يبذل المستشرقون مجهودا أكبر للإلمام بالمنطقة، يسألون الجبالية، وهل سيعينهم من اشترك في الأمر؟ الجيل الأول من أمناء السر شهدوا معالم طمس معالم المنطقة وتحويلها إلى شيء آخر، لم يتغير اسم الدير فقط، بل الجبل والمدينة، جميعها تحمل الآن اسم كاترين، أما ما تبقى فحمل أسماء الشهداء والقديسين، يتهم بعض الرحالة في كتاباتهم أن ما حدث كان متعمدا لإخفاء آثار الأقدام، بينما يكتفي الرهبان بتلك الحكاية النورانية، الحلم..

كاترين أو كاترينة الفتاة التي دخلت المسيحية في الإسكندرية، وقت الاضطهاد الديني والذي بلغ أوجه وقت حكم مكسيميانوس، فأمر الملك بتعذيبها وربطها على عجلة حربية وقطع رأسها، في ذات الموقع الذي تقع فيه كنيسة سانت كاترين بالإسكندرية الآن،

حتى إن الرخام الذي يملأ كنيستها هناك من العمود الذي استشهدت بجواره.

بعد ستة قرون كان الحلم؛ حلم راهب سينائي شاهد في منامه الملائكة يحملون جسد القديسة كاترينة ويضعونه على قمة قريبة من جبل سيناء، حين أفاق قرر صعود الجبل بصحبة الرهبان، فوجدوا الرفات، وأنزلوه، ثم تعاظمت شهرة الرفات في علاج الحُجاج ومداواة آلامهم، فتغير اسم الدير تدريجيا، تبعه الجبل والمدينة، وتم حفظ الرأس والذراع وإصبع القدم في تابوتين من الذهب يعلو أحدهما غطاء به صورة بديعة لكاترينة وحولها كتابة باللغة الروسية، البلد التي أهدت الصندوق للدير عام ١٧١٣.

حين انتهى البدوي من إفراغ ما في جعبته، مرددا إياه كببغاء نشيط، لم يشغل «بهي» نفسه بتفنيد ما ذكره بأن كلمة كاترينا ليست اسم القديسة، كما أنه لم يكن اسما منتشرا في الإسكندرية، وإنما لقب إغريقي يعني الطاهرة؛ مما يجعل تتبع سيرة شخص بعينه يحمل هذا اللقب أمرا في غاية الصعوبة.

كل ما فعله «بهي» أن اكتفى حين وصلوا إلى البازار إلى التعليق على مسألة الحلم وهو يشير إلى صفحة انتقاها من داخل كتاب «سُلم السماء»، ويقول: «نحن نعيش الكذبة يا عزيزي».

> «إن شياطين المجد الباطل تتراءى لنا في الأحلام كأنبياء، وكونها ماكرة تشير إلى المستقبلات وتتنبأ مسبقا، ومتى تحققت هذه الأحلام أعجبنا بها، كأننا بلغنا موهبة التنبؤ وتشامخنا بأفكارنا، وكثيرا ما تتخذ شكل ملاك نوراني، أو

هيئة شهداء قديسين وتظهر لنا في الحلم، ومتى استيقظنا وظننا أننا قد استؤهلنا لمثل هذه المناظر المقدسة غوّصتنا في عُجب وفرح مزيف».

❖ ❖ ❖

«نحن الذين ابتغينا الخروج من مصر هربا من فرعون إنما نحتاج إلى موسى وسيطا لنا عند الله ليقف بين الرؤية والعمل، ويرفع يديه إلى الله لكي بإرشاده نجتاز بحر الخطايا وننتصر على عماليق الشهوات».

يدخل أحد السياح البازار في منتصف شهر أكتوبر، بينما تمسك زوجته بيد طفلتهما الصغيرة التي لا تتجاوز أربعة أعوام، يعرف البائع البدين الذي يسكن كاترين ويعمل في خدمة الدير قبل أن يتحدثوا أنها عائلة إسرائيلية، فهذا موسم الأعياد لديهم، يزورون الدير كثيرا في تلك الفترة، إلى جانب قضائهم لعطلاتهم على الشواطئ التي تركوها منذ أعوام للسلطة المصرية بموجب معاهدة سلام، تتحرك الفتاة في أرجاء المكان الصغير، فتصطدم برف الكتب، يسقط من عل كتابٌ أبيض ناصع صغير يحمل رائحة المطابع وكأنه رغيف خبز أخرجته مطحنة الدير للمناولة توا، يميل الأب ويعتذر عن خطأ ابنته، ينفض الكتاب الجديد، بينما تمسكه فتاته وتشير إلى الصور الملونة بداخله، أيقونة لأشخاص يعدون سلمًا، يسأل الأب البائع عن الكتاب فيخبره أنه سلم الفضائل الذي يتحدث عن مراتب يجب أن يحظى بها من اختار طريق الرهبنة، يسأله: «هل توجد منه طبعة عبرية؟!»، يهز الرجل رأسه بالنفي، ويقول: «النسخة العربية طُبعت للتو» يشير بيده كنوع من الإغراء بطزاجة المنتج إلى السنة

المدونة في الصفحة الأمامية والتي تحمل ذات العام ١٩٨٥.. ثم يضيف: «هل ستشتريها؟!».



«ليكن أباك هو من يستطيع ويريد أن يقاسمك ثقل خطاياك، وأمك الخشوع الذي يستطيع غسلك من الدنس، وأخاك الذي يعاونك ويشترك معك في السباق للسير إلى العلاء، واقترن ذكر الموت قرينة لك تنفصل عنك مدى الحياة، وتنهدات القلب أولادا لك أعزاء، وجسدا عبدا لك».

وسط قيظ أغسطس، يصل «سليم» هاتف، فيلبي النداء، وليّه الذي احتضنه دائما، يتقابلان في «أبو رديس» على بعد نحو ساعة ونصف من مدينة كاترين كما اعتادا، يختار «فيّاض» موقعا على صخور البحر الخالي، ينظر إلى المياه الزرقاء، بينما يجلس بجواره الفتى الذي أعياه الاحتراق، يتأفف «فياض» من الشمس الحارقة بينما يحسها الفتى بردا وسلاما، يسأله «فيّاض» بأبوة عن حاله، فيتردد الفتى في إخباره، ثم أمام إلحاح الرجل يصارحه: «أرغب في الزواج يا حاج!».

لقد كبر الفتى وأصبحت احتياجاته أكبر من الرعاية المادية، والدعم النفسي أمام اضطراباته، وإيجاد النص الذي لا يجعله يشعر بالذنب، يصمت «فيّاض» قليلا ثم يجد فيما طلبه دافعا جيدا لاستغلاله، يخبره أنه سيفعل ويزوجه.

يحتضنه الفتى بحب حقيقي، فيضيف «فيّاض» وهو يخرج خرائط أنابيب التدفئة في الدير: «بعد أن تؤدي مهمة أخيرة».

«الطاعة نكران كلّي للنفس يرهن عنه فعليا بالجسد، أو العكس، الطاعة إماتة الأعضاء بعقل حيّ، الطاعة حركة بدون فحص، موت طوعي، حياة بدون فضولية، خطر لا هم فيه، عدم الهم بالحساب الإلهي، عدم الخوف من الموت، إبحار خالٍ من الخطر وسفر المنام».

طوال ثلاثة أشهر يستعد «سليم» لمهمته، يشغله في الوقت نفسه جائزته المنتظرة، أخبره «فيّاض» بالمهمة مبكرا حتى يأخذ وقته في البحث وجمع المعلومات عن الدير الذي لم يزره قبلا، يدور حول سوره، ينتهز فرصة فتح أبوابه للسياح خلال ساعتين ونصف الساعة تبدأ يوميا من التاسعة صباحا، فيدخل، غريبا على الأعين إذا ما شاهدته، يطوف الأماكن التي يُسمح للزوار بزيارتها، شجرة العليقة، كنيسة التجلي، المتحف، يكرر الأمر يوميا، لمعرفة روتين حركة الجبالية، الأبواب الخشبية والفواصل الحديدية الداخلية بالدير، تأمينها، الأقفال المستخدمة، يعرج على البازار يوميا في خروجه، يقلب في الكتب المصورة الضخمة، لا تحتوي خرائط، وإنما صور الأيقونات، يسأله البائع بقلق من هيئته: «هل أساعدك في شيء؟!».

فيسحب الفتى، الذي يبدو على هيئته البدوية أنه لا يجيد لغات أخرى غير العربية، الكتابَ الوحيد الذي لا يثير الريبة، بغلاف أبيض صغير، يحمل اسم «سُلم السماء»، ويتظاهر بالسؤال عنه، يجيبه الرجل بغلظة: «لن تستطيع على ثمنه»، ثم ينشغل عنه البائع بسياح دخلوا للتو إلى المكان، يقرر البدوي معاقبة هذا البائع المتعالي فيدس الكتاب في صدره ويسرقه!

في المساء يجلس على الهضبة العلوية المقابلة للدير والتي تكشفه لمراقبة الحركة الليلية، يشعل نيرانًا أمامه لا للإضاءة أو الدفء، بل ليُتِم طقوسه، يحرق جزءا من صدره الأيمن جزاء على ارتكابه السرقة من مكان مقدس، يتألم، ينزف قليلا، ويتمنى للحظة وحيدة أن يتوقف عما يفعل نهائيا، لكن مدمنا لا يشفى بالتمني، فيخرج الكتاب ليوقف الدم المتخثر، يهدأ فينظر إلى جريمته بين يديه، يفتح الكتاب ويقرر تسلّية وقته بقراءته أثناء نوبة مراقبته.

«بداية الإماتة، أعني إماتة أعضاء الجسد وإماتة إرادة النفس تولّد ألما، ووسطها ألم فعدم ألم، وآخرها سكون وعدم حس بالألم، فهذا المائت الحي المغبوط يُشاهد متألما وحزينا فقط عندما يصنع إرادته الذاتية، وذلك خوفا من ثقل خطيئته».

طوال ثلاثة أشهر ظل القديس يوحنا السلمي رفيقا لابن القصلة، مراتب الرهبنة التي ربما لو وجدها مبكرا لساعدته، هذا الرجل الذي عاش في القرن السابع الميلادي يحدثه، يطلب منه أن يصبح رجلا أفضل، شيئا ما في تكوينه الذي لم يعرف عن الدين سوى قصار السور من الكُتّاب ثم ما يحمله «فيّاض» من علم، لا فرائض ولا عبادات، هناك إله، وجنة ونار تعرفها مديرة الدار جيدا، وجهنميون يدخلون الجنة بعد الكثير من الاحتراق، وبين الجنة والنار سلم يحكي عنه هذا الرجل الذي لا يتوافق مع ملّته، لكنه لا يعلم عن ملته الكثير أصلا، يتمنى لو يستطيع صعود هذا السلم، يقرر يومها وهو يطالع حركة الدير في نوفمبر أن يبدأ أولى خطواته، يصحو مبكرا في اليوم التالي، يذهب إلى بازار الدير، يخرج الكتاب الأبيض الذي تلوث بالدم المتجلط الأحمر من صدره، يعيده إلى

الرف الذي سبق وأن سرقه منه في هدوء وخلسة، يلمحه البائع فينادي على «الجبالية»، يحاول الفتى أن يشرح الأمر: «هذه المرة كنت أفعل الصواب.. أنا أحاول أن..».

لكن الجبالية لا يمهلونه فرصة للشرح، يجد كبيرهم «أبا عمران» يكيل له اللكمات والضرب وهو ينعت أهله بالقحاب والأنجاس، ثم يلقيه من المدخل، فيسقط «سليم» من الدرج، كما سقط قبله العصاة من سلم السماء.

(٦)

الظلام حليف البدو، يكسبهم ميزة نسبية، يوقن ذلك «بهي»، لكنه لن يجد أبصر من «سليم» وسط هذا السواد، يتحرك البدوي بخفة في الممرات الضيقة للأخدود وهو يتتبع غايته، تتعثر «روث»، فيمسك «بهي» يدها وهما يسبقان كفريستين صيادهما إلى داخل الأخـدود المغلق، تهلع، تسأله عن خطته فلا يجيب، يشبك أصابعه داخل أصابع كفها ليطمئنها وهو يردد كلمة واحدة «صه! لا أريد سوى الهدوء»، في هذا السكون يمكنه سماع وقع خطوات مُلاحِقه، وتقدير المسافة الفاصلة بينهما، يصلان إلى نهاية الأخدود الطويل، يدعو الله أن يُطيل في ساعات الليل التي ستنقشع قريبا مخلفة سحابة دموية للشمس.. ماجينتا.

يلتفتان، ظهرهما للحائط، ووجهاهما في انتظار الصياد البدوي، يفلت «بهي» يد رفيقته، يجثو على ركبته، يفتح حقيبته وسط الظلام، يخرج صور «بأفلوس» وبخاخته ويضعها في جيبه، بينما يمسك

كاميرته، يفتحها فينعكس الضوء الخفيف من الشاشة الإلكترونية الخلفية على وجهيهما، في هذا الضوء يتحاشى أن ينظر إلى وجه «روث» حتى لا يهلع هو الآخر، فلا يمكنه أن يضمن لها أن ما يفعله صواب، أو أنه يؤمن بنجاحه، تتصاعد أصوات خطوات «سليم» في الأخدود، يضخمها المكان كدار أوبرا أوروبية أحسنت بناء قبتها، بمساعدة ضوء الشاشة الخلفية ينتقي سليم تجويفًا في مستوى رأسه يمكنه أن يسند عليه الكاميرا، يخرج فلاش الكاميرا، يربطه في الجزء العلوي من الكاميرا، يوجه رأسه إلى خارج الأخدود، يضع الكاميرا على التجويف، فتميل، يتلقفها قبل أن تسقط على الأرض، تقترب الخطوات أكثر في مسامعه، يسارع فيما يفعله، يخرج عدسة من الحقيبة، يحشرها بين الكاميرا وحدود التجويف حتى يمنع الكاميرا من السقوط، لطالما كانت تلك العدسات الأغلى عنده بعد حياته، والآن حياته على المحك، يدقق السمع، يحاول أن يستشعر قرب الخطوات، يفصله ما يقرب من ثلاثين خطوة أخرى، يضغط أزرارا في الكاميرا، ثم ينظر إلى «روث» وإصبعه على زر إغلاق ضوء الشاشة الخلفي ويقول: «أتجيدين الغوص؟!».

تهز رأسها في هستيريا، فيقول: «استعدي، سنكتم أنفاسنا»، ثم يضغط زر الشاشة فيطفئها، ويعيدهما إلى الظلام.

٣٠.. ٢٩.. ٢٨.. ٢٧.. ٢٦.. ٢٥.. ٢٤...

ثلاثون ثانية بلا تنفس أو صوت أو اختلاجة، ثلاثون ثانية شعرت «روث» أنها الأطول فعاد «بهي» للإمساك بيدها، أصبح مصيرهما مشتركًا، ترتفع أصوات القدمين المنغرستين في الثلج تجاههما، وأنفاس القادم اللاهثة، بينما يستشعر «سليم» أن المكان أصبح خاويا.

٨.. ٧.. ٦.. ٥.. ٤..

لا يجيد «بهي» شيئا آخر، تمر من أمام عينيه لحظات فارقة في حياته، إنها النهاية التي تجعله دائما ما يدقق في شريط الصور الذي التقطه.. وقد كان رغم استخدامه لكاميرات إلكترونية أغلب الوقت، يحب اللحظة التي يُخرج فيها فيلما من كاميرا قديمة، ويمرر الشريط السلبي «نيجاتيف» أمام أحد المصابيح ليكتشف ما فيه قبل أن تنبض فيه الحياة والألوان بتحميضه.. يعشق أن يكون خلف الكاميرا وليس أمامها، حتى في المناسبات مع أصدقائه وخطيبته السابقة، لذلك لم يكن من عشاق التصوير الذاتي «سيلفي»، ولم يفكر في ضبط توقيت التصوير الآلي «camera timer»منذ ابتاع هذه الكاميرا إلا الآن.

ترتعد «روث» إذ تشعر أن «سليم» وصل أخيرا إلى حيزهما، خطوتان على الأكثر ويمكنه أن يمد يده ليمسك بشعرها القصير.

٢.. ١..

كان صوتا يماثل سوطًا يحركه أحد الخيالة في الهواء، وكذلك كان تأثيره، ينطلق وميض الكاميرا الأبيض المفاجئ في عينَي الرجل الذي يطاردهما فيصيبه بعمى مؤقت يُعرف لدى أطباء العيون بـ«عمى وميض الكاميرا»، يشتد تأثيره مع الظلام، تسبح الأطياف البيضاء الصغيرة التي تشبه الخلايا الأولية في عينَي «سليم» فتمنعه من الرؤية، بينما يركض «بهي» ساحبا روث مع انطلاق الوميض، يدفعان البدوي الذي يُفلت قطعة الزجاج والمفتاح، ويضع يده على عينيه إثر إحساسه بالعمى فيقع على الأرض.

ينطلق الفلاش ثانية، فيتيح لـ«بهي» رؤية المفتاح على الأرض

الصخرية، يركض بصحبة «روث» نحوه، فتمسك يد البدوي المرمي على الأرض قدمه ليسقط المصور بالتبعية.

ينطلق الفلاش مرة ثالثة، فتميل «روث» لتلتقط نصف المفتاح، وتتجه نحو المصور الذي يحاول إفلات قدمه من غريمه الأعمى.

ينطلق الفلاش عدة مرات، مكونا تتابعا بصريا غير مكتمل، لا أحد منهم يستطيع رؤية المشهد كاملا، قفزات لشريط سينمائي أفسد مونتاجه فتخلله العديد من اللقطات السوداء تماما، والتي تعيق المشاهد عن المتابعة، روث «تنهض»، ظلام، قدم «بهي» الحرة تركل «سليم» لتفلتها، فظلام آخر، «سليم» يمسك بقدمَي المصور ويعتصرهما، فظلام ثالث، «روث» تخبط رأس «سليم» بأحد الأحجار، فظلام رابع، «بهي» يركض بصحبة روث نحو مدخل الأخدود.

عند حدود الأخدود كانت الشمس قد ارتدت فستانها الأحمر، فجعلت تجاويفه وتعاريجه تطريزا خلابا لهذا الفستان، وأمام «الكانيون» حيث تركا سيارتهما، كانت سيارة «سليم» النصف نقل لا تزال تعمل، تلقي «روث» نظرة نحو مدخل الأخدود الأحمر لتتأكد أن القاتل لا يتبعهما، تقول لـ«بهي» وهي تنظر إلى ارتعاشة يدها من الصدمة فينظر إلى ذات الأمر بالتبعية: «فلتقد أنت».

يقول «بهي»: «لكنني لا أحمل رخصة قيادة و...».

ترمقه «روث» فيصمت ويقفز في مقعد السائق لسيارة سليم، معها حق، ستكون تلك أهون مشكلاتهما إذا ما تم إيقافهما، تركب بجواره، فيسأل بجدية «إلى أين سنذهب الآن؟!».

بالطبع بعد أن أصبح المفتاح بالكامل معهما لا يريدان سوى الولوج لمكتبة الدير، لكن ليس كل ما يريدانه يمكنهما فعله الآن، يعلم «بهي» أنه لن يستطيع ببساطة أن يطرق باب الدير وسط التحصينات الأمنية بعد الاشتباكات الأخيرة ليستأذنهم في ساعة مكتبية! وحمرة الشمس التي ستنقلب إلى ذهب أصفر اللون خلال فترة عودتهما ستجعلهما مكشوفين بسهولة إذا ما اقتربا من الدير أو حاولا استخدام سردابه ثانية، تقول «روث»: «نحتاج لمكان آمن للتفكير.. تحرك وسأدلك».

يتحرك «بهي» بالسيارة، ينظر إلى «روث» قائلا: «شكرا لعودتكِ لإنقاذي من البدوي في الداخل»، بجواره زجاجة مياه بلاستيكية قديمة يستخدمها سائق السيارة، يفتحها ويناولها «روث»: «سيساعدكِ الماء على الهدوء»، تمسك «روث» الزجاجة وترتوي وتنظم أنفاسها فتقل رعشة يدها، يسألها: «هل هناك أحد يمكن أن نلتجئ إليه؟».

تجيبه بهدوء: «هنا لا، فأنا غريبة حتى وإن مرت سنوات على وجودي.. وأنت؟!».

يقول بسخرية تملؤها مرارة: «لا هنا ولا في القاهرة!».

- «هل توفي والداك مثلي؟».

- «لا، أمي فقط».

- «وأبوك؟!».

يصمت «بهي» وكأنه لا يرغب في الحديث عن الأمر، يقول باقتضاب: «تم اتهامه بسرقة أرشيف صور الجريدة التي كان يعمل بها.. ومن وقتها لم نتحدث».

تصمت «روث» احتراما، لا تريد أن تتعمق فيما لا يريد البوح به، تُخرج نصفَي المفتاح وتعمل على إيلاج أحدهما في الآخر فيصبحان مفتاحا واحدا، رأسه دائرية تحمل نجمة خماسية، تقول لـ«بهي» الذي لا يزال يقود السيارة: «نجمة خماسية!».

يلقي «بهي» نظرة سريعة نحو المفتاح، نجمة خماسية! يقول: «غريبة! لماذا يحمل المفتاح رمزا يهوديا.. فلطالما كان اليهود ممنوعين من تلك المنطقة، بما في ذلك العصور الحديثة، حتى إن الرهبان استغلوا بدهاء كُره السلطات العثمانية لليهود فنجحوا في استصدار فرمانات تحرم سكنهم في منطقة الطور بالكامل».

تفكر «روث» وهي تقلب المفتاح في يدها: «لكن النجمة الخماسية ليست رمزا يهوديا.. بل النجمة السداسية».

ـ «وهل هناك فرق بين الاثنتين؟!».

ـ «الأديان السماوية الثلاثة انتقت أشكالا هندسية ضمنية تعبر عنها، المثلثات في اليهودية لذلك ظهرت النجمة السداسية من مثلثين متداخلين، المسيحية انتقت خطين متعامدين، الصلبان بأشكالها».

ـ «لكن الإسلام لم يكن له...».

تقاطعه «روث»: «الدوائر يا بهي، الأهلة فوق المآذن، حركة الطواف حول الكعبة في مكة إذا ما رأيتها من السماء».

ـ «الخلاصة أن النجمة الخماسية ليست شكلا دينيا متعارفا».

ـ «بنسبة كبيرة».

ـ «وإلامَ ترمز النجمة الخماسية إذن؟!».

- «لست متأكدة.. ربما كانت ترمز لخاتم سليمان».

- «خاتم سليمان؟!».

- «كان النبي سليمان يرتدي خاتما دائريا، مذكورًا في التراث العبراني والعربي على حد سواء، به نجمة، اختلفت الآراء إن كانت خماسية أم سداسية».

- «لا يبدو هذا منطقيا، فلا علاقة للنبي سليمان بتلك المنطقة على الإطلاق.. بالإضافة إلى أنه لا يوجد تأكيد لوجود مثل هذا الخاتم من الأساس».

ثم يصمت «بهي» ويقول وكأنه يعارض نفسه: «لكن من ناحية أخرى لا أرى شيئا ذا أهمية في الدير يستحق كل هذا الصراع الدائر».

تنظر له «روث» وتزم شفتيها، ثم تشير إلى مكتب فرعي صغير تعلوه علامة مركز أبحاث البيئة التابع لجامعة قناة السويس في مفترق الطرق، وتقول: «هناك».

يتركان السيارة، تُخرج «روث» مفتاحا للمكتب، تفتح بابه، يبدو في تلك الساعة من الشروق خاويا كبقية البلدة، يدخل فيجده مكتبا بسيطا يحمل لوحة «مركز أبحاث البيئة - جامعة قناة السويس تأسس في ١٩٧٦»، تقول وهي تمضي إلى مكتب في الداخل: «هذا التاريخ خاطئ مثل كل شيء نتعامل معه الليلة.. فلا تُعِرْه اهتماما».

تتجه بجدية إلى جهاز كمبيوتر قديم نوعا ما، تديره، تنتظر دقائق حتى يظهر البرنامج الذي تحتاجه، فيسألها «بهي» بفضول يتكسب منه رزقه: «ما الخطأ فيه؟!».

تقول بلا اهتمام: «الجامعة هي التي تأسست في هذا التاريخ، أما المركز فأسسه الإسرائيليون أثناء تواجدهم في سيناء، وهو أمر لا يذكره المصريون كثيرا لحساسية الأمر، وأصبح المركز تابعا للجامعة عام ١٩٧٩ بعد نهاية الاحتلال والمعاهدة.. رغم الفرمانات التاريخية التي منعت اليهود من دخول الدير لسنوات لم يفكر أحد قبلهم في الاهتمام بالمنطقة علميا».

تضغط أزرار لوحة المفاتيح وتقول وهي تتابع صفحات الإنترنت: «لا يوجد أي أخبار عما حدث في الدير! جيد، آخر ما أريده أن أجد صورتي ضمن خبر صحفي يتهمني باقتحام الدير».

يقترب «بهي» منها ويبحث عن «النجمة الخماسية الدائرية»، يفتح إحدى الصفحات بالإنجليزية، تطالعهما معلومة مفادها أنها ترمز إلى العناصر الخمسة المكونة للطبيعة كما كان يعتقد القدماء: «الهواء، والماء، والنار، والأرض، والروح»، تزم «روث» شفتيها، ويهز «بهي» رأسه قائلا: «لا يبدو ذلك منطقيا أيضا.. في كل الأحوال حتى وإن بدا هذا الرمز شاذا عن رموز الكنيسة فهو لن يفيدنا بشيء الآن، ما نحتاجه هو الدخول إلى الدير مرة أخرى».

تقول «روث» بقلق واستسلام: «والأمن.. وضوء النهار.. والرصاص الذي أطلقوه في المرة الأخيرة، أرى أن نكتفي بذلك».

ـ «إن اكتفينا فسيجدنا أحدهم بالطبع.. إما أن يقتلنا البدو وإما أن يسجننا الأمن».

ـ «وهل يوجد خيار ثالث؟!».

يصمت «بهي» طويلا، ينظر إلى المفتاح في يد «روث»، يتمتم مكلما نفسه بصوت يمكن لـ«روث» سماعه «لا، لا يوجد خيار ثالث!».

(٧)

حبيبتي شايا..

أعلم أنكِ شديدة القلق عليَّ.. معذرة، فلم أجد الفرصة المواتية للكتابة طوال الفترة الماضيـة..

أفتقدكِ بشدة، أمسك يدكِ على شواطئ حيفا، نفكر في امتلاك بيت على البحر، يوما ما يا حبيبتي، يوما ما سنفعلها..

أعلم أنكِ ملتاعة.. تتشوقين لأخباري، لو كنت أمامكِ لصرختِ فيّ، وقلتِ لا تخدعني بعبارات الغزل وأخبرني لماذا تأخرت في الرد كل هذا، واحكِ لي التفصيل.

دخلت الدير يا شايا.. هل تصدقين ذلك؟! ذلك الحصن الكبير، سرت حيث سار موسى متكئا على عصاه، ليرى نور الرب ويتلقى وصاياه العشر، سيسجل التاريخ أنني أول جندي إسرائيلي أفعلها، ستخبرين أبناءنا حين يجيئون للحياة أن والدهم هذا البطل.

بدأ الأمر بتعليمات من القائد «موشيه سيلا» بأن ندخل الدير، الرجل الذي نخافه جميعا ونسميه بـ«موسى الكبير» لضخامته، طرقنا البوابة مرارا، فجاءنا الرد من خلف الأبواب لراهب الدير يخبرنا أن المكان مغلق للعبادة، حين عدنا إلى «سيلا» وأخبرناه ثار كما ثار موسى النبي حين صنع هارون العجل الذهبي، انطلق منفردا بعربته إلى بوابة الدير ونحن على علم أن في المكان أسلحة ومدافع قديمة، لم يخشَ ذلك، صرخ فزلزل الجبل بحنجرته: «لا تحتموا داخل جدرانكم ظنا أن ربكم سيحميكم، فربي لم يُصلَب بعد، ولا تركنوا إلى

تنديدات الأمم المتحدة التي ستصدر عقب اقتحامي مكانا دينيا مقدسا، سأخبرهم حينها أنني وجدت جنودا مصريين بالداخل».

لم نتوقع أن يُفتح الباب.. توقعنا أن يكون الأمر أصعب من عبورنا سيناء، لكنه فُتح، رهبانه صاغرون، منكسو الرءوس ينظرون بتوعد الضعفاء، نجح القائد في كسر شوكتهم، ثم أمرنا بالانتشار في المكان وتفتيشه، كل شبرٍ وكل سرداب سري، بين أحجاره وثناياه، حفزنا قائلا أن نجلب كل شيء نشعر أنه غير اعتيادي، حتى وإن كان حجرا أو حفنة تراب، فانطلقنا، على مضض من الرهبان والشمامسة، نجوب المكان، ونبيت فيه عشرة أيام، كان ساحرا، جنة داخل الصحراء المترامية، كان من نصيبي معصرة الزيتون، المطحنة، والمكتبة.. ليتكِ كنتِ بجواري يا حبيبتي.. لكننا سنفعلها يوما ما.

لم نجد جنودا مصريين مختبئين هنا.. إلا أن هذا لم يُرضِ «موسى الكبير»، فأمرنا بالبحث مرة أخرى، وكأنه يبحث عن شيء آخر غير الجنود، سأل عمن يتولى مهمة تفتيش المكتبة فأجبته، وبّخني دون سبب، وأمرني أن أبحث بجدية أكثر هناك.

في اليوم التالي، جُبت أقلب في تلك المخطوطات القديمة فاعترضني شماس ثلاثيني بجسده يدعى «بافلوس»، استفزني، فصفعته، جُن جنون الراهب المسئول عن الدير وارتمى عليه ليحميه من قبضتي، أمسكت بسلاحي وكدت أقتلهما.. جبناء!

اشتكى راهب الدير للقائد «موشيه سيلا»، وحكى أن الشماس الذي ضربته مريض ومُصاب بمرض في عينيه، عمى ألوان يجعله يرى كل ما هو أصفر باللون الأحمر تقريبا، فكرت

أنه يمكنني في المرة القادمة أن أقتلع عينيه لنرى هل سيليق على شعركِ الذهبي الصبغة الحمراء التي ترغبين فيها، كافأني موسى الكبير وأمرني ألا أضع اعتبارا لأحد، يعاملني القائد مثل ابنه، يحبني، وأحبه رغم توبيخه السابق، سأسمي ابننا الأول باسمه.. موسى «موشيه»!

بعد عشرة أيام هدد مطران الدير بأنه والرهبان سيتركون الدير لنا ويرحلون جميعا إلى اليونان ويخبرون العالم بأنهم تركوا مكانهم المقدس بسببنا، توقعت ألا يبالي القائد، أليس هذا ما نبحث عنه؟! أرض إضافية، قدم أخرى نحو ما بين النهرين.. لكنه أخرجنا من الدير، دون أن نجد شيئا، ودون أن يهدأ باله، صاح في الراهب أنه سيعود ووقتها سيعرف كيف ينتزع ما يخفيه من صدره، لا بد أن موسى الكبير وصله أن الراهب يخفي معلومات عن الجنود المصريين.

نقيم الآن في كشك حراسة على بُعد ثلاثة كيلومترات من البوابة، أشتاق إلى الجنة في الدير، وأشتاق إليكِ، وأتمنى لقياكِ لإتمام زفافنا.. يومًا ما.

ديفيد

جنوب سيناء ـ ١٤ أغسطس ١٩٦٧



حبيبتي شايا..

كنت أتمنى أن يجدكِ هذا الخطاب بصحبة طفلنا الصغير «موشيه»، أن تريه طابع البريد الذي يحمل صورة الطائرة وخريطة سيناء وكلمة إسرائيل تزين طرفه العلوي، فتخبريه أن والدكَ لا يزال هناك ليحقق لكَ مستقبلا أفضل، هل هناك

أي أخبار جديدة من الطبيب يا حبيبتي بشأن تأخر الإنجاب؟ ألم تكن الإجازة التي قضيناها معًا في شرم الشيخ كافية لزرع البذرة داخل رحمكِ.

حدثني القائد والمعلم «موشيه سيلا» منذ فترة متعاطفا عن طبيب متخصص في حي راقٍ بدلا من ذلك الفاشل الذي تذهبين إليه فتجدينه يعالج المهاجرين الإريتريين، سأرسل لكِ عنوانه وأموالًا لازمة للذهاب إليه حين أحصل على مكافأة قريبة، فقد رأيت القائد بالأمس؛ موشيه، ليس موشيه سيلا الحاكم الإداري لجنوب سيناء، فهو مشغول حاليا بإنشاء مركز لأبحاث البيئة في المنطقة، لا أدري سر اهتمامه به، مَن رأيته وصافحته اليوم هو موشيه ديان، وكدت أن أدخل الدير للمرة الثانية، هبطت طائرة قرب وحدتنا، ونزل منها، نظر لي بعينه الثاقبة، وقرر أن يدخل الدير، فسارع بعض البدو الخونة لإخبار الرهبان.

البدو هاهنا متعاونون كما شاهدتِ في الصيف، خاصة بعد تمهيد الأرض للسياح، أو نجاح موسى الكبير في كسبهم بمساعداته الطبية والطائرات التي تنقلهم إلى مستشفياتنا، عدا تلك الفئة المسماة الجبالية، مجموعة من المرتزقة الذين يخدمون الرهبان.

ما كان من الرهبان إلا أن خرجوا واستقبلوا «موشيه ديان» خارج الدير، يبدو الأمر من بعيد أنه نوع من الاحترام والترحاب، لكنهم فعلوا ذلك ليمنعوه من الدخول، تسامر معهم، تضاحكوا، والتقطتهم عدسة مصور في وكالة الأخبار، لكنني نظرت في عينَي الشماس المعوق ففهمت، ولم أجرؤ أن أخبر القائد أننا نتعرض للخداع، ولا أعرف ماذا أفعل الآن!

بعيدا عن هذا، ربما تجدين صورتي بصحبة القائد الأعلى والرهبان في الصحف، فلتقطعيها، لنضعها في غرفة طفلنا حين نرزق به وننتقل إلى حيث يسكن الأثرياء على شواطئ حيفا.. يومًا ما.

ديفيد

جنوب سيناء - ١٥ أكتوبر ١٩٧١



حبيبتي شايا..

شيء بداخلي يخبرني أن أفرح لأنني سأعود إليكِ نهائيا بعد سنوات الغربة، لكنني حزين مقهور، المرة الأولى التي أحمد الرب أننا لم نرزق بطفل، أحمده على فشل كافة محاولاتنا، فكيف سأقص عليه هذا الفصل من حياتي؟ كيف سيقصه الجميع.. حتى «موشيه سيلا» الذي لم يكن يُعرف إلا بالكبير لم أره اليوم كبيرا، تقطع قلبي تجاهه، فهو لم يعد مُعلما وقائدا فقط، بل صديق مُحب، يخفي عني الكثير من الأسرار بحكم منصبه، لكنه وعدني أن يكون أبا روحيا لولدنا دون أن يعلم أنه لن يجيء.

دخلت معه الدير اليوم للمرة الثانية والأخيرة، لا أدري لماذا أصر أثناء تسليم هذا القطاع للمصريين بعد كامب ديفيد اللعينة أن يزور الدير، أغلق مركز أبحاث البيئة، مر بسيارته أمام الكشك الخشبي، وخلفه مراسل صحفي من جريدة أمريكية أعتقد أنها «نيويورك تايمز» يوثق عمليات الجلاء، وسيارة نصف نقل تحمل صناديق فضية كالتي نراها في استكشاف الفضاء، أشار لي أن أرافقه فرافقته، طرقت البوابة

ففتح الشماس «بافلوس» متهلل الوجه، ورحب بدخولنا، وقال واجب الضيوف إكرامهم، بعد كل تلك السنوات.. ضيوف! ليتني قتلته وقت استطعت.

الأسوأ كان لقاء أسقف الكنيسة ديونسيوس، متجهما قال لـ«موسى الكبير» وهو يشير إلى الصناديق المعدنية: «شيء واحد لن أسامحك عليه.. أنك أخذت صخورنا معك للدراسة»، أهذا هو كل ما يضايق هذا العجوز الخرف؟! وهل تحوي تلك الصخور شيئا هاما سوى روث الإبل وبقايا البدو المتعفنة؟!

رغم ألمه الواضح ابتسم «موسى الكبير» حتى لا يظهر مرارة الخروج من أرض النبي، فما كان من الأسقف إلا أن أضاف للقائد «سيلا» أمام رجاله والشماس والمراسل الصحفي: «أنت رجل سيء يا موسى».

قالها ولم تطرف عيناه، فنهض موسى الكبير خارجا من أبواب الدير، انتحيت بالمراسل الصحفي وأمرته ألا يكتب ذلك فلم يعرني اهتمامًا، أشعر بالحرقة، أنني أتضاءل، أسوار الدير أعلى مما عهدتها، وتساءلت: هل سأعود مجددا إلى حيث وقف النبي.. يومًا ما؟!

ديفيد

جنوب سيناء - ٩ نوفمبر ١٩٧٩

(٨)

يصعد «جمعة» طابقا واحدا نحو سطح القبة الجنوبية الملاصقة للسور، يقف ويطل برأسه نحو ساحة الدير باحثا عن شيء ما، فلا

بجده، يركض بامتداد السطح، يمر فوق أنصاف الدوائر المميزة لمبنى غرف الرهبان، يصل إلى نهاية المبنى المخصص للسكن والملاصق للسور، يلتفت، أمامه مبنى ذو سقف قرميدي أحمر مائل، يغطي بقية غرف السكن، والذي كان يستخدم قديما للضيوف، ينظر إلى فَرْق الارتفاع بين السطحين، يفكر في النزول من السطح والبحث من الأسفل، لكن الوقت سيداهمه وربما يختفي الرسول بما يحمله من رسالة، أخبره أن أمامه دقيقة فقط لإيجاد «عاكف»، وها هو ذا يبحث عن الرجل الكبير في فضاء الدير الشاسع، أخيرا يقرر الركض، يعود إلى الوراء خطوات ليكتسب سرعة أكبر، يقفز، يطير في الهواء، الأرض بعيدة من ارتفاعه، يسقط على السطح القرميدي فيميل بسببه، ينحدر، ويوشك على السقوط، يمسك إحدى قطع القرميد فتتخلع، قديمة كالدير لكنها لم تعد راسخة وصلبة، ما رآه «جمعة» خلال تلك الساعات يقلقه على بقاء الدير بالكامل، تسقط قطعة القرميد بينما تمسك يده الأخرى بقطعة ثانية، تمنعه أخيرا من السقوط، يتمالك نفسه، يقف، يصعد المنحدر المائل حتى قمته الهرمية، فتتكشف له من موقعه الساحة الغربية للدير، بئر موسى، معصرة الزيتون القديمة، السور الغربي الفاصل تحت قدميه وعلى يساره البستان، ثم يراه.. «عاكف بك» يقف مع رجله الأصلع معطيا تعليمات، يأمر الرجل الخمسيني بإبقاء قناصين في البرج الشمالي والغربي، يقاطعه صوت «جمعة» الصارخ: «عاكف بك!».

ينظر الرجل الخمسيني الذي يوشك على إلغاء القداس وإغلاق الدير لتمشيطه وتأمينه، الصوت لفتى صغير يعرفه يقف أمام السطح، جمعة يلوح بيديه ومن خلفه القرص الأحمر للشمس يوشك على

الكمال والزوال أيضا، ليتحول بعدها إلى الأصفر الذهبي، يصرخ «جمعة»: «تليفون يا بك.. بسرعة».

يركض «عاكف» ومعه الرجل الأصلع نحو البوابة، يتتبع بعينيه «جمعة» الذي يعود أدراجه ويشير نحو المبنى الجنوبي وهو يقول: «في غرفة الاتصالات.. الطابق الثالث للمبنى»، يصعد الرجل الخمسيني البذين السلم عدوًا فتتقطع أنفاسه، لا يعرف أن الدير يمتلك هاتفا من الأساس، يصدر تعليماته للرجل الأصلع بصوت متهدج متقطع: «أريد أن أعرف مصدر الاتصال.. اعرف من جمعة رقم الخط الأرضي للدير وتتبع الاتصال».

يصل «عاكف» إلى رواق الثالث فيجد إحدى الغرف قد فُتح بابها، يدخل إليها فيجد هاتفا قديما، وجهاز فاكس ومكتبًا خشبيًا قديمًا وكرسيًا وأباجورة مضاءة، يستخدمه الرهبان وقت الطوارئ والمراسلات بالخارج، يلتقط سماعة الهاتف الموضوعة بجانبه ويقول بصوت متهدج: «آ..آلو».

يأتيه صوت سمعه عبر محمول المسعف في أول الليل: «هل أرسل لك كوبا من الماء؟!».

لكن «فيّاض» لم يكن في انتظار إجابة، يكمل بهدوء: «هل وجدت الوقت لإعطاء الأوامر لرجالك بتتبع مصدر المكالمة؟! حين يفعلون سيجدون أن مصدر المكالمة هو سنترال سانت كاترين نفسه، لكن السؤال الأهم هو هل أحدثك من السنترال فعلا أم أن قدرتي تمكنني من إجراء مكالمة برقم السنترال من حيث أتواجد؟!».

يسأل «عاكف» متجاوزا تلك الألاعيب: «ماذا تريد؟!».

- «وصلتني رسالتك.. وأعجبتني لمستك.. أنا أحبك أيضا..

أضحكتني بالفعل.. والآن إذا كنت تملك ما أريد سأرسل أحد رجالي في مكان لـ...».

يقاطعه «عاكف» قائلا: «كفانا تلك الألعاب الصبيانية.. أعرف أن المكان غير مسمم، تناولت خبز القداس وشربت ماءه؛ لذا لست مضطرا لمقايضتك بشيء، سنلغي القداس يا هذا!».

صبيانية! هل نعتَ مسحة «فيّاض» الساخرة بالصبيانية، يا له من وقح! يعلم «فيّاض» مع من يتعامل لذلك يجد متعة خالصة في إذلاله أكثر، يجيب «فيّاض» بهدوء شديد: «يمكنك أن تلغي القداس.. ويمكنني أن أنشر الصورة؟!».

- «أي صورة؟!».

- «صورة القديس الذي يحمل اتهامًا لأحمد شفيق».

يصمت «عاكف»، يعلم أن المكان مخترق وأن قدرته على تأمينه في ظل الظرف والوقت الراهنين معدومة، بينما يلقي «فيّاض» بِرِهَان لا يملكه، ينظر في عينَي لاعب البوكر أمامه وهو يزيد من الرهان، والرهان حرب نفسية حول ما لا يملكه المرء من أوراق، الطُعم الذي يستحق المجازفة، إما أن أكسب كل شيء وإما أن أخسر ما وصلت إليه إلى الآن، يخترق دقيقة الصمت الرجل الأصلع الذي يدخل إلى الغرفة قائلا بصوت هامس: «السترال.. هل أرسل قوة إلى هناك؟».

يهز «عاكف» رأسه بالإيجاب، وبسبابته بمعنى «يكفي رجل واحد»، سيستطلع المكان رغم تصديقه للرجل اللاهي، يتحرك الأصلع فيقطع «فيّاض» الصمت قائلا: «ماذا اخترت يا عزيزي؟!».

القداس الذي سيعقد في الخامسة مساء أصبح لعنة بالنسبة لـ«عاكف»، يقول: «يمكننا أن نتقابل الآن لتحصل على ما تريده!».

- «بل في القداس يا عزيزي.. زحامه ملائم لمثل تلك المقابلات.. سأرسل أحد رجالي».

- «لا، ستحضر بنفسك».

يضحك «فيّاض» فيدير «عاكف» الدفة بجدية، نفس الرهان على ما لا يملك، يرى مدى تمسك الرجل بذلك الشيء الخفي، يقول بصرامة: «بنفسك.. أو يمكنك نشر صورة الراهب فتخسر ما تريد للأبد».

يوازن «فيّاض» بين خياراته، لقد أصبح على بُعد خطوات من نهاية رحلة طويلة، يعلم كسياسي أن للضغط حدًّا بعده يصبح الأمر بلا جدوى، ينفجر البالون مفسدا اللعبة، يقطع «عاكف» الصمت ويقول:

«ماذا اخترت يا عزيزي؟!».

- «وكيف ستعرف أنه أنا؟».

- «لست أصم.. لا يزال يمكنني تمييز الصوت».

- «ومن قال لك إنني لا أستخدم جهازا لتغيير الأصوات».

- «ولمَ تفعل؟! وهل أمكنني تتبع مكالماتك؟! أم أنك تتوقع أن أبحث عن الصوت وأقارنه بأصوات الملايين؟».

لا يجد «فيّاض» بدًّا، سيدخل الدير ويحصل على الخبيئة، يعلم أن خصمه يراهن على منعه من الخروج بها، لكنه لا يريد الخروج بها، سيدمرها في مكانها، يقول متشككا: «أريد أن أتأكد أنك تملك الخبيئة!».

خبيئة! ولّى وقت كان الاندهاش والاستفسار فيه رفاهية

لـ«عاكف»، فلا يفترض أن يفعل وإلا تشكك فيه خصمه، يقول بأدائه الواثق: «يمكنك أن تصدق كلامي أوْ لا، الأمر لك!».

ـ «إذن فلن نصل لاتفاق..».

يخشى «عاكف» من فشل المفاوضات واستدراج الرجل فيقول: «انتظر.. يمكنني أن أحدثك مرة أخرى وأصف لك إياها وهي بين يديَّ».

ـ «لا أحب الوصف.. أريد أن أرى صورة».

يدخل الرجل الأصلع ويهز رأسه بيأس فيعرف «عاكف» أن الرجل الذي ذهب للاستكشاف لم يجد شخصا في السنترال كما قال مُحدثه، يشير «عاكف» بيده لرجله الأصلع فينصرف، يدرك أن موافقته ستورطه فيما لا يستطيع أيضا، لكنه لا يملك سوى أن يمارس ذات اللعبة إلى نهايتها.

ـ «حسنا.. أرسل لي رقم هاتف فأبعث لك الصورة عبر تطبيق واتس آب».

يضحك «فيّاض» ويقول: «هذا ما يمكنك تتبعه بسهولة».

ـ «بريد إلكتروني؟».

ـ «ستتمكن من معرفة موقع جهاز الكمبيوتر الذي سيلج له بسهولة أكبر».

ـ «إذن نعود إلى عرضي بوصفه لك».

يقول «فيّاض» وهو يبتسم، دائما ما كانت البسمة تعلو شفتيه حين يجد طريقة ليستهزئ بها بمنافسيه: «لا، هناك طريقة لرؤية الصورة».

يصمت «عاكف» منتظرا عرض الرجل إلى نهايته: «يمكنك

رفعها على أحد الحسابات الشهيرة على تويتر وسألقي عليها نظرة، ثم يمكنك مسح التغريدة إن أردت».

ـ «الأسهل أن أرفعها على حساب جديد حيث يمـ...».

يقاطعه «فيّاض» قائلا: «هل تخبرني أنني أتعامل مع جهة تعجز عن اختراق حسابات تويتر؟».

يتململ «عاكف»، يعرف من واقعة إشاعة السم السابقة أن الرجل يريد أن يستنزف طاقته فلا يقوى على فعل أي شيء آخر حتى موعد القداس، نوع من التشتيت الذي مارسه سابقا ويكرره الآن، لكنه هذه المرة يعرف قواعد اللعبة، فيقول: «وفرضا فعلت.. سأحتاج إلى اسمك أو مواصفاتك لتتمكن من دخول الدير وقت القداس، فالإجراءات مشددة، ودخول الدير مقتصر على المدعوين فقط».

ـ «لا تقلق من هذا.. فاسمي بين أربعمائة وستة عشر مدعوا».

يا له من مُراوغ! يلعنه «عاكف» في سره، سيخرج ليدقق في قوائم الأسماء، لكنه يثق أنه سيفتش عن إبرة وسط أكوام القش، تماما مثلما فعل المراوغ بشأن السنترال، يقول «فيّاض»: «سأحضر في كل الأحوال، لكنني لن أكشف نفسي إلا إذا رأيت الصورة أولا، ومادامت الإجراءات الأمنية ستمنع استخدام المحمول في الداخل، حري بك رفع الصورة على حساب تويتر شهير نتفق عليه قبل الخامسة».

مجبورا يقول «عاكف»: «أي حساب يمكنني رفع الصورة عليه؟!».

يصمت «فيّاض» للحظات، يبتسم أكثر، لا يرى «عاكف» بسمته

اكنه يشعر بها، يقول: «ما رأيك في حساب شريهان؟! فلقد كنت مفتونًا برقصاتها الاستعراضية في الفوازير!».

(٩)

س: اسمك وسِنك ومحل سكنك؟

ينظر الكاهن «يوسف واصف» إلى ابنه «هارون» وهو يجيب الضابط الإسرائيلي، يحاول ضبط انفعال ابنه، فأول ما ينشده الضابط هو صراخ أو تجاوز العريس الذي تم اقتياده أثناء عرسه، وآخر ما يريده الكاهن العجوز «يوسف ناصف» أن يتم احتجاز ابنه الوحيد فتنتهي الزيجة التي بذل لإنجاحها الكثير.

ينظر إلى فتاة عشرينية هادئة تجلس في ركن الغرفة، تحمل في يدها مكعب الألوان التسعة «روبيك كيوب» (Rubik's cube)، تحل مربعاتها في دقة متناهية وهي ترمق التحقيق بطرف عينها، دون أن تشترك بالتعليق، تبادل الكاهن النظرات الصامتة، وتنشغل بالوجه الأحمر في مكعبها.

س: هل تستطيع أن تحدد مكانك بالأمس يا هارون؟

تلك الأسئلة التي لا تحمل اتهاما محددا تثير شكوك الكاهن وريبته، يسأل نجله عن البارحة، وهو يعرف أنهم قضوا اليوم بأكمله على جبل جرزيم، يرتدون ملابس من الكتان الأبيض الذي لا يخالطه الصوف بينما يرتدي كبير الكهنة الجبة والطربوش باللون الأحمر، يصلون، ثم يذبحون الغنم والماعز احتفالا بعيد «الفصح»، الكاهن نفسه اختار أن يكون عرس ابنه في اليوم التالي لوجود فائض من اللحم يكفي القرية بأكملها التي ستحضر الفرح.

س: هل لديك شهود يؤكدون تواجدك في هذا المكان والوقت بالتحديد؟

بالطبع، فذات القرية التي حضرت بالأمس العيد، تحضر بكاملها اليوم فرجه، ليس مبالغة ولا تعبيرا مجازيا، فتعداد «السامريين» بالكامل في هذا العام الذي يجري فيه التحقيق ـ ٢٠٠٦ ـ لا يتجاوز ٧٠٠ نسمة، يخشى الكاهن كأب وككبير للطائفة انقراضهم واندثار الديانة الحق التي خرج بها بنو إسرائيل من مصر، فهو يرى اليهود كفرة، محرفين للتوراة، يتعاظم الخوف لدى الكاهن «واصف» بسبب زيادة عدد الذكور عن الإناث، ما سمح خلال السنوات الماضية بوجود زواج البدل لدى «السامريين» حيث يمنح ابنته للزواج من رجل سامري في مقابل فتاة من عائلة هذا الرجل لتزويجها لولده. لم يكن للكاهن أي بنات، فخشي أن يرى بوار شجرته في حياته، يخرج من جبل جرزيم إلى «حولون» بالقرب من تل أبيب حيث يسكن النصف الثاني من السبعمائة السامريين، يطرق باب «عابد صدقة»، يندهش الأخير من زيارة الكاهن الأكبر بنفسه لمنزله المتواضع، يدعوه للدخول، لا يطيل الكاهن فقد كان واضحا مباشرا، يطلب من «عابد» أن يزوج ابنته لابنه، يخبره «صدقة» أن ابنته ستتزوج تبادليا من إحدى العائلات التي ستمنح ابنه «سليمان» فتاتهم، لا يستمع الكاهن إلى ما قاله صدقة، يكرر رغبته في تزويج «هارون» من ابنة مضيفه، صوته لا يوحي بالتمني أو الرجاء، ورفض الرجل الأفقر لزيارة الكاهن الأكبر وأمره غير مقبولين، يهز صدقة رأسه بانهزام تعبيرا عن موافقته، يخرج الكاهن ويعلم صاحب البيت أنه بموافقته حكم على ابنه «سليمان» بالبتولية.

س: هل يمكنك أن تأتي معي؟ حدثت سرقة سيارة بالأمس ونريد أن نعرض المشتبهين على الشاهد!

سرقة سيارة! يتعجب الكاهن السامري المسئول عن أصغر الطوائف الدينية على الأرض بأكملها، لا يستسيغ أن عددًا من سيارات الشرطة الإسرائيلية يقتحم العرس قبل أن يرفع ابنه الخمار الأبيض الشفاف من على وجه زوجته لهذا السبب فقط، طالما عانى السامريون من تضييق الإسرائيليين رغم أن نبي الطائفتين هو موسى، الإسرائيليون يعتبرون السامريين مجموعة من الخوارج، والسامريون يجاهرون بكفر اليهود العبرانيين، يشككون في قصتهم عن هيكل سليمان ويرفضون ترك جبل جرزيم الذين جاءوا إليه قبل سنوات طوال.

يخرج «هارون» بصحبة الضابط، يهم الكاهن بالخروج معهما فيشير له الضابط أن يبقى محله، يجلس يتابع الفتاة ذات الشعر الأصفر الطويل وهي تدير مكعبها، تقول بالعبرية دون أن تنظر له: «حدثني والدي عن قصة مضحكة حدثت بعد حرب الأيام الستة في مصر، أن المصريين شرعوا في بناء مطار سري بعيد عن العاصمة، فلما كان المكان بعيدا عن المواصلات بدأ أحد خطوط الحافلات في العمل على توصيل المهندسين والعمال إلى المكان القابع وسط الصحراء، حين يصلون ينادي السائق بصوته الجهير: محطة المطار السري!».

لا يفهم الكاهن المقصد فيصمت ليستمع أكثر من الفتاة، تقول بذات الهدوء: «يذكرني السامريون بالأمر نفسه، سنوات من الادعاء بأنكم تملكون التوراة الأدق، رغم أنكم الأقل عددا، وكأن مؤسس الطائفة

قد ارتحل في منتصف الطريق وترك موسى، أو نُفي خارج المجموعة، مؤسسا جماعة حاولت التخفي لكنها أسمت نفسها باسمه».

يطقطق الكاهن أصابع يديه فيُصدر صوتا، يقول بهدوء: «دعيني أصحح لكِ يا طفلة، فلا زلتِ غضة وصغيرة، نسمَّى السامريين نسبة إلى سامر أو شامر؛ رجل باع أرض الجبل حيث نسكن الآن للملك عمري فأقمنا هناك».

تضحك الفتاة، تقول: «أوَلَمْ يكن من باب أولى أن تحمل طائفتكم اسم الشاري تكريما له بدلًا من اسم البائع؟! الطوائف دائمًا ما تكرم مؤسسيها بحمل أسمائهم، صاحب الدكان هو من يضع اسمه على اللافتة ومن بعده أسماء أبنائه، وليس اسم المالك القديم».

تضع المكعب على الطاولة الموجودة أمامها فتقول: «ثم دع تلك الطفلة التي تصفها تخبرك أمرا أيها الكاهن العجوز، كتابة التاريخ ظلت لوقت طويل أمرا محرما لدى السامريين باعتبارها محاكاة للكتب الدينية، فعن أي تاريخ تحدثني بتلك الثقة؟!».

يضبط الكاهن نفسه فلا يريد أن يحظى بمناظرة دينية تعقد الأمر على ابنه، يصمت ويقول لها: «سررت بمعرفتكِ.. في وقت آخر يمكننا أن نتحدث».

ترد بلهجة مهددة: «يمكننا أن نستمر في الحديث لساعات فقد يطول التحقيق، أو سنوات فربما يثبت الجرم على ابنك، فلا فرح ولا إنجاب».

يسأل الكاهن في جدية وهو يمسك بلحيته: «هذا البياض علمني الكثير.. أبرزها أنه لم يعد هناك وقت لفعل الكثير، لذلك أصبحت مباشرا مع من أتحدث.. وأمنيتي أن يعاملني الآخرون بالمثل».

تبتسم الفتاة، فقد وفّر عليها الكاهن الأمر وقرّب المسافات، بمكنها أن تَسوق العديد من الشكوك التاريخية التي تعلم أنه لن يؤكدها، بل سيبذل جهدا لنفيها، يمكنها أن تخبره عن هوسهم بالطهارة، عدم المساس، اعتزال السيدة للعالم إذا أنجبت صبيا ٤١ يوما، تزيد إلى ٨٠ يوما إذا كان المولود فتاة، يمكنها أن تخبره أن الكتابة السامرية تشبه مع التحوير في خطوطها تلك التي يسهل رؤيتها إذا ما قصدا معًا معبدا في الأقصر، تلك الخطوط خرجت مع من خرجوا من تلك الأرض، لكن الكاهن العجوز اختصر الطريق، تسأله في هدوء: «أريد ما خرج به الرجل!».

يقول الكاهن: «لا أملكه.. يمكنكِ تفتيش البيوت بسهولة، مراجعة المخطوطات»، يضغط على عباراته قاصدا: «يمكنكِ الرجوع للأسفار السامرية التي سُرقت من الكنيس الخاص بنا في نابلس قبل عشرين عاما، وقت كانت القوات الإسرائيلية مسئولة عن الحماية والتأمين».

تسأله الفتاة: «اتفقنا أن التاريخ غير مدون في الأوراق، بل في القلوب، الشهادات المنقولة شفهيا».

يصمت الرجل، يدفن وجهه بين يديه، يتنفس بصوت ملحوظ، تتسارع دقات قلبه، يقول: «لا أعرف.. صدقيني».

تكمل الفتاة ضغطها الناعم وتضيف: «لكنك تستطيع المعرفة، أليس كذلك يا جدي؟ آه، نسيت، لستَ جَدًّا بعد وتتمنى حمل حفيدك».

يصمت الرجل ويهز رأسه بالإيجاب، فتتهلل الفتاة وتقول: «سأعطيك يومين..».

بلهفة يسأل: «وابني؟!».

تقول الفتاة وهي تنهض: «سيخرج بالطبع معك لإتمام فرحه».

تُخرج من جيبها كارتًا خاصًا بها يحمل اسمها ورقم هاتفها، تضعه أمام الكاهن، تحاول أن تلاطفه بعد أن شاهد قدراتها وما يمكن أن تفعله بابنه الوحيد إذا لم يستجب، تشير إلى الخارج وتقول وهي ترسم بأصابعها في الهواء صورة الألعاب النارية: «أسمع الأصوات مثل موسى.. تماما كما جاء في سفر الخروج: ليس صوت صياح النصر ولا صوت صياح الكسرة، بل صوت غناء».

تهم الفتاة بالخروج من المكتب، تفتح الباب، فيتمتم الكاهن: «بل صوت ذنوب».

تلتفت الفتاة وتطل برأسها إلى داخل الغرفة مرة أخرى وتسأل «ماذا؟!».

يسحب الكاهن مخاطا سال من أنفه، عيناه تترقرقان بالدموع فتتحولان مع لونها الأزرق إلى ماستين، يقول دون أن ينظر لها: «التوراة السامرية ليست كالعبرانية.. في توراتنا ليست العبارة في الإصحاح: بل صوت غناء..».

ثم ينظر لها بعينيه الغائمتين وهو يسحب الكارت الخاص بها ويضيف: «بل صوت ذنوب».

(١٠)

لا تتقدم أكثر يا بهي!

ليس هناك سبل أخرى مولانا بافلوس.. الأمل الوحيد في مساندة وضح النهار الذي يضرب بصفرته الدير فلا يقتلونني..

لكن ما يضرب الدير حمرة دموية يا بني.. نبيذ مُحرّم لا يروي ولا يُسكر.. فلا صُفرة تراها عيني يا بهي.

كيف وجدت اللون الأصفر يا بافلوس؟!

لم أعهده، فصفه لي يا بني.

لون الذهب والضوء والنور..

نيران موقدة..

لطالما رآها «بافلوس» بهذه الطريقة، تريتانوبيا، عمى الألوان الذي يحيل درجات الأصفر والأزرق إلى ماجينتا، حين عرف «بهي» بالأمر للمرة الأولى بحث عنه، ثم حاول أن يتخيل العالم كما يراه معلمه الذي فتح له أول أبواب التاريخ فأخبره بزيف الكثير، شرع في تعديل صورة عبر برنامج «فوتوشوب» لكنه لم يكن واثقا من النتيجة، حينها جاءته الفكرة، أن يطبع صورا للدير كما يراها «بافلوس»، بلا لوحَي الطباعة الأصفر والأزرق، أن يجعل الجميع يرون العالم بعينَي «بافلوس»، يصور «بهي» بكاميرا فيلمية، يناوله الصور، فيمسك بها، كانت أولى تلك الصور للمعضمة وجماجمها التي يحفظ بافلوس أسماءها، لكن الراهب لم يسعد، غضب وثار، مزق الصورة، طلب نيجاتيف الفيلم من المصور وقرر إحراقه مع بقية الصور، يتمتم بأن ما فعله المصور غير لائق على الإطلاق.

الآن! لا يحمل بهي في جيبه سوى تلك الصور عدا الممزقة بالطبع، وبخاخة لن تعينه إذا ما تلقى رصاصة فاخترقت صدره هذه المرة، يصعد بدون يقين إلى حيث التقى بافلوس للمرة الأولى، تغير المكان قليلا عبر السنوات الأخيرة، وكثيرا عبر الساعات

المنصرمة، زجاج مكسور في الطريق لسيارة إسعاف تم رفعها من الطريق تمهيدا لاستقبال زوار الدير وقت القداس، وقداس لا يعلم «عاكف» مصيره، يتساءل عن الأقل ضررا.. إقامته أم إلغاؤه!

يصعد «بهي» الجبل كما صعد موسى، حيث آنس نارا، فترك أهله ليأتي بقَبَس، وقد ترك «بهي» «روث» خلفه، فلم تشاركه، وهل يمكن لأحد أن يشاركه هذا الجنون؟!

يصعد منفردا إلى حيث لاقى النبيُّ ربه.

لا تصعد..

لا تصعد يا بهي..

لن تفلح في مسعاك فهو محفوف بالمخاطر!

الموت أو السجن.. خياران وضعتهما روث فلم يجد ثالثا، وسار في طريقه، يتراءى جسده المنهك لرجال الأمن الواقفين على بوابة الدير الرئيسية من بُعد، بينما يلمح «بهي» على صدره نقطة حمراء متراقصة.. ماجينتا، يرفع نظره فيستنتج أن مصدرها قناص اتخذ موقعه في الكوة العلوية؛ نافذة كليبر بعد واقعة إطلاق النار.

في الكوة.. لا يظهر له القناص، لكن الدائرة لا تفارق المغامر الذي يسير وحيدا، يكمل خطواته في تؤدة صاعدا الطريق الجبلي، يبدو الدير من أمامه ماردا ضخما، يتضاءل أمامه كلما اقترب منه.. ويفزع كذلك.

يسمع «بهي» تلك الأصوات المشوشة لأجهزة الإرسال والاستقبال لضباط الأمن على بُعد، لا يميز ما يقال، يتقدم عدة خطوات أكثر.

لا تتقدم يا بهي!

لا سبيل آخر يا بافلوس.. هنا بدأ كل شيء، وهنا سينتهي!

يخرج الكاهن من رأسه حين يسمع أصوات تلقيم البنادق في هذا الفضاء رغم المسافة، وكأنه يخافها أيضا، فيجثو «بهي» على ركبتيه ويرفع يديه إلى أعلى وهو يتابع ارتفاع النقطة الحمراء عبر صدره إلى أعلى حتى تختفي، فيدرك أنها الآن مُصوبة حيث لا يمكنه رؤيتها؛ جبهته.

من الخوف يغلق «بهي» عينيه، آخر ما رآه.. رجال البوابة الشمالية وعدد آخر ممن يحرسون البستان وبوابته الغربية يركضون نحوه، يصيح في ظلمته الاختيارية: «عاكف بك.. أتيت لتسليم نفسي!».


YELLOW

(١)

فلماذا إذن ترك السامريَّ يرحل بكل بساطة؟!

كان يغمغم بالسؤال طوال ليلتين دون أن يعلم، ينهض «الحسن الجيلاني» فتقع عيناه على وجه لم يألفه، لا يدرك كم مر عليه من الوقت بعيدا عن هذا العالم وفاقدا للوعي، يتلفت حوله فيكتشف الطالبُ المتصوف ـ الذي قرر أن يسير في رحلته إلى الصعيد لمقابلة القرطبي ـ أنه يفترش أحد المساجد، يتهلل رجل في منتصف العمر لرؤيته على قيد الحياة، ويصيح مكبرا، ينهض الرجل قبل أن يسأله «الجيلاني» عن شيء، فيقف ويرفع يديه بالتكبير ويبدأ بالصلاة، يتوقع «الجيلاني» أنها صلاة شكر، فالزاوية التي يجلسان بها لا يوجد بها غيرهما، النور الذهبي الذي يتجاوز الشبابيك والشقوق الخشبية يخبره أنه وقت القيلولة، بين الظهر والعصر.. لا صلاة لهذا الرجل إلا صلاة الشكر.

ينهي الرجل ركعته الأولى، بينما يتحامل «الجيلاني» على نفسه ليعتدل في جلسته، بجواره عصاه وكتاب وحيد لـ«القرطبي»، تقطعت أطرافه في تعاريج دائرية يظهر فيها أثر أسنان، أسنانه! الآن يتذكر ليلته الأخيرة، تماما مثلما حدث مع نبي الله موسى، أو هكذا أحس بالأمر، وهكذا أيضا شرع في قصه على خادم الزاوية الذي انتهى من صلاته، كان الشتاء قارسا وقت أن استأذن موسى شعيبا في

العودة، فخرج بصحبة زوجته وماشيته، فشرد عن رفقتهما وتركها في ليل الصحراء والبرد، تصارع الزوجة آلام الوضع، ويحاول هو أن يضرم نارا فيعجز، فوقع بصره على تلك النار المشتعلة من بعيد، حمراء متقدة، فترك أهله، قاصدا النار، لعله يأتي منها بقَبَس لكنه عاد بما هو أكبر.. الهداية.

«في سَيْري نفقت بغلتي، وضاعت وجهتي، ونفد طعامي فشرعت آكل في كتاب التفسير الذي أحمله حتى خارت قوتي، وأصبحت أسير بلا هدى»؛ يقول الحسن لخادم الزاوية الذي يضع الرقاق والمرق أمامه ليتقوت، ويقول: «فآنست نارا.. تخرج من شبابيك هذه البناية فقصدتها».

يقول خادم الزاوية بهدوء: «لكنني لم أضرم نيرانًا يا بني، أنت في بيت الله، زاوية للصلاة، فكيف أضرم نارا في أرضيتها، أضيء قنديلها الأصفر الصغير فقط ليؤنسني».

لا بد أنها هلوسة التعب والجوع! يقنع «الجيلاني» نفسه بذلك، يشكر الخادم على حسن صنيعه، فيسأله الأخير عما ينوي، الترحال.. السفر إلى الصعيد لمقابلة القرطبي، لكنه لا يمتلك المال أو المؤن لذلك، والأهم أنه لا يمتلك الوقت، ستضيع غرفته في القاهرة بعد أن يتجاوز مهلته.

يُهون عليه خادم الزاوية الأمر، يخبره أن ثواب الترحال في سبيل العلم أكبر من التفكير في غرفته أو أمواله، يطلب منه أن يتأنى، ويعرض عليه أن يعمل في خدمة الزاوية حتى يسترد العافية والأموال اللازمين للسفر، إما للعودة للقاهرة وإما لاستكمال مشواره المنشود، يسأله «الحسن» عن مكانهما، فيجيب الخادم: «الفيوم».

في اليوم التالي، يناول «الخادم» تفسير «القرطبي» للطالب الصوفي بعد أن حاك كعبه المترهل بالخيط للحفاظ عليه، يشكره «الحسن» على كرمه وعطائه، فيقول الخادم وهو يناوله التفسير: «أثناء عملي على الكتاب في الليل.. أدهشني تفسير القرطبي للواقعة».

ـ «أي واقعة؟!».

ـ «قوله: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾».

يُقلب الحسن في المجلد الضخم بحثا عن الآية، فيما يعيد الخادم ذو الحافظة القوية ما قرأه في الكتاب، ففيه يذكر «القرطبي» نقلا عن ابن عباس ومحمد بن كعب بأن النارَ نورُ الله عز وجل، نادى الله موسى وهو في النور، وتأويل هذا أن موسى عليه السلام رأى نورا عظيما فظنها نارا، ثم استشهد بأهل التفسير الذين قالوا إن الذي رآه موسى لم يكن نارا بل كان نورا، يضيف الخادم: «ما رأيته يا بني أنت أيضا كان نورا وليس نارا»، يندهش «الجيلاني» ويسأل دون انتظار إجابة: «للأنبياء معجزات لكن لست منهم، فكيف يرى بشري مثلي النور نارا؟!».

يقول الخادم وهو ينهي الحديث: «لهذا لا أحب الكتب يا بني.. فكثرتها تُذهب العقل!».

في تلك البلدة قضى «الحسن» ثلاثة أشهر، يخدم الزاوية ويستذكر، ويساعد في أعمال الحمالة للسوق فيتدبر الأموال اللازمة، يكنزها، يُذكر نفسه يوميا بالسؤال حتى لا ينسى الهدف الذي فعل من أجله كل هذا، قبل صلاة الفجر يدخل عليه خادم الزاوية، يجده ممسكا بتفسير القرطبي المتآكل بفعل الوقت

وأسنانه، يقرر «الجيلاني» أن يُجري تجربة مع الرجل الذي لا يعتقد أنه يعرف في علوم الدين سوى حفظ القرآن، يسأله المتصوف: «هل تعلم قصة موسى؟».

ـ «ومَن لا يعلمها يا بني؟! نحن في مصر.. حيث حدث الأمر بالكامل».

ـ «أقصد قصته مع السامري».

ـ «أحفظها من القرآن بالطبع».

ـ «وتفسيرها؟».

يقول الرجل بتواضع حقيقي وهو يحاول كسر ظفر قدمه الذي استطال: «أرى أن التعمق بحر يُغرق عقل صاحبه كما أخبرتك مسبقا.. أنا مجرد خادم زاوية يا ولدي.. لست عليما أو عالما ولا أحب هذه الأمور، أحفظ الأمور وأستشعر معانيها هنا».

لن يفيده الرجل على الإطلاق، يصمت «الجيلاني»، بينما يتجهان للوضوء، يمسح الخادم على مرفقه، ويقول بدون مناسبة: «أما بالنسبة لسؤالك.. فلربما كانت إجابته فيما رآه السامري».

بتعجب يسأل «الجيلاني»: «سؤالي! أي سؤال؟!»

ـ «السؤال الذي ظللت تردده طوال ليلتين حتى استعدت عافيتك.. عن سبب رحيل السامري ببساطة.. الإجابة فيما رآه الرجل.. أولم تقرأ قوله: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾، ألم تر أن النبي لم يسأله عن ماهية الشيء الذي أبصره السامري.. ألم ترَ أنه قال بما لم يبصروا.. وليس بما لم تبصروا.. موسى لم يكن ضمن المخاطب في حديث

السامري.. لأن كليهما يعرف ما أبصره السامري أو ما يستطيع إبصاره.. أثر النبي الذي يخلق المعجزة».

ـ «تراب خيل جبريل الذي قبضه السامري بيده فألقاه في العجل ليخور».

يضيف الخادم وهو يهز كفيه في وجه «الجيلاني» فيتطاير رذاذ مياه الوضوء: «ولذلك كان جزاؤه هو اللا مساس، لا ينبغي أن تمس كفاه شيئا آخر».

يضم «الجيلاني» حاجبيه في غير اقتناع وهو يخرج من الميضأة تجاه سطح الزاوية، يستعد «الحسن» لرفع الأذان، لكنه يلتفت إلى الخادم ويسأله: «هل تقصد أن كفي السامري ظلتا تملكان نفس القدرة لذلك كان عقابه ألا تمس كفاه شيئا آخر؟».

ينظر الخادم الذي نسي محادثتهما إلى «الجيلاني» ويصيح فيه: «موعد الأذان يا ولدي».

لكن «الجيلاني» يظل واقفا، يمسك بكتفي الخادم ويهزه: «أجبني!».

يدفعه الخادم ويتجه إلى ركن السطح ويرفع عقيرته بتكبير الأذان: «الله أكبر.. الله أكبـ..»، فيشده «الجيلاني» الذي جنه فضول العلم فيسقطان على أرضية السقف اللبن، والمتصوف لا يزال يردد: «أجبني أرجوك!»، يركل الخادم الفتى المجنون في بطنه فيتألم، ينهض من فوقه ويتجه إلى ركن السطح، يسأل نفسه هل يبدأ الأذان من أوله مرة أخرى أم يكمل من حيث توقف! لم يقطعه أحد عن الأذان من قبل، يضع يده بجوار وجنته ليصنع أصداء لأذانه ويقول: «أشهد أن لا..»، يقفز عليه «الجيلاني» مرة أخرى ويتمكن

منه هذه المرة، يردد كالمجذوب: «أجبني»، يدرك الخادم أنه لن يقوى على الفتى فينصاع لأمره حتى يرفع الأذان الذي تأخر، يقول الخادم: «لا أعرف، فلم أعِش معهم، قم عني».

ـ «لكنك ألمحت إلى أن السامري ألقى بالروح في التمثال».

ـ «لم يكن هذا سحرا يا بني.. كان خلقا أو جزءا من الخلق، قدرة لم تمنح لبشر سوى المسيح والسامري، استخدمها الأول مع الموتى فأعادهم للحياة، واستخدمها الثاني مع تمثال من الجماد فصار يخور.. ألم تسأل نفسك قط ماذا كان سيحدث لو أن السامري ألقى بأثر النبي الذي رآه في ميت بدلا من الجماد؟».

يرخي «الجيلاني» قبضته مدهوشا، فينهض الخادم، يقف في ركن السقف فيجد المصلين الذين اعتادوا على صلاة الفجر يتابعون ما يحدث فيرتبك أكثر، يقرر أن يكمل الأذان من حيث توقف لكنه أمام أعين أهالي القرية في الأسفل ينسى أين توقف، يغمض عينيه ويصدح الخادم: «حي على الصلاااااا..»، فيقاطعه صوت الجيلاني صارخا لإسكاته وإسماعه: «مهرطق»، يحاول أن يتغاضى الخادم ويكمل: «الصلاة خير من النـ..»، لكنه لم يقل: «حي على الفلاح»، يقرر أن يقولها، بينما الجيلاني الذي جُن تماما يصفه بالجاهل، يتابع المصلون الأمر، يتضاحك غلامان صغيران، يقرر حينها الخادم أن يترك الأذان ويتوجه إلى «الجيلاني» وهو ينعت أمه بالزانية ليبرحه ضربا وسط صياح وتشجيع المصلين الذين وقفوا لمشاهدة ذلك العراك على مدار ساعة كاملة.. تاركين صلاتهم التي لم يُكمل إماماها الأذان.

يرحل «الجيلاني»، فلم يعد له مكان في الفيوم، يكمل رحلته

إلى قرية منية الخصيب، كان قاصدا القرطبي بسؤال وحيد بدأ من غيرته على الصوفية التي ينتمي إليها، فتحول الأمر إلى حزمة من الأسئلة بلا إجابات، لماذا ترك موسى السامريَّ يرحل؟ كيف رأى الرجل أثر النبي من تراب لامسه فرس جبريل دون غيره؟ وكيف يرى بشري مثله النور نارا؟ و...

يطرق باب «القرطبي»، يضبط نفسه، يقرأ قصار السور، ويحاول أن يهندم شعره الأشعث تحت العمامة، يمسك بطرف جلبابه ويشم رائحته، كريهة نتنة من الرحلة، سيظنه الرجل الذي يسمع خطواته من خلف الباب شحاذا أو مجذوبا، يحاول تجميل هيئته بلا جدوى، يفتح الرجل أخيرا الباب، لم يعتقد أن «القرطبي» لا يزال يافعا بهذه الطريقة، يتهلل «الجيلاني»: «الإمام القرطبي؟!».

يقول الرجل: «رحمه الله.. أنا ولده.. بمَ يمكنني خدمتك؟!».

لا يمكنه ذلك.. يلطم «الجيلاني» وجهه بهستيريا فلا يتمكن نجل المفسر الراحل من إيقاف المجذوب أو معرفة سبب نحيبه، يولول «الجيلاني».. فمن يستطيع إخراج إجابات غطاها تراب القبور؟!

(٢)

اليوم الرابع

الخميس ١٤ يناير ١٩٢٦

وفي اليوم التالي في الميعاد المعين، الساعة التاسعة والنصف صباحا، أقيمت الصلاة الاحتفالية، وحضرناها جميعا، وابتهلنا

إلى الله تعالى أن يحفظ جلالة الملك «فؤاد»، وولي عهده الأمير فاروق، وعند ذكر الدعاء لجلالته، أطلق مدفع ودقت نواقيس الكنيسة، وجميع أجراس الدير تعظيما لقدر جلالته.

مكبل اليدين بأصفاد معدنية، يجلس «بهي» في ساحة الرهبان بالدير، الواقعة بين المطعم القديم وكنيسة الشهداء الأرمن، على كرسي خشبي في مواجهة «عاكف بك»، يتلفت حوله فيتعرف على المكان، اختار «عاكف» هذه المرة مكانا مفتوحا لإدارة عملياته بالقرب من الجدار الأيمن لـ«البازليكا» (كنيسة التجلي)، ففي تلك الساحة يصعب الاختباء، جميع من رآهم الرجل الخمسيني على مدار ليلته الطويلة يستغلون السراديب، التعاريج، والظلال، لذلك اختار الساحة مسرحا لعملياته، يكتفي برجل واحد يقف بالقرب منهما لتأمين الساحة بسلاحه، يساعده في ذلك وضح النهار، بينما يوفر طاقة بقية الرجال لتأمين الدير الضخم والذي يدرك جيدا أنه لن يستطيع بما معه من عدد محدود وقلة خرائط تغطية كافة ثغراته.

يضع «عاكف» ساقه فوق الأخرى ويسأل بحزم وهدوء: «لماذا تهرب مني يا بهي؟!».

يرد بهي وهو يضيق عينيه إثر الشمس المصوبة إليه ويقول بذات الهدوء: «ولماذا تطلقون النار عليَّ؟!».

يطقطق «عاكف» أصابعه مرسلا إشارة باقتراب نفاد صبره، ويعلق: «هل سنتبادل الأسئلة؟!».

«إذن دعنا نتبادل الإجابات.. سأعطيك معلومة مقابل معلومة».

لا يحب «عاكف» أسلوب المقايضة، لكنه يجده ممكنا هذه

المرة، فالولد في قبضته مكبل اليدين، رغم ذلك يقول «عاكف» مهددا: «أستطيع استخلاص المعلومات منك بطرق أخرى أسهل».

يهز «بهي» رأسه موافقا ويقول: «لكنك أحوج ما يكون إلى الوقت.. ربما تستهلك طرقك الأسهل وقتا أطول لا نملكه».

* * *

تتقدم «روث» بهدوء صاعدة درج منارة المسجد، تفتح الباب، تجد أبا عمران جالسا فتتنفس الصعداء، لولا تزمته لارتمت في حضنه وقبلته، كانت تخشى أن يكون الرجل قد غيّر موقعه أو تم نقله إلى المستشفى عقب إصابته، كان يشرب الشاي ويعض على قطعة صغيرة من الأفيون ليُسكن ألمه، يبدو من الرباط الذي وضعه حول ساقه العارية أنه نزع الرصاصة بطريقة بدائية، فآلمته، ما إن يراها حتى يغطي ساقه بجلبابه وينهض متهللا سائلا: «روث.. أنتِ بخير! أين بهي؟!».

تقول وهي ترفع المفتاح المكتمل أمام وجهه: «سلم نفسه ليتيح لي فرصة أثناء انشغال رجال عاكف بالقبض عليه لكي أستطيع التسلل».

يضرب «أبو عمران» كفيه في أسى: «لن يتركه عاكف.. لن يتركه».

تقول «روث» وهي تجذبه من كُم جلبابه: «نحتاج إلى الدخول للمكتبة.. لقد شرح بهي لي كل شيء.. لا نريد أن نهدر ما فعله بالنحيب».

يطل الجبالي من فوق المنارة ليرى تحركات رجال «عاكف بك»، يعلم أن أغلبهم متركزون في نزل الرهبان الذين ذهبوا للراحة

لساعات قبل بدء القداس، يكتفون من تواجدهم بجوار رجال الدين، والأسوار، ويتركون الساحة شبه خالية لبقية الجبالية الذين أمرهم «عاكف بك» بتسليم أي عنصر غريب عنهم.

يتحرك «أبو عمران» فيظهر لـ«روث» عَرَج خفيف إثر إصابته، يقول لها وهو يتناول المفتاح منها: «اتبعيني».

* * *

يرفض «عاكف» عرض الفتى المكبل أمامه، يقول له ضاغطا على عباراته: «لستَ في موقف يسمح لك بالمقايضة يا هذا.. حين ينتهي الأمر سنعود بك إلى القاهرة لتقضي الكثير من الوقت في السجن».

يسأل «بهي»: «بأي تهمة؟!».

يقول «عاكف»: «ألا تعرف أن التحقيق في قضية قتل مماثلة سيأخذ وقتا طويلا.. ربما سنوات حتى تثبت براءتك؟!».

يسأل «بهي» بجدية: «أريد أن أسألك بصدق بعيدا عن تهديدك.. هل تعتقد فعلا أنني فعلتها.. ولأي غرض؟».

ينظر «عاكف» في عينَي سجينه ويقول بلهجة تقريرية: «لأي غرض! قد يكون ما تبحثون عنه وثيقة أو بردية قديمة.. مشتريها جاهز.. فتاريخ عائلتك مليء ببيع الوثائق».

تصعق الجملة «بهي» كتعذيب الكهرباء، ينتفض من على كرسيه فيسقط، تحط يد الرجل الذي يحرس الساحة بسلاحه على كتفه في قوة لتمنعه من الحركة، فتسقطه أرضا بجوار الكرسي الخشبي، أمام حذاء عاكف بك الذي لم يعد لامعا بفعل التراب، يرفع «بهي» رأسه

إلى «عاكف»، وتفر دمعة وحيدة ترقرقت في عينه اليسرى، تختلج شفتاه، يدرك «عاكف» أنه ضغط زنادا موجعا، هي نقطة ضعفه وانكساره إذن، فينهض الرجل الخمسيني ويكمل غرس سكينه: «ألم يتم تسريح والدك من العمل بعد فضيحة باع فيها الأرشيف والتراث للوكالات الأجنبية من أجل حفنة دولارات؟! ألم تثبت إدانته في التحقيق الإداري.. باعترافه؟ ألا يكفي كل هذا للشك في ابن الوز».

يبتلع «بهي» ريقه في مرارة، ألمُ الخزي والفضيحة يتراقص في عينيه، يلمحهما «عاكف»، يقول المصور بصوت مبحوح لا يخرج في البداية فيعيد جملته: «أنا ووالدي لا نتحدث منذ تلك الواقعة.. انتهى الأمر بالقطيعة».

ثم ينتحب المصور، يسحب مخاطا سال من أنفه فيصدر صوتا، يقرب كفيه المكبلتين من عينيه، لا يرغب أن يراه أحد في تلك الحال، وقد رأى عاكف معدنه، لكل معدن درجة ذوبان تحوله إلى سائل لين طيع يتخذ شكل وعائه، يعلم الرجل الخمسيني أن هذا هو وقت ارتداء قناع الطيبة، فحتى يؤتي الضغط أُكله فلا بد ألا يزيد عن نقطة معينة، وألا تزيد درجة الحرارة حد البخر، يجثو على ركبته أمام المصور ويقول بهدوء من امتلك زمام الأمور: «هل ستتعاون معي؟».

يصمت «بهي» في انكسار، فيناوله «عاكف» كوبا زجاجيا مليئًا بالماء بذات الوداعة: «أتريد كوبا من الماء قبل أن نبدأ؟!».

❖ ❖ ❖

يغلق «أبو عمران» باب المكتبة خلفه، تبحث «روث» عن زر

إضاءة فيطقطق بفمه لينهرها، يقول: «سنعتمد على الضوء الخافت المنساب من النوافذ والأبواب».

تنظر «روث» إلى الأرفف المعدنية الرمادية للمكتبة، المتراصة على امتداد طابقين يربطها سلم داخلي، تعرف المكتبة كزائرة، سمح لها «بافلوس» عدة مرات بالاطلاع على بعض الكتب التي جلبها من الأرفف بنفسه من أجل مشروعها لتوثيق الأحياء البرية في سيناء، لكنها المرة الأولى التي تخطو فيها المكتبة بدونه، ربما المرة الأولى التي يقف فيها أي مخلوق في المكتبة بدون بافلوس، لم تستطع أن تطرد فكرة أنه سيخرج من خلف أحد الأرفف ساعلا من التراب، مناولا إياها الكتاب، يسألها «أبو عمران»: «عمَّ نبحث؟!».

تخرج «روث» من جيبها ورقة تحتوي على عبارة «بافلوس» أعاد «بهي» كتابتها لها قبل تركها «تخطيط أحمد شفيق» يليها سطران من الأرقام «٢٧، ٩١٢»، «٢، ١٢٧، ٤»، تقول «روث» وهي تتنقل بين الأرفف بخفة باحثة في أرقامها: «طلب مني بهي الذهاب إليك أولا لأنني لا أجيد العربية، أشار إلى الرقم الأول وأخبرني إلى أنه يشير إلى تصنيف ديوي العشري للمكتبات على حد علمه».

تشير بيدها إلى رف كبير يحمل رقم «٩١٢»، تمر فيه وتكمل: «رغم أن محاولات كثيرة ومختلفة حاولت أرشفة المكتبة بطرق بدائية، إلا أن بافلوس كما يؤكد بهي اعتمد نظام ديوي لأنه الأسهل»، تحرك يديها بين الكتب والمجلدات التي تحتوي بطاقات صغيرة ملتصقة على الكعب تحتوي رقم التصنيف ثم رقم الكتاب، تصل بأصابعها في النهاية إلى مخطوط صغير مهترئ بغلاف من الكرتون

المقوّى، تمد يدها وتخرجه من المكتبة، مكتوب باللغة العربية، ينظر «أبو عمران» ويقرأ بصوت مسموع:

«مذكرات عن زيارة إلى دير طور سينا وطواف بالسيارات في صحراء شبه جزيرة سينا في شهر يناير ١٩٢٦».

ثم ينظر إلى اسم الكاتب ويكمل: «بقلم اللواء أحمد شفيق باشا مدير مصلحة الحدود».

* * *

يسأل «عاكف» بعد أن عاد إلى كرسيه: «أين ذهبت الفتاة التي كانت ترافقك أثناء هربكما من البرج؟!».

يرد «بهي»: «لا أعرف»، يرمقه «عاكف» بنظرة نارية فيتدارك «بهي»: «لا أعرف فعلا».

يخرج «عاكف» من جيبه جهاز التنصت الذي وجده في غرفة «بافلوس»، يضعه على فخذي «بهي» ويصمت، ينظر «بهي» إلى الجهاز الموضوع أمامه ثم ينظر إلى الرجل الخمسيني، يلمح «عاكف» نظرات الحيرة في وجه «بهي» الذي ينطق أخيرا قائلا: «ما هذا؟!».

- «ألا تعرف؟!».

يقول «بهي» بهدوء: «لقد أخبرتك عن عزمي التعاون معك.. لكنك لن تجد كل الإجابات لديَّ».

يقول «عاكف»: «إنه جهاز تنصت وجدته في غرفة بافلوس».

تنصت! لماذا يتنصتون على راهب في مهجعه.. يهز «بهي» رأسه بتعجب، قبل أن يتذكر شيئا.. رسالة صوتية بالإنجليزية بصوت «بافلوس» المتهدج.. بينها لحظات صمت طويلة.

«لم أعد أثق في أحد.. روث! الآن أكثر من أي وقت مضى يحومون حول الشيء ويريدونه.. أحتاج إلى الشخص المناسب ليساعدني».

تلمع عينا «بهي» ويقول: «لقد كانوا يتنصتون على محادثاته الهاتفية.. اكتشفت بالمصادفة أن بافلوس كان يمتلك محمولا.. أرسل منه رسالة صوتية لروث..».

يقاطعه «عاكف»: «روث؟!».

يعلق «بهي»: «الفتاة التي تبحث عنها.. روث.. باحثة بيئية، أرسل لها رسالة صوتية يطلب منها توخي الحذر، وأخبرها أن البعض يراقبه».

يسأل «عاكف»: «وأين هذا المحمول؟!».

يرفع «بهي» كتفيه ويزم شفتيه كناية عن عدم معرفته، ثم ينصح الرجل الخمسيني: «ابحث عن هذا المحمول، فبداخله العديد من الإجابات».



اليوم الخامس

الجمعة ١٥ يناير ١٩٢٦

وبعد أن خرجنا أرشدوني إلى البقعة التي صُعق فيها سيدنا موسى عليه السلام كما ذُكر في القرآن في سورة الأعراف، فصليت ركعتين شكرا لله وتحية لهذا المكان المبارك، وصلى معي مَن حضر من العرب وكنت إماما لهم حيث كانت الصلاة جماعة، أما عن مبلغ معرفة بدو سيناء للديانة الإسلامية وقواعدها فيمكنني القول بأنْ قلَّ منهم من يعرف

قواعد الإسلام الخمس، وقد اتفق أن سألت أحدهم عن مقدار ما يحفظه من القرآن الكريم فاتضح لي بعد أن ادعى أنه يعرف الكثير بأنه لا يعرف إلا سورتَي الفلق والناس.

إذن كان «بافلوس» يشير بوضوح إلى أقدم مخطوط عربي معاصر لتوثيق دير سانت كاترين، أو دير الطور كما كتب مدير مصلحة الحدود، الكتاب الصغير الذي يسميه «بافلوس» اختصارا لاسمه الطويل «تخطيط أحمد شفيق» يحكي عن رحلة أول لواء مصري يتولى المنصب بمرافقة قساوسة لتوثيق مشاهداته عن حدود سيناء الشرقية ومن بينها زيارته التاريخية للدير، والتي أصبحت مرجعا طبعتها المطبعة الأميرية في العام التالي للرحلة في طبعة واحدة نفدت تماما، ولم يبقَ منها سوى تلك النسخة المهترئة في الدير وعدد من النسخ في بعض الجامعات العربية ودور الكتب والوثائق.

تقول «روث»: «إذن سلسلة الأرقام الثانية ٢، ١٢٧، ٤ طبقا لبهي تشير إلى رقم الصفحة والسطر والكلمة».

يُقلب «الجبالي» بإصبعه الكتابَ بسرعة، ثم ينظر إلى «روث» باندهاش التي تفهم منبع دهشته دون حاجتها لمعرفة العربية، فلا أرقام صفحات مطبوعة في أطراف الكتاب.

* * *

يمسك «عاكف» الصور التي أخرجها قبلا من جيب «بهي»، يشير إليها وهو يسأل: «وما قصة هذه الصور؟».

ـ «أخبرتك.. إنها الصور التي...».

يقاطعه «عاكف» قائلا: «أعلم ما قلته سابقا.. لسنا في حصة تاريخ».

يبتسم «بهي» ويردف: «التاريخ مجرد رواية.. يسردها مَن عاصرها لمَن لم يفعل، وعلى الأخير التصديق، التشكيك ليس رفاهية».

ـ «التشكيك مهنتي».

ـ «ليتها كانت مهنة الجميع يا عاكف بك.. لكنك تبحث في أمر أصر أصحابه على تعتيمه وإخفائه ليس عنك، عني، بل عن الجميع، النبش في التاريخ سيجعلك عرضة لسهام الجميع.. ستنحصر اتهاماتهم بين الشطط والجنون أو التطرف، ولن تجد مَن يجزم بصحة الروايات.. لأنني مثلك، مجرد مستمع، لست معاصرا لما حدث».

يقول «عاكف» وهو يشير بيده إلى اسم أحمد شفيق في إحدى الصور: «هذا التاريخ يلقي بظلاله على واقعنا اليوم..».

يقول «بهي»: «لا أعتقد أن المذكور في ملحوظة بافلوس هو أحمد شفيق الذي تقصده».

باهتمام يسأل «عاكف»: «مَن إذن؟!».

يهز «بهي» كتفيه مرة أخرى، يسأل «بهي» وهو ينظر إلى الشمس التي أصبح قرصها مستعرا: «كم مضى على وجودنا هنا؟!».

بسخرية يرد «عاكف» وهو ينظر في ساعته: «هل أخرتك على موعد آخر؟!».



اليوم السادس

السبت ١٦ يناير ١٩٢٦

وفي يوم السبت، وهو اليوم السادس لقيامنا من مصر غادرنا

الدير بعد أن ودعنا جميع من به من الرهبان والعربان، حيث يحتفل الرهبان سنويا في هذه الكنيسة يوم ٣ سبتمبر لعيد سيدنا موسى عليه السلام، يوزعون فيه الطعام على من حضر من البدو.

مستحيل.. تمسك «روث» المخطوط التي لا تفهم كلماتها، تقلبها ذهابا وإيابا، تقول للجبالي: «لنعد نحن الصفحات»، يقول «أبو عمران»: «لن نجد نتيجة منطقية أيضا.. انظري إلى الرقم الثاني «١٢٧»، الصفحة الواحدة لا تضم هذا العدد من السطور».

تضع «روث» المخطوط في استياء وتسأل غير منتظرة لإجابة: «ما العمل إذن؟! كان بهي مخطئا!».

تتحرك صفحات المخطوط ببطء أمام الجبالي، فتقع عيناه على كلمة كتبت بخط أعرض من بقية المخطوط، يمسك المخطوط ويقلبه فيجد مثيلتها بعد عدة صفحات، يقول وهو يشير إلى تلك الكلمات السميكة: «هذا الكتاب مقسم إلى أيام.. انظري اليوم الأول والثاني.. جميع الأيام كتبت بخط أعرض».

تفهم «روث» ما يرمي إليه وتقول: «إذن الرقم الأول رقم اليوم وليس الصفحة.. والثاني السطر.. فاليوم الواحد يضم عددًا من الصفحات وبالتالي عددًا أكبر من السطور.. والثالث الكلمة».

يهز «أبو عمران» رأسه وهو يقلب الكتاب ويكمل: «هذا ما يفسر ضخامة الرقم الثاني إذن».

يقف عند اليوم الرابع ويبدأ في تحريك إصبعه نزولا ليعد السطور صفحة تلو الأخرى، ثم أخيرا يصل إلى الكلمة المنشودة

«المنبر»، يعيد قراءة الجملة كاملة ليتأكد، ثم يقول: «المنبر.. منبر المسجد!».

يبتسم «الجبالي»، يهم بالتحرك فتوقفه «روث» وتقول: «هناك رسالة أوصاني بهي أن أبلغك إياها إذا ما وُفقنا في إيجاد الكلمة».

يرفع «أبو عمران» حاجبيه، فتكمل «روث»: «طلب أن أخبرك بأن اليوم هو قداس سانت كاترين.. فلنحتفل بالطريقة القديمة».

يفتح «أبو عمران» فاه من الدهشة، ويغمغم: «الطريقة القديمة.. لقد جُن!».

(٣)

يتحسس «سليم» خيط الدم المنساب من رأسه وهو ينظر إلى الشمس التي تشق طريقها بين ثنايا الأخدود، يخرج حتى يقف أمام المدخل، توقفت سيارة الباحثة البيئية عن الحركة، مات محركها، بينما ينتشر الخلاء الأصفر الذي اعتاد عليه على امتداد ناظريه، من خلف السيارة يظهر له ذئب سينائي عجوز، دأب أسلافه على اصطياده حتى أصبح وجوده أمرا نادرا، ربما كان آخر سلالته، خرج بحثا عن طعامه، أو زهدُه فيما بقي من حياته هو ما جعله لا يخشى بنادق البدو ليقف أمام «سليم» في وضح النهار، ينظر له البدوي المحترق بثبات، شرر مستعر يتطاير من عينيه، بينما ينظر الذئب إلى تلك الجيفة المحترقة المشوهة التي تسير على قدمين، ويقرر أن الغنيمة لا تستحق المخاطرة والقتال، فيسير في هدوء مبتعدا عن سليم.

يُخرج «سليم» من جيبه هاتفَه المحمول، مازال هذا الجهاز القديم يصارع مثله، عزيمتهما للبقاء على قيد الحياة متشابهة، يطلب رقما لأحد أعوانه قبل أن يعلن الهاتف مماته، ويصف له موقعه بالضبط طالبا أن يقله، يتجه إلى سيارة الباحثة البيئية، يفتح الباب ويجلس بداخلها في انتظار رفيقه، كما توقع بالنسبة لمؤشر الوقود، يفتح الأدراج الصغيرة الموجودة في السيارة، يحرك الشماسة البلاستيكية العلوية بحثا عما يفيده، تسقط من الأعلى بطاقة هوية تخص مقر عمل الفتاة، شعرها أطول، يبدو أنها التقطت الصورة منذ عدة سنوات، يتحسس «سليم» الشعر الأصفر البلاستيكي، ثم يطبق يديه على بطاقة الهوية المؤسسية.

يصل رفيقه في سيارة صحراوية، فيترجل «سليم»، يلمح في عينَي تابعه من أبناء القصلة تلك النظرة الشاخصة المتسائلة عما حدث لجسده الممتلئ بالفقاقيع البيضاء التي تتناثر بين جلد أسود احترق وآخر تم شيه فتوهج احمرارا، يركب «سليم» بجواره، يحتاج قسطا من الراحة، يطلب منه التوجه إلى البستان، فينطلق الأخير.

في السيارة يطلب رقما ثانيا، لا يجيبه، فيكرر المحاولة عدة مرات، يرى أن الطرف الآخر قرر عدم قبول أو استقبال الاتصال، فيستميت في المحاولة، حتى يرد في النهاية «فيّاض»، يأتيه صوت الرجل غليظا صارخا قبل أن ينطق البدوي: «ماذا تريد يا سليم؟ ألا يكفيك ما فعلته يا حيوان؟ بسبب أخطائك سأضطر لإكمال الطريق بنفسي، كل هذا لأنك قتلت الراهب يا غبي».

تأبى الكلمات في حلق «سليم» الخروج، لكنه في النهاية يقول بخوف: «لكنني لم أقتل أي قسيس في الدير».

تتصاعد وتيرة التوبيخ فيقول «فيّاض»: «كفاك كذبا يا حيوان..».

ـ «لم أفعل.. صدقني.. ورحمة والدي لم...».

يقاطعه «فيّاض» محذرا: «لا تحلف بهما، فهما لن يطيقا الانغماس في نار جهنم بسبب قسم كـاذب.. أتعتقد أنهما قد يتحملان النار مثلك؟ هل سيصمد جسد أمك أمام اللهب؟!».

يصمت «سليم»، يعض على شفته السفلية حتى ينساب الدم منها، ينظر له رفيقه لكنه لا يقدر على مقاطعته، يردف «فيّاض»: «ما أريده منك الآن أن تتوقف.. لا تفعل شيئا، لم أعد بحاجة إلى خدماتك، أشعر بالخزي لفشلك يا سليم».

ثم ينهي المكالمة، يعلم «سليم» أن الخط انقطع لكنه كغريق ينادي: «آلو.. آلو.. يا حاج!».

لقد لفظه الرجل الذي احتضنه لسنوات، «الحاج» كما كان يدعوه، وجده يتيما فعامله كطفله، ومضطربا يقضم أظافره وينزع جلده ثم يحرق جسده فلم يمنعه كما حاول الآخرون، بل علمه أن الاحتراق إيمان وتطهر، والآن يفقد ثقته به، يشعر «سليم» بآلامه تزداد بسبب ذلك، يقول الحاج أنه شعر بالخذلان ويلعن «سليم»، فيلعن «سليم» ذاته أكثر، لم يكن يريد أن يخذله قط.

حتى وصلا مدخل البستان كان صوت الهواء العاصف بالزجاج هو الوحيد الذي يغلف السيارة، لم ينطق البدوي المحترق ولم يجرؤ رفيقه، يترجلان فيتصاعد صوت من مدخل البستان بأنشودة يتغنى بها أحد العجائز ممسكا بسمسمية بدوية ذاتية الصنع؛ فرعين من الخشب يخترقان صفيحة زيت صدئة بينما شُدت الأوتار على

غطاء معدني لعلبة تونة قديمة لخلق مسافة بين الأوتار والصفيحة المعدنية، بصوت مشروخ يحدو العجوز:

«يا علي يا جوز سارّة

عندنا كلب المضرّة

ياكل اللي ينام برّة».

يدرك «سليم» أنه موسم جني الزيتون قبل أن يخطو إلى داخل البستان، لا تُواتي صحةُ المُنشد العجوز لفعل ما كان يفعله مع عائلته منذ سنوات فيكتفي بأنشودة الحصاد أمام نار أشعلها لتدفئه من برد الشتاء، لتشجيع صغار العائلة، يخطو فيتأكد أنه غريب عن المكان والبستان، دخله خلسة مرارا وقطف من أطيابه لكنها المرة الأولى التي يدخل فيها المكان في وضح النهار بصدره العاري، يصيح أحد مشايخ البستان في رفيق «سليم» بمجرد أن رأى الأخير: «ما الذي أتى بولد الكلاب هنا؟».

يقول رفيقه من أبناء القصلة والذي يعمل خادما في البستان محاولا التبرير: «اشتعل جزء من سيارته وهو فيها ويريد العلاج».

بنفس الجفاء يقول شيخ البستان: «فليتعالج بالخارج.. أو ليُلقِ بجسده المُشوّه في عين مياه «الجاط الأزرق»، فهي للجميع، أبناء القصلة والمُخنثين».

يُوقِن «سليم» وقتها أن التمدد على العشب الأخضر ليس بعلاج لحروقه، أو بتعميده في عين المياه الزرقاء، علاج حروقه في إحساسه بضآلتها، في الانغماس في النار حتى يغدو الألم معدوما، لن يقبله هذا المجتمع مهما فعل، كما حدث خلال سنوات حياته القصيرة، يلفظه البدو، والسيدات الشبقات العجائز، حتى الذئاب

الجائعة تنفر منه كذلك، يلزمه أن يعيد ما افتقده ليغدو ملكا في عالمه المثالي: رضا «فيّاض» وثقته. يمشي بهدوء تجاه المنشد العجوز، يخطف منه آلته الوترية وسط صياح شيخ البستان وسِبابه، يغمس الآلة الوترية في النار ويرفعها فتكوّن مشعلين برأسين، يرفعهما عاليا ثم يهوي بهما على ظهره فيهدأ، يصمت شيخ البستان وجماعته أمام ما يرونه، يتحرك «سليم» بذات الهدوء خارجا من باب البستان، يفتح قبضة يده التي لا تحمل المشعل ويناول رفيقه بطاقة الهوية المؤسسية لـ«روث» ويقول: «لدينا منبوذون يختبئون بين رمال الصحراء، أريدهم أن يبحثوا عنها وعن الرجل الذي يصاحبها، أن ينشروا الخبر بين القبائل ليعلمونا إن رآهم أحد، فلنجعل سيناء بأكملها عسسًا».

(٤)

ينتهي «أبو عمران» من وضع البارود اللازم، تتساءل «روث» مذعورة وهي تقف بجواره في أحد بُرجي السور الجنوبي الخالية من القناصة ناظرة إلى المدفع العتيق: «ماذا تفعل؟!».

بشعور يعتريه القلق والتردد يجيبها: «نحتفل بالطريقة القديمة»، يمد يده ليشعل فتيلا وهو يقول مسرعا: «سيكون أمامنا عدة دقائق حتى نفعل نفس الأمر في المدفع الموجود على الجهة الأخرى»، تصرخ «روث»: «مدفع.. هل فقدت عقلك؟!».

هكذا كانوا يحتفلون بقداس القديسة كاترين قديما، عدة طلقات مدفعية كافية لرج أبراج الدير، يتكرر صداها بين قمم الجبال، كانوا

يفعلون الأمر ذاته حتى وقت قريب أيام الملك في الصلوات الاعتيادية التي يدعون فيها لجلالته، ثم توقف الأمر منذ ما يقارب ثمانية عقود. لم ير «أبو عمران» هذا الطقس الاحتفالي، لكنه يملك صورة لوالده وهو يضرب أحد المدافع في مدخل الدير قديما التقطها أحد المستشرقين، يحرص على صيانة ونظافة المدافع التي يعود تاريخها إلى الدولة العثمانية رغم عدم استخدامها، لكنه لا يعرف إن كانت لا تزال على قيد الحياة. تسأله «روث» وهي تركض بجواره: «أهي مدافع صوت فقط؟!»، يرد «أبو عمران»: «الكثير منها حربي.. الدير به أيضا مخزن للأسلحة العتيقة يا سيدتي»، تصيح «روث»: «حربية!»، يعلق «أبو عمران» وهو مستمر في الركض: «وهل تعتقدين أن الدير تمكّن من الصمود أمام أي اعتداءات بواسطة حفنة من رجال الفلاخ فقط! أعتقد أن ما أشعلته للتو مدفع صوت احتفالي.. هلمي لنشعل الثاني».

_ «تعتقد؟!».

يقول «أبو عمران» وهو ينتهي من إعداد المدفع الثاني ويشعله قاصدا مدفعًا ثالثًا في الركن الشرقي: «لم أشهد إطلاق المدافع من قبل.. هذا هو ما سنراه».

«وكيف ستؤثر تلك الطلقات؟!».

يصلان إلى المدفع الثالث فيفعل الجبالي الأمر ذاته ويقول: «وهل يتوقع أحد غيرنا أن تنـ..».

يقطع جملة «أبي عمران» صوتُ انفجار ضخم، يهتز السور قليلا ويتساقط بعض التراب الجيري وصخرة صغيرة أعياها الصمود في السقف العلوي.

يرتج الدير بفعل صوت المدفع، سحابة ترابية تسبح في أرجاء الدير كمن دق ناقوسًا يعلوه الثلج فانهار مخلفا انهيارا جليديا، ينتفض الأب «إيوانيكيوس» في مخدعه، ويفيق المترجم «نستور» من قيلولته، ويلتفت رجال عاكف المنتشرون في كل مكان، يشعرون أن هجوما إرهابيا حدث، بينما يتنفس «بهي» الصعداء، إنه الموعد المرتقب، ينهض «عاكف» مذعورا، يشير لرجله الذي يؤمّن الساحة بالتحرك لاستطلاع الأمر، بينما ينكس «بهي» رأسه في هدوء، ذلك الذي يسبق العاصفة، أو القذيفة الثانية، يتمنى «بهي» أن ينجح «أبو عمران» في إشعال الثانية، يركض رجل «عاكف بك» ليخلي الساحة لهما، بينما يضع الرجل الخمسيني يده على زر جهاز إرساله ليسأل عما يحدث، وقتها لاحظ هدوء «بهي»، لمح ابتسامة خفيفة رغم رأسه المنكس، يرفع إصبعه من زر الإرسال، يمشي بغضب ناحية المصور، الذي ينتظر إشارة، ترتج الأرض مرة أخرى، ويصم الصوتُ الآذان، أقرب هذه المرة، لا بد أن هذا المدفع في الجزء الجنوبي الشرقي، تهتز الأرض فتؤثر على حركة «عاكف»، فينهض «بهي» كثور طليق، بقرنيه ناحية المصارع الإسباني، ينطح «عاكف بك» فيسقطه أرضا، وينطلق راكضا، أذناه تُصفران من أثر القذيفة، ويداه مُكبلتان، لكنه يركض بأسرع ما يمكن قبل أن ينهض «عاكف» أو يُخرج سلاحه، يشق طريقه شمالا قاصدا المئذنة، المكان الذي اتفق فيه مع «روث» للقائها، تنطلق قذيفة ثالثة، لا توجد حاجة لتلك القذيفة، لكن ربما شك الجبالي في انطلاق القذيفتين الأوليين، ينهض «عاكف» فيجد أن المصور قد اختفى، فعلها في وضح النهار، يلعنه، يتأكد في قرارة نفسه أن ما حدث ليس هجوما، مجرد محاولة ناجحة من الفتى للهروب،

ساعده أحدهم عليها، يأتيه صوت في جهاز إرساله مؤكدا: «عاكف بك! أحدهم أشعل مدافع الصوت».

يقترب «نستور» الذي بدّل ملابسه على عَجَل من المطران «إيوانيكيوس» ليطمئن عليه ويخبره بما حدث، ينظر له الأسقف ويقول: «لن يمر اليوم على خير يا نستور».

في الخارج.. ينظر عدد من السياح فوق جبلَيْ موسى وكاترين تجاه مصدر صوت القذيفة، يُخرج أحدهم هاتفه المحمول بعد صوت القذيفة الأولى ويوجه كاميرا تصوير الفيديو صوب الدير، فينجح في التقاط مقطع يضم صوت القذيفة الثانية والثالثة، يتوتر السياح ويتهامسون فيما بينهم، يلمحون ذات الحيرة في أعين البدو الذين يعملون كأدلة أو جمّالين، فيزيدهم الأمر قلقا، يفتح السائح موقع «تويتر»، يتأكد من شبكة الإنترنت، وينتظر تحميل الفيديو، يصحبه تعليق عن دويّ أصوات قذائف من الدير، يتابع أحدُ المصريين ما يفعله السائح، يقوم بمشاركة رابط الفيديو عبر صفحته هو الآخر مضيفا تعليق: «سانت كاترين الآن.. ربنا يستر»، محدثا كرة من الثلج تتعاظم نزولا من الجبل في طريقها إلى الدير.

يعود رجال «عاكف» كلٌّ إلى موقعه، بينما يرى «بهي» المئذنة أمامه، يمر بجوار المسجد الذي طالما قال عنه «بافلوس» إنه عمل شجاع، فيجد بابه مواربًا، تمتد يد لتمسكه، يلتفت، فإذا به «أبو عمران» وبجواره «روث».. التي تتناسى مكانها، فتضم رقبة «بهي» بذراعيها لتحتضِنه فرحة بعودته، بينما يعجز «بهي» عن الابتسام خوفا من تجهم الجبالي داخل المسجد!

(٥)

يفتح «عاكف» فمه على اتساعه عدة مرات علّه يعالج الطنين الذي يعاني منه في أذنه، يستخدم خنصره في فركها كعامل مساعد، فيما يصله تقرير على جهاز استقباله بعدم وجود خسائر، يصيح «عاكف»: «أريد ابن الكلب أمامي..».

يسأل أحد الرجال عبر جهاز الإرسال: «هل نترك مواقعنا للبحث عنه يا افندم؟».

لا.. لا يمتلك عاكف تلك الرفاهية؛ لذلك يصمت قليلا للتفكير، يمر من أمامه «إيوانيكيوس» و«نستور»، يهمس أسقف الدير إلى مترجمه وهو يشير إلى «عاكف»، ثم يتركه ويسير إلى داخل كنيسة التجلي بينما يترجل «نستور» ناحية الرجل الخمسيني ويسأل بلغته العربية المكسرة: «يستفسر الأسقف بخصوص القداس فأنت لم تبلغه بقرارك بعد!».

تتراكم الأسئلة أمام الرجل الخمسيني فتتجاوز الجبال طولا، لا يبحث «عاكف» الآن سوى عن معجزة أو إلهام يعينه، لو أن الرب يتجلى لجبل أسئلته فيجعله دكا، قبل أن يجيب «عاكف» يستمر «نستور» في كشف المزيد من القمم على جبل الأسئلة، فيسأل وهو عاقد كفيه ببرود معتاد: «هل عرفتم كيف تم إطلاق الدانات؟».

يهز «عاكف» رأسه بالنفي، فيقول الرجل وهو ينظر في الفضاء بطريقة حالمة: «لقد ذكرني الأمر بما حكاه لي الأب إيوانيكيوس قديما عن تلك الطريقة في الاحتفال بالقداس.. أيام!».

لا يعيره «عاكف» اهتماما، فما يشغله أكبر من انشغال مترجم

بأيام خوالٍ لم يرها وكأنها أفضل أيام التاريخ على الإطلاق، يلحظ «نستور» ذلك فيعاود سؤاله الأول: «ماذا بخصوص القداس؟!».

على البوابة الشمالية يمر الرجل الأصلع للتأكد من أن كل رجال عاكف في مواقعهم، يشير له حارسا البوابة نحو سيارتين ميكروباص تسيران بتؤدة في الخارج، يقود كلًا منهما بدوي، يرفع السائق الأول يده من خارج الشباك تعبيرا عن التحية والسلام، بينما يتقدم بسيارته بهدوء تجاه المنطقة المخصصة لوقوف السيارات، يقول الأصلع لحارسَي البوابة: «استعدوا!».

لم يتلقَّ «عاكف» إشارة ربانية أو إلهامًا إلهيًّا منتظرًا، لكن هاتفه الخاص تلقى اتصالا، ينظر إلى الرقم ويجيب فيصله الصوت مُستاء: «ما الذي يحدث عندك عاكف بك؟! القيادة السياسية تتابع ما يحدث وتقترح أن تلغي القداس حالا».

تقترح! اختار الرجل كلماته بعناية حتى لا يخبر عاكف مباشرة بضرورة إلغاء القداس، الكلمات في تلك المواقف تحمل أكثر مما يظهره سطحها، وكأنها أكواد كُتبت بعناية، في السياسة تحمل الكلمة أعمق من معناها المباشر: نشكرك على ما فعلته تعني أن سنوات خدمتك انتهت وأنك فشلت في مهمتك الأخيرة. نحتاج الاستفادة منك كمستشار لـ... تعني أنك فُصلت من الخدمة بشكل لائق. و«نقترح» تعني بالطبع نفذ الأمر فورا.

هكذا يفكر عاكف الذي يحتل موقعا في قمة الهرم المؤسسي، يفهم من المكالمة أن أداءه بات موضعا للتشكيك، ربما تعصف تلك الحادثة بتاريخه المضيء، يعود إلى القاهرة فيتحول إلى نسيٍ منسي، يقول بأداء رجل واثق يمكنه تولي الأمر: «لم يحدث شيء».

يجيبه الطرف الآخر على الهاتف: «عاكف بك.. فيديو أصوات القذائف منتشر على مواقع التواصل الاجتماعي!».

تتوقف السيارتان أخيرا.. ينزل من السيارة الميكروباص الأولى البدوي، لا يزال رافعا يديه، بينما يُفتح الباب الجرار فتنزل منه سيدة، يتبعها ثلاثة رجال أحدهم يمسك بكاميرا كبيرة، يصيح البدوي في الأمن الذي يقف في وضع الاستعداد: «إنهم أجانب.. مراسلو وكالة الأنباء الأجنبية المكلفة بتغطية القداس.. اتصلوا بي وطلبوا أن يأتوا مبكرا بعد صوت الانفجار»، بالمثل ينزل فريق تصوير آخر من السيارة الثانية، ينظر حارسا البوابة للرجل الأصلع في انتظار الأوامر، فيصيح «الأصلع» للبدويين والأجانب: «فلتبقوا بأماكنكم حتى أعود»، يتبرع البدوي بالترجمة للفريق بينما يهرول «الأصلع» إلى الداخل.

لا يشعر «عاكف» بارتياح في وقوف «نستور» أمامه انتظارا لرده ومتابعا الاتصال الهاتفي في الوقت عينه، لا يستطيع أن يأمره بالابتعاد فهو الضيف في المكان، يتحرك خطوات مُديرًا ظهره إلى «نستور»، يقول «عاكف» في الهاتف: «هل تأكدتم من الفيديو؟ نحن نعيش في عصر الفبركة الإعلامية».

هنا يقرر الرجل الدمث الذي يحدث «عاكف» أن يكشف كل أوراقه حتى لا يعمي الغرورُ الرجلَ الخمسيني، فيضيف بهدوء جملته الأثقل: «عاكف بك! لقد استشهد أحد رجالك ونُقل بالهليكوبتر إلى القاهرة.. ما الذي تنتظره بعد؟!».

ينادي «الأصلع» رئيسه، فيلتفت له «عاكف» ويشير بكفه أن ينصرف الآن، لكن «الأصلع» يصر، يستأذن «عاكف» محدثه

لدقائق، يضغط زرا يمنع وصول حديثه مع رجله الأصلع إلى المتحدث عبر الهاتف، يسمح لرجله الأول بالحديث، فيخبره أن القنوات الإعلامية تقف في الخارج للسؤال عن الأمر، ثم يسأله: «هل ننفي انطلاق قذائف؟».

وكأن الجبل في حاجة إلى مزيد من الأسئلة! هذه المرة السؤال في غير محله، نفي! نفي دوي مدافع داخل الدير سمعه الجميع وصوّره البعض، يا له من غبي ضيق الأفق يخفي تحت صلعته عقلا لا يدير الأمور بالشكل الأمثل! ينظر «عاكف» إلى الهاتف في يديه، ثم إلى عينَي «الأصلع» وابتسامة «نستور»، يتخلى عن كل ذلك ويصعد قمة جبل أسئلته، ينظر إلى السهل الفسيح أسفل منه باحثا عن إجابات، فلا يجد سوى شامتين في فشله، يصارح نفسه؛ إذا ما ترك المهمة الآن فقد فشل أيضا، فمحدثه المفزوع من فيديو دويّ المَدافع لا يعلم شيئا عن التهديد بنشر اتهام الراهب القتيل لـ«أحمد شفيق»، لا يمكنه التوقف الآن، إن كان الخيار بين عملية فاشلة أو انتحارية.. سيختار الثانية.

هل يفعل كل ذلك من أجل غروره الشخصي؟ لا يمتلك عاكف تلك المكاشفة مع النفس بعد؛ لذا سيكتفي بوضع هذا السؤال جانبا ونزول جبل أسئلته مسرعا، يتجه إلى «نستور» ويجذبه من يده وسط دهشة الأصلع، يهرول ساحبا المترجم تجاه كنيسة التجلي، يفتح بابها، ينظر إلى «إيوانيكيوس» ويقول: «أهكذا كنتم تحتفلون بالقداس قديما؟!».

يهز الأسقف رأسه، فيقول «عاكف»: إذن فلنفعل ذلك مرة أخرى أمام الإعلام بالخارج».

يضغط زر إلغاء حجب الصوت ويقول لمحدثه: «الإعلام الأجنبي بالخارج.. لن أستطيع إلغاء القداس.. سيكلفنا هذا الكثير من الشائعات والتأويل».

يقول محدثه: «لكن الاقتراح من الإدارة السياسية يؤكد أن...».

يرد «عاكف» بلهجة حازمة: «أبلغ الجميعَ أن حياتي رهن خروج القداس بالشكل الأمثل».

ينهي المكالمة وينتظر قليلا، ينظر في عينَي «إيوانيكيوس» الذي لم يفهم ما يدور عبر الهاتف، يهز المطران رأسه لبث الطمأنينة، كما كان يفعل مع عموم الحُجاج والمصلين والتائبين والخائفين، وأمامه رجل يحمل من الخوف ما يكفي لسنوات، يطمئن «عاكف» بنظرات الأسقف، يخرجان معًا، يلحق بهما نستور، يشير «عاكف» إلى الأصلع أن يكمل عمله وأن يبحث عن المصور، بينما يتجه بصحبة الأسقف إلى البوابة الشمالية، يخرجان منها، فيقول الأسقف ببشاشة مصطنعة إلى الكاميرات المصوبة للخارج: «أشكر قلقكم يا سادة.. كنا نُجري تجربة على مدافع الصوت التي سنطلقها قبل القداس الليلة كما كان يُجرى الاحتفال قديما.. ولا يمكنني أن أخبركم بمقدار سعادتي بالأمر.. يمكنكم البدء في التوافد وإدخال الكاميرات استعدادا لهذا الحدث العظيم».

تلتقط الكاميرات كلمة الأسقف المترجمة، ثم يشرعون في الانتهاء من إجراءات التفتيش والدخول إلى الدير. يلتفت «عاكف» إلى الأسقف الذي يقف بجواره مُعبرا عن مشاعره المتضاربة من الشكر والعرفان والقلق والخوف: «لقد أصبحنا وحدنا في هذا الآن».

ثم يتنهد ويكبش من جبل أسئلته للأسقف علّه يطمئنه ثانية: «هل ستتجاوزه نيافة الأسقف؟».

يشير «إيوانيكيوس» إلى السماء بإصبعه، فيرفع «عاكف» رأسه حيث نظر قبله الأنبياءُ والصالحون بحثا عن إجابات شافية.

(٦)

يسعل «أبو عمران» فيعدل «بهي» من وقفته، يرفع ذراعي «روث» من فوق عنقه، يشير «أبو عمران» إلى حذاء «بهي»، يخلعه الأخير، يمتعض من حفاظ الجبالي على الطقوس الدينية رغم ما هم فيه، يسأل «بهي»: «ألا يفترض أن نلتقي في المئذنة؟».

يرد «أبو عمران»: «قادنا مخطوط أحمد شفيق إلى هنا.. منبر المسجد».

يخطو الجميع إلى الداخل، المسجَد الصغير الذي لا تتجاوز مساحته مائة متر مربع كان فيما سبق كنيسة قديمة، مُهملٌ من قلة رواده، تفوح منه رائحة التراب والعطن، ينظر «بهي» إلى تحفتَي المسجد؛ الكرسي الهرمي المقطوع، يمرر يده على أحد جوانبه فيتحسس نقشا كوفيا: «مما أمر بعمل هذا الأمير الموفق المنتخب منبر الدولة وفارسها أبو المنصور أنوشتكين الآمري»، يلتفت «بهي» ناحية المنبر، بمدخل نصف دائري مدبب، يرتفع نحو مترين ونصف المتر، يصعده «بهي» وهو يتحسس الخشب بحثا عن درج خفي، يتوقف عند قمته حيث لوحة خشبية كتبت بالخط الكوفي: «نصر من الله وفتح قريب، لعبد الله ووليه أبي

علي المنصور الإمام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين، وذلك في شهر ربيع أول سنة خمسمائة»، ينظر «بهي» من فوق المنبر إلى «روث» ويقول: «الآمري كما أخبرتكِ.. وليس العمري، ستجدين الأدلة وبعض الكتب الخاصة تصفه بالمسجد العمري، نسبة إلى عمر بن الخطاب أو عمرو بن العاص ليكسبوا البناية هيبة أكبر، أما حفظةُ التاريخ مثل أبي عمران سيصفونه بالآمري نسبة للحاكم بأمر الله.. لكن في الحقيقة هذا المسجد تأسس بعد الحاكم في عهد أمير فاطمي يسمى الآمر بأحكام الله، أمر بهدم الكنائس فأحسن الرهبان التصرف والتخفي خوفا منه، أنوشتكين المنحوت اسمه على الكرسي وزيره».

ينزل درجات المنبر ويقول: «لكنني لا أجد شيئا يثير الاهتمام هنا يا أبا عمران.. أمتأكد من الكلمة؟!».

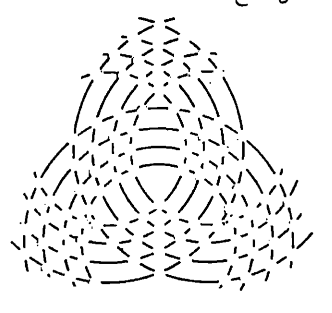
يحوم «الجبالي» و«روث» حول المنبر في محاولة لإيجاد أمر خفي في هذا المنبر، تقول «روث»: «هذا المنبر لا يُظهر شيئا».

يفكر الجبالي قليلا ثم يدفع المنبر بكامل قوته وهو يقول: «لا يُفترض أن يظهر شيئا.. يُفترض أن يخفي شيئا!».

يتزحزح المنبر قليلا فتنكشف خلف الحائط علامة معدنية، أنصاف حلقات معدنية في ثلاثة مستويات مختلفة، تبرز قليلا من الحائط، يقترب «بهي» و«روث» من تلك العلامة، أربعة أنصاف دوائر تتقاطع مع مجموعتين أخريين من أربعة أنصاف الدوائر، تكوّن ثلاثتها معًا رمزا مميزا، تهمس «روث»: «الثالوث المقدس»، لا يندهش «بهي»، فالبناية كانت كنيسة، والبناء الوحيد الذي ألحق بالمسجد هو المئذنة، كان الثالوث يحتوي في تقاطعاته على أرقام

عشوائية غير مترابطة، ٥٢ رقما في تقاطعات أنصاف الدوائر المثقبة في مستوياته المختلفة لتسمح بتلك التقاطعات الاثني عشر، تحتها على الحائط كتب بخط كوفي صغير «عمل شجاع».

ينضم «أبو عمران» للمصور والباحثة، تسأل «روث» «بهي» عن المكتوب بالعربية، فيخبرها، تعلق: «كما كان يخبرك بافلوس.. هذا المسجد عمل شجاع».



يفكر «أبو عمران» قليلا ويقول: «لم يكن وصفا للعمل، بل اسم صاحبه.. شجاع، أبو كامل بن شجاع، عالم رياضيات وحساب مصري مسلم، رغم أن أعماله كانت معروفة إلا أن جميع كتب التراجم ذكرت أمرا مشتركا عن حياته.. أن الغموض يحيطها!».

يعلق «بهي»: «لا أعرفه!».

يستطرد «أبو عمران»: «شرحَ أعمالَ الخوارزمي وأضاف لها وكان أعظم رياضيي عصره، كتابه ذائع الصيت الذي ربما سمعت به اسمه الجبر والمقابلة، كان شغوفا بالهندسة والعلاقات بين الأشكال الحسابية مثل المخمس والمعشر».

ثم يصمت قليلا ويقول مرتبكا: «لكن.. هذا الرجل عاش قبل عصر الآمر بفترة فكيف تمكن من بناء المسجد؟!».

ترد «روث»: «أنت أجبت.. كان تاريخه غامضا.. ربما لم يكن تاريخ مولده ووفاته دقيقين ككل ما مررنا به هنا».

يعلق «بهي»: «أو ربما لم يبنِ المسجد.. بنى هذا الحائط فقط، أو ما خلف هذا الحائط، فحتى لو كان تاريخ هذا المبنى كنيسة، فلن يقع الرهبان في خطأ وضع ثالوث مقدس داخله فيراه الحاكم الفاطمي المتعصب، لا بد أن العالم المسلم استخدم شكلا هندسيا إسلاميا».

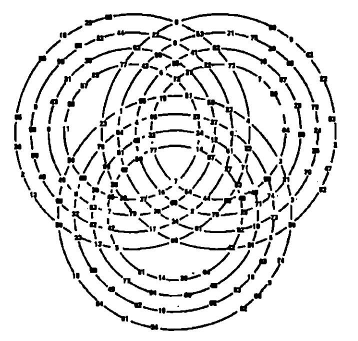
«الدائرة!»، تتمتم «روث».

فيما يتجه المصور إلى أحد أركان المسجد حيث تستقر طفاية حريق صغيرة، يحملها، يرفعها في وضع أفقي كدانة مدفع، ويهم بطرق الحائط بها، يسأله «أبو عمران»: «ماذا تفعل؟!».

يطرق «بهي» الحائط ويقول: «إن كان هذا الشجاع عالما رياضيا مهتما بالهندسة، فالثالوث المقدس ليس شكلا هندسيا».

تتساقط كتلة من طبقة الطلاء الجيري الذي يحمل اسم شجاع على أرضية المسجد لتكشف عن بقية الشكل، اثنتا عشرة حلقة معدنية في مستويات ثلاثة فتبدو وكأنها متداخلة، الحلقات في المستويين العلويين مثقبة للسماح برؤية الأرقام في نقاط التقاطع،

بينما تدور الدوائر بفعل قوى مغناطيسية دقيقة منبعها كل حلقة حول محور وهمي، وكأنها مدارات كواكب، اثنتا عشرة حلقة، تحمل أرقاما عديدة، يزيد التراب المتبقي بيده وهو ينظر إلى «روث» ويقول: «الشكل الهندسي الإسلامي».



لقد صنع تداخلا عبقريا، أَهِلّة ودوائر إسلامية تضم داخلها الثالوث المقدس، تحرك «روث» يدها على إحدى الدوائر المعدنية تلفها حول محورها لتتغير الأرقام الموجودة في التقاطع، تصيح «روث»: «إننا أمام خزانة معدنية!».

يقول «أبو عمران»: «خزانة حسابية رقمية، مربع سحري كمربعات الغزالي!».

يسأل «بهي»: «لم أكن يومًا ضليعا في الحساب.. فما هي المربعات السحرية؟».

تقول «روث»: «أتدري لعبة الأطفال الشهيرة التي ترسم فيها مربعا من تسع خانات، تطالب اللاعب بوضع الأرقام من ١ إلى ٩ بحيث يكون مجموع الأعمدة أو المحاور أو الأقطار متساوية وتساوي الرقم ١٥؟».

يهز «بهي» رأسه ويقول: «نوعًا ما، لكنني لم أكن متميزا في ذلك أيضا».

ترد «روث» وهي تشير إلى تقاطعات الدوائر: «نحن أمام خزانة تعتمد على ستة مربعات سحرية تظهر في تقاطعات الدوائر، تحتاج في ترتيبها إلى أن تكون جميع محاورها وأعمدتها وأقطارها تحمل نفس الرقم، أي نحتاج لتكوين نفس الرقم ١٠ مرات في كل مربع».

يقول «أبو عمران» وهو يتناول القطعة الجيرية التي كسرها «بهي» بالطفاية، وتحمل اسم «شجاع» على أحد وجهيها ويقول بنبرة يائسة: «بل ٥٢».

تسأل «روث»: «ماذا؟».

فيجيب أبو عمران وهو يشير إلى خط صغير في الجهة الخلفية للطلاء مكتوب فيه سطر واحد «٤ أعمدة، ٤ محاور، قطران، ٦ أقطار مكسورة، ١٦ مربعا ثنائيا ٢*٢، ٤ زوايا مربعات ثلاثية ٣*٣، ١٦ ركنا للمربعات الرباعية الدوارة ٤*٤.. حاصل جمعها جميعا تجدونها في الشهر الحرام بالشهر الحرام».

يعلق «بهي»: «عقلي لا يستطيع استيعاب كل ذلك!».

تشير «روث» بيدها له أن يهدأ حتى لا يمنعها هي الأخرى من الفهم بتعليقاته المتكررة، يلتقط «أبو عمران» أنفاسه ويقول: «أي أن كل مربع من الستة يحتاج إلى ٥٢ طريقة لتكوين رقم ما».

تسأل «روث»: «وهل لدى أحد منكم فكرة عن ماهية هذا الرقم؟».

يقول «بهي» وهو ينظر للجملة مرة أخرى: «تجدونها في الشهر الحرام بالشهر الحرام»، ثم يغمغم «ذي القعدة، ذي الحجة، محرم، رجب.. مجموعها ٣١».

تشير روث إلى الأرقام الكبيرة في الدوائر: «مستحيل، فأغلب الأرقام أكبر بكثير من هذا الرقم».

يتمتم «أبو عمران»: «الشهر الحرام بالشهر الحرام.. الشهر الحرام بالشهر الحرام»، ثم يغلق عينيه ويرتل كأنه يتذكر: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾.

يهرول ناحية رف خشبي قديم يحتوي على عدد من المصاحف، ويتناول واحدًا وهو يقول: «الشهر الحرام بالشهر الحرام.. آية في سورة البقرة»، ثم يكمل وهو يقلب الأوراق: «وما ينقصنا هو رقمها.. ها هو ذا يا روث.. ١٩٤ رقمنا المنشود».

يعلق «بهي» في إحباط: «وكأن معرفتنا للرقم ستسهل حل هذا الطلسم!».

تضم «روث» كفيها وتضع أنفها كشطيرة بينهما، تغلق عينيها وتقول: «أحتاج إلى ساعة».

يعلق «بهي»: «ساعة وقت طويل من...».

تقاطعه «روث» بحزم: «ساعة من الهدوء.. إذا أردنا الخروج من هنا فلتصمت قليلا».

يتراجع «بهي» أمام حزمها، يفترش الأرض، بينما يجلس الجبالي على الكرسي الأثري، يشير «بهي» إلى الجبالي حول الأصفاد التي كبّله بها «عاكف» ولم يفكر بعد، فيبحث الخوجة عن مسمار نائئ من الكرسي، تبقى «روث» على حالتها، مغمضة العينين، تتنفس بهدوء، حتى أصبح صوت زفيرها هو الوحيد في المكان.

أخيرا تفتح عينيها.. تفرد كفيها أمام ناظريها، تباعد بين أصابعها، تحرك يدها اليمنى ببطء باتجاه عقارب الساعة وكأنها توازن أرقامًا وهمية في الفراغ، تدير اليسرى عكس اتجاه عقارب الساعة، ينشغل «الجبالي» في إيلاج مسمار في ثقب مفتاح أصفاد «بهي»، يحاول مرة والثانية، يفلح أخيرا، بينما يتشككان في أن تفلح رفيقتهما.

تقترب «روث» من الدوائر.. تحرك الوسْطَيين، تنتظر قليلا وتبدأ في تحريك الدوائر السفلية، ثم تعيد تحريك الأولى في اتجاه معاكس وهي تتمتم بعمليات جمع مسموعة، تقول دون أن تلتفت: «علمني أبي أن أحل السودوكو وغيره من الألعاب منذ أن كنت في الخامسة من عمري».

سودوكو! هل قالت حقا ذلك، يعض «بهي» على سبابته تجنبا للتعليق، يرهنون حياتهم بفتاة تهوى لعب السودوكو، يميل المصور على «الجبالي» ويهمس: «ولماذا لا نكسرها؟».

يرد «الجبالي»: لأنها من المعدن، تحتاج لهبًا مذيبًا للمعادن؛ وهو ما لا أضمن توافره دون أن يقبض علينا رجال عاكف».

ينظر «بهي» تجاه «الجبالي» وعلى وجهه علامات من وجد

حلا، لكن «أبا عمران» يقاطعه: «لا تفكر في تفجيرها يا بهي.. لقد نجونا من المدافع بأعجوبة».

تطقطق «روث» لهما ليوقفا الهمس، بينما يسمع الجبالي أصواتا بالخارج، يطل من فتحة الشباك الضيقة ليستطلع الأمر، يرى المراسلين والفنيين يحملون معدات التصوير في الصناديق المعدنية الكبيرة، يقول: «لقد بدأت الفضائيات في التوافد استعدادا للقداس».

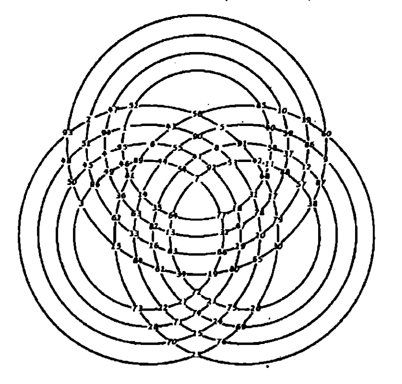
تسأل «روث» وهي تتابع ما تفعله: «كم تبقَّى حتى موعد القداس؟».

يرد «الجبالي» وهو ينظر تجاه الشمس: «نحو ساعتين».

نهار الشتاء قصير، وصفرته ستتحول لسواد عما قريب، تمنت «روث» التي انقضى على محاولتها نحو الساعة أن يطول النهار، تتابع بعينها الأرقام التي تتراص في صعوبة، بعضها يُكون الرقم المنشود ١٩٤ لكنه يوثر على دوائر ومربعات سحرية أخرى، فتعيد ترتيب الأرقام مرة أخرى، بناء لا يمكن تشييده سوى بطريقة واحدة، لو أنها رصت قالب طوب في أي مرحلة من التشييد بشكل خاطئ فلن يكتمل المبنى، وسيتحتم عليها إزالة كل ما ترتب على تلك الطوبة الخاطئة، يتحرك «الجبالي» ذهابا وإيابا فيزيدها توتّرا، بينما يحدق «بهي» الذي لم ينم منذ الأمس فيما تفعله الفتاة، لا يمتلكون رفاهية الفشل بعد كل ما مروا به، لو خرجوا الآن فلن يعتقه «عاكف» هذه المرة، ولن يمنحه فرصة الاستجواب، تتجاوز «روث» الساعة التي طلبتها بنصف الساعة فيزداد التوتر، يتبادل «بهي» والجبالي النظرات، ينهض «بهي» وينتحي بـ«أبي عمران» ويهمس: «أرى أن نبدأ التفكير في طريقة لكسرها».

في تلك اللحظة تلتفت لهما «روث» وتعلق: «الستما في حاجة لكسرها!».

لقد فعلتها «روث».. يقترب بهي من الدوائر التي تشكل خزانة عتيقة ويلقي نظرة، يتجاهل الأرقام خارج التقاطعات وكأنه لا يراها، يركز على التقاطعات، ينتقي مربعا يجرب جمع أي من الطرق التي يتكون بها الرقم ١٩٤، يبتسم، يصفق بخفة لـ«روث».



تشعر الفتاة بالخجل من الإطراء فتقول: «ألن نفتحها لمعرفة ما بداخلها؟!».

يباعد بهي بين الدوائر المتداخلة فتنفتح مكونة كوة معدنية، يمد المصور يده، ويخرج شيئا بطول شبرين؛ تمثالًا، ينظرون له، كان

تمثالا غرائبيا وكأنه قادم من قصص ألف ليلة وليلة. رجلٌ ملتحٍ له قرنان، يمتطي عجلا ويمسك في يده عصا، على رأس العجلِ نُقشت كلمة أو رموز بلغة غير معروفة، وعلى ظهر الفيل هودج طويل، يخرج من الهودج ثعبانان، ينظر أحدهما أعلى حيث يستقر في مقدمة الهودج نصف جسد رجل فرعوني، أما رأس الثعبان الثانية فتتدلى إلى الأسفل حيث تلاصق مهدًا خشبيا على ظهر الهودج، وفي قمة كل ذلك يجلس ضفدع، يعلو نصف دائرة مفرغة ذات اثنتي عشرة دائرة.

يمسك «الجبالي» التمثال من يد «بهي»، ويهزه فيصدر صوتا من داخله، في الوقت الذي يستوقفه فيه المصور قائلا: «لا تفعل!».

عيون «روث» و«أبي عمران» تحدق في «بهي»، يتساءلان كلٌّ بلغته: «ما هذا؟!».

يجيب «بهي» وهي يتناول التمثال ويضعه على الأرض في هدوء: «أنا أعرف ما هذا».

(٧)

«لما كان بتاريخ شوال سنة ألف وتسعة وستين حضر من مصر المحروسة عند جماعة رهبان طور سينا بشر ابن جلال البدوي الترباني، ومعه مغنم ابن ملاك الترباني، وأن ابن جلال كان قبل تاريخه اتهم الرهبان أنهم قتلوا أبوه باطل».

يطرق الطفل «جمعة» باب مخدع المطران «ثيودلوس»، فيخرج صوت الأخير ضعيفا سامحا للطارق بالدخول، يفتح «جمعة»

الباب، ومن ورائه «عاكف بك»، ممسكا في يده صور بهي كأوراق لعب «كوتشينة»، يرتبك الراهب، يحاول أن يخفي جهاز الإرسال والاستقبال الذي سرقه من قتيل معركة الليلة، والذي ينتمي لزمرة عاكف بك، يدس به تحت مخدته، ويميل على جنبه مضجعا، يده تحرك القرص الدائري العلوي في محاولة لإغلاقه، يدخل «عاكف» بتؤدة، يلقي نظرة في أركان المكان كرجل أمن عتيق، كان مخدع «ثيودلوس» مختلفا، مليئًا بالأوراق الملقاة على المكتب والكومود وفي وحدة أرفف صغيرة، عمله كوكيل للدير يجعله غارقا في المكاتبات الإدارية والرسمية المختلفة، فهو الذي ينظم الحياة مع العالم الخارجي، بدافع الفضول يمسك «عاكف» في يده وثيقة قديمة مصفرة بالعربية يحاول قراءتها، الخط المجعد الذي ينم عن جهل باللغة يمنعه من إجادة قراءتها، يجلس على حافة السرير، بينما لا يزال «ثيودلوس» مضطجعا علّه يجبر بذلك الرجل على الخروج، يده تحاول مع القرص، يقول «عاكف» فيتكفل «جمعة» بالترجمة:

«جئت للاطمئنان على صحتك بعد الحادث سيادة الأسقف».

يشير «ثيودلوس» لـ«جمعة» بالصمت فهو يفهم العربية نسبيا: «جسدي بخير.. لكن قلبي عليل لا يشفى مما يحدث».

يسأل «عاكف» في هدوء: «هل يمكنني أن أجد لديك رقم الهاتف المحمول للكاهن بافلوس؟».

يبتسم «ثيودلوس» كأن الأخير ألقى بنكتة: «حياة الرهبنة انعزالية.. لا بافلوس ولا غيره يمتلكون محمولا».

يقول «عاكف» بطريقة موحية وهو ينظر إلى الوسادة: «بل كان

يمتلك واحدا.. ربما أخفى الأمر عليكم كما يخفي الرهبان هاهنا الكثير من الأمور».

يرد «ثيودلوس» بحنق وصرامة رافضا هذا التوصيف: «الرهبان هنا لا يخفون سوى الإيمان داخل نفوسهم الطاهرة».

بتحدٍّ يقول «عاكف»: «إذن فأخبرني أنت إن كان لا شيء تخفونه.. ما الذي يحدث سيادة الأسقف؟!».

يتنهد «ثيودلوس».. يقرر أن يترك الجهاز الذي لا يفهم طريقة إغلاقه، يعتدل في جلسته وعينه على الوسادة، فتتحرك عينا «عاكف» إلى ذات المكان، لكنه يخجل أن يطلب تفتيش المكان أو سؤال الكاهن عما يقلقه، يحاول «ثيودلوس» إلهاءه فيسحب من يده الورقة المصفرة القديمة، يضعها على الكومود، يقول وهو يرفع نظره إلى «عاكف»: «ألا تعرف حقا؟! ألم تلحظ؟! ما يحدث هو تاريخ من الدم.. يستمر بلا نهاية، حتى تمكن من صديقي بافلوس، فعجزت حتى عن توديعه في جنازته».

ينتحب «ثيودلوس» قليلا، فيسأله «عاكف»:

«ومَن وراء هذا الدم؟».

يقول «ثيودلوس» وهو يثبت نظره إلى «عاكف»: «الجميع!».

يشير إلى الورقة المصفرة وهو يقول: «أينما تولي وجهك فسترى ذلك.. في كل ركن من أركان الدير معاهدة أو وثيقة تحاول أن تقلل تواتر الدم فقط، أتدري ما الذي كنت تمسكه في يدك؟».

ينظر «عاكف» إلى الخط العربي الركيك مرة أخرى في الوثيقة ويحاول قراءتها، فيسهل عليه «ثيودلوس» الأمر: «صك صلح

عشائري كتبه أحد أسلافنا بين الرهبان وقبيلة الترابَين لأنهم اتهمونا بقتل أحد رجالهم عن طريق الخطأ».

«حلف الرهبان إلى بشر ابن جلال ومغنم ابن ملاك أربعة وأربعين كلمة أنهم سالمين من جلال دم المذكور، وأن بشر ابن جلال ومغنم المذكورين تسلموا الفلوس العنوة على جاري العادة من جماعة الرهبان بحضور الكفلة والشهود».

يصمت «عاكف» تاركا المجال للرجل المحتقن والمفجوع لمقتل صديقه، فيضيف «ثيودلوس»: «ألا ترغب في السؤال هل قتلناه فعلا؟!».

يقول «عاكف» بتشكك وهو يعيد النظر إلى الوسادة: «لا يهمني ما فعله أسلافك، يهمني ما قد يفعله الرهبان الحاليون؟».

يرد «ثيودلوس» بصدق: «الحاضر سيغدو تاريخا بعد لحظات، ولن يؤكد لك أحد تاريخ الدم، مجموعة من الأساطير المتواترة، أو المعاهدات التي لن تفهم سياقها بسهولة إلا إذا عشت في هذا المكان».

يعلق «عاكف»: «ليست تلك إجابة سؤالي».

يتنهد «ثيودلوس» وهو ينظر إلى صك الصلح ويضيف: «وقتها دفع أسلافي الدية وأنهوا الأمر.. أو هكذا اعتقدوا».

يضيف «عاكف» بثبات، فيزداد «ثيودلوس» توترا، يتعرق: «ليست إجابة سؤالي أيضا».

يقف «ثيودلوس» من جلسته وينظر من الشباك تجاه البستان ويقول كأنه في طقس اعتراف لا يهتم بأسئلة «عاكف» قدر اهتمامه بما يريد أن يبوح به: «قس على ذلك ما فعله الآخرون طوال تلك السنوات.. عثمانيون، وهابيون، بدو.. مسلمون، مسيحيون، يهود..

جميعهم مشتركون في فصول كثيرة من الدم، قد يفنى عمري قبل أن أقصه لك، والمؤكد أن عمرك سيفنى قبل أن تتأكد مما أقوله».

«وعلامَ كل هذا؟!».

يصمت «ثيودلوس» ولا يجيب، يلتفت وعلى وجهه علامات الأسى، فيقول «عاكف»: «إذن فسترك دم صديقك مجرد سطر آخر في أسطورة ممتدة!».

ـ «هذا قدَرُنا».

ـ «يمكننا تغييره.. يمكنك أن تدلني على الشيء الذي يبحث عنه الجميع فنحميه نحن».

ـ «النفوس ضعيفة يا بني.. الحماية ليست بقوة السلاح أو التعزيزات، بل بقوة الإيمان، بالزهد فيما تحميه، لذلك كان دائما في حاجة إلى رهبان».

ـ «ولماذا يريده الجميع؟».

ـ «لامتلاكه أو بيعه أو تدميره.. تختلف الأهداف، لكن المؤكد أنهم لن يتركوه، ولا نحن».

ـ «إذن ساعدني على الإيقاع بمَن يريدونه».

ـ «كيف؟!».

ـ «أحتاج صورة هذا الغرض».

ـ «ماذا؟!».

ـ «قاتل صديقك يرغب في الغرض ومستعد للمجيء إلى هنا لاستلامه، حينها أستطيع الإمساك به، لكنه يريد التحقق أولا من أن الغرض بحوزتي».

يقول «ثيودلوس» بصدق محاولا تهوين الخبر لـ«عاكف»: «لا أملك صورة له.. لا أعتقد أن أحدًا يملكها».

يضع «ثيودلوس» يده على كتف «عاكف»: «لكنني أُقدر اهتمامك.. فليباركك الرب».

يباغته «عاكف» وهو يشير تجاه الوسادة قائلا: «ما الذي تخفيه تحت الوسادة سيادة الراهب وتخشى أن أراه؟».

يتحرك «ثيودلوس» بهدوء، يمد يده ويخرج كتابا صغيرا ويرفعه أمام عينَي «عاكف» وهو يحاول الثبات هذه المرة: «الإنجيل.. يحميني».

يخرج «عاكف» مُلملمًا أذيال الخيبة، يضع صك الصلح على المنضدة، يتنهد «ثيودلوس»، لانتهاء الأمر، يفكر للحظات في محاولة الرجل الخمسيني الجادة في مساعدتهم، يتجه «ثيودلوس» إلى أحد أدراج مكتبه، يفتش بين الأوراق بكثرة، ثم يمزق ورقة من كتاب قديم، يهرول محاولا اللحاق بـ«عاكف»، في ممر الغرف يناديه «ثيودلوس»: «لكنني أمتلك صورة ستجذب فريستك».

يلتفت له «عاكف»، فيناوله الراهب الورقة المصفرة القديمة، ويضيف: «إن كان فريستك مُلمًّا بما يقال، أو له تاريخ من المحاولات وجمع المعلومات عن الخبيئة فسيفهم تلك الصورة فورا، إنها الصندوق الذي نحمي فيه الشيء».

يتأمل «عاكف» الورقة، كان رسما يشبه كتب «كليلة ودمنة» من ناحية الخطوط والألوان، رجلًا في وجهه هالة نور ممسكًا بفأس، يمتطي فيلا، وفوقه هودج يخرج منه تنين له رأسان، أحد الرأسين ينظر إلى أعلى فاغرًا فاه، بينما يتدلى الرأس الثاني بجوار دلو نحاسي

على الهودج، وعلى قمة الهودج يقف طائر عنقاء عملاق، أسفل منه لوحة رقمية تحمل الأرقام من ١ إلى ١٢، يتشكك «عاكف» فيما يمسكه، ويقول: «ما هذا؟!».



يضع «ثيودلوس» يده على كتف عاكف: «لا تقلق فلن أضلك..».

يرد «عاكف» مؤكدا على خطورة الأمر: «الموضوع صعب ولا أملك رفاهية الـ...».

يقاطعه «ثيودلوس»: «أخبرتك ألا تخف.. أرسل له تلك الصورة».

يمسك «عاكف» صور «بهي» الفوتوغرافية الحمراء في يده فيتناول صور المسيح الذي يحمل إنجيلا في يُسراه وفوق رأسه هالة دائرية رافعا كفه اليمنى، يقربها من الراهب ويقول مؤكدا للمرة الأخيرة: «المسيح شاهد على ما تقول».

يبتسم «ثيودلوس» وهو ينظر إلى الصورة الأيقونية ويقول: «هذه صورة النبي موسى!».

(٨)

رغم اختلاف شكلهما والحيوانات المستخدمة إلا أن هذا التكوين نادر التكرار، يعرفه «بهي» جيدا، ساعة «الجزري» المائية، أو ساعة الفيل المائية، والتي اخترعها المخترع والمهندس السوري الأبـرز والأول في صناعة الساعات والمضخات والصناديق المشفرة والأحاجي، والذي ابتكر أيضا أول صندوق مشفر بالأرقام والأحرف بشفرات رباعية ومنه انتقلت تلك التقنية إلى فناني أوروبا في عصور النهضة، يذكر «بهي» كم انبهر بكتاب «الجزري» في مكتبة الدير (كتاب الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل)، يقول المصور وهو يضع الساعة أرضا: «هل زار أحد منكم مول ابن بطوطة في دبي؟».

ينظر له «الجبالي» بطريقة تشعره بغباء سؤاله، بينما تكتفي «روث» بهز كتفيها إذ لا يبدو الغرض القديم مجلوبا من أحد الأسواق التجارية الحديثة، يمسح «بهي» وجهه بيده وهو لا يعرف من أين يبدأ، ثم يقول: «حسنا، هذه هي ساعة الفيل المائية».

ينظر لها «أبو عمران» فلا يجد فيلا، يفهم «بهي» ويستطرد: «أعلم.. لا يوجد فيل، النموذج الأصلي لها يسمى ساعة الفيل المائية، ساعة اخترعها عالِم مُسلم يسمى الجزري، رجل عربي يجلس حاملا فأسا على ظهر فيل، وبدلا من تلك الثعابين استخدم تنينًا، وطائر العنقاء في مقدمة الهودج، كجميع الأساطير العربية والهندية ليوحي بعظمة ساعته فهي لا تقل أهمية عن تلك الأساطير».

تسأل «روث»: «وما علاقة المركز التجاري في دبي بالـ...».

يشير لها «بهي» بكفه أن تتريث: «إن أتيحت لكما زيارة المركز فستجدان نموذجا ضخما مُعادًا تصنيعه احتفاء بالعالِم المسلم، تدق ساعته كل نصف ساعة كالساعة الأصلية، ويشرح لك طريقة عملها المعقدة جدا، خلاصة القول أعتقد أن تلك الساعة نموذج أثري مُعاد تصنيعه عن النموذج الأصلي».

يسأل «الجبالي»: «وهل زار الجزري الدير أو مصر؟!».

يعلق «بهي»: «لا يحتاج لذلك، يكفي أن كتابه فعلها، ضمن عدد من النسخ التي حرص العلماء المسلمون على نقلها إلى مكتبة الدير بعد سقوط بغداد على يد التتار، فقد كانت مكتبة الدير مَخبأ جيدا وغير متوقع، لذلك تجد العديد من الكتب والمخطوطات الإسلامية بالمكتبة ومن بينها كتاب الرجل الذي يحتوي طريقة تصنيع ساعة الفيل».

يشير «بهي» إلى مكونات الساعة الخارجية موضحا أن من أعاد تصنيعها أراد أن يضفي عليها ثقافة المكان وتاريخه مثلما فعل الجزري مع النموذج الأصلي: العجل الذي دمره موسى بدلا من الفيل، الثعبان الذي تلقف الحبال بدلا من التنين، نصف جسد الفرعون بدلا من نصف جسد العربي، مهد موسى الخشبي بدلا من الدلو النحاسي، الضفدع الذي ابتُلي به قوم فرعون بدلا من طائر العنقاء، والرجل ذو القرنين الذي يمتطي العِجْل ويمسك عصا هو موسى ماسكًا عصاه.

يسأل الجبالي: «موسى بقرنين؟!».

تعلق «روث» التي تعرف شيئا عن الأمر: «لقد دأب الفنانون على رسم ونحت موسى بقرنين مثلما فعل مايكل آنجلو في تمثاله وسط روما ولوحته في قلب الفاتيكان، الأمر راجع إلى خطأ تاريخي وقعت فيه الكنيسة الكاثوليكية عندما ترجمت التوراة إلى اللاتينية، فترجمت عبارة «cornuta esset facies sua» الواردة في سِفر الخروج إلى «وجه موسى له قرنان» بدلا من «وجه موسى يشع بالنور»؛ لأن الكلمة تحمل ذات المعنى».

ثم تسأل «روث»: «ومَن الرجل الذي يجلس في الهودج؟».

يقول «بهي»: «الرجل الذي علّم النبيَّ الحكمة، يرتدي عباءة خضراء كما صورته الرسومات الموجودة له في متحف فكتوريا وألبرت بلندن.. إنه سيدنا الخضر».

لا تعلم الأجنبية شيئا عن «الخضر»، فيجد المصور مساحة للإسهاب، بينما يعلق «الجبالي» في نفاد صبر: «لا يهم كل ذلك، ما المشكلة في الساعة التي جعلتكَ تضعها على الأرض؟».

يزم «بهي» شفتيه، إن كان ما سبق أن شرحه صعبا، فالآتي مُعقد، الأمر يتلخص في آلية تشغيل ساعة الجزري؛ ففي جوف الفيل إناء مثقب معدني كروي مربوط بخيط يتحكم بالتوقيت وعمل الساعة، حيث يغوص في الماء ببطء حتى ينغمر تماما كل نصف ساعة سامحا للرجل الموجود على ظهر الهودج بالدوران دائرة كاملة مُعبرًا عن الدقائق، وما إن ينغمر الإناء بالكامل حتى تتحرك كرة معدنية ذات ثقل من الفتحة العلوية للهودج يتلقفها التنين ليسقطها في الدلو المعدني، ويبدأ قائد الفيل بالطرق بفأسه مُعبرًا عن مرور نصف ساعة، أما الأرقام العلوية نصف الدائرية فتشير إلى الساعة.

بعد طرق قائد الفيل، يطفو الإناء المثقب مرة أخرى ليبدأ رحلته في الغطس مرة أخرى، والرجل داخل الهودج بالدوران، وهكذا دواليك، يقول «بهي»: «المشكلة الحقيقية في الإناء الغاطس؛ هو كرة مثقبة تشبه تلك التي تُوضع فيها أوراق الشاي ثم يتم تغطيسها في الماء الساخن، في المرة الأولى التي صنع فيها الجزري الساعة وضع الورقة التي تحوي طريقة صنع الآلة داخل هذا الوعاء المثقب، ليرى كم من الوقت يلزم لتآكل الورقة وذوبان الحبر، ماذا لو كرر صانع هذا النموذج من ساعة الجزري الأمر عينه؟ ماذا لو أن السائل المستخدم ليس ماء، بل سائل أثقل وأقوى وأكثر كثافة يمكنه إذابة الأوراق والأحبار أسرع؟ هذه الساعة تحتاج إلى ضبط على توقيت محدد وستُخرج ما تخفيه، واحتمالاتنا تنحصر بين ١٤٤٠ احتمالا.. بعدد دقائق اليوم!».

يعلق «الجبالي»: «نكسرها؟!».

ـ «الوعاء المثقب فولاذي بغطاء خارجي.. كسر الساعة سيجعل

جزءًا من السائل يتغلغل داخل الوعاء، وحتى نتمكن من الفولاذ، فقد يُتلف السائلُ الرسالةَ، على افتراض أننا نجحنا في إذابة الفولاذ أو كسره دون حرق أو تدمير الرسالة أصلا...».

يقاطعه «الجبالي»: «قد! تعني بذلك أنك لست متأكدا».

- «بالتأكيد لست متأكدا يا أبا عمران.. هل تحب أن تغامر بفرصتنا الوحيدة؟».

يصمت «أبو عمران»، يطأطئ رأسه، الشك هو ما دفع الإنسان للإيمان، لا يوجد دليل ملموس دفع الإنسان للإيمان، جميعها علامات، لم ينظر موسى إلى ربه ولم يره، لكنه رأى الجبل دكا، ولن يستطيع «الجبالي» رؤية ما يخفيه بطن العجل المصمم كآلة الجزري، لكنه لمح القلق على وجه المصور فخاف أيضا وآمن بما يقول، لا يمكنه أن يتخذ قرار تحطيم الساعة، تنظر «روث» إليه وتدرك أنه لا يقوى على فعل أمر تتأكد صحة قلق «بهي» بشأنه بعد ذلك، فتتجاوز الأمر وتوجز الموقف قائلة: «إذن يجب علينا ضبط الساعة على توقيت محدد وألا نجرب كل الدقائق لأن سقوط الوعاء في الماء كثيرا سيفسد ما بداخله».

يهز «بهي» رأسه بالإيجاب، فتسأل: «وما هو ذلك التوقيت؟».

ينفي المصور المعرفة هذه المرة، فتقول «روث»: «لا بد من وجود إشارة ما في الساعة تشير إلى التوقيت المطلوب».

ينظرون تجاه الساعة فتلاحظ «روث» الكتابة على رأس العجل بلغة غير مفهومة، فتشير وتسأل: «ما تلك الرموز؟».

يعلق بهي: «أعتقد أنها لغة قديمة.. لاتينية مثلا».

ترد «روث»: «ليست لاتينية فأنا أعرفها.. أظن أن مفتاح الأمر في تلك الرموز، هل يمتلك أحد محمولا موصولا بالإنترنت يمكننا البحث خلاله؟!».

يجيب «بهي» بالنفي، بينما يقول «أبو عمران»: «إن كانت تلك لغة قديمة.. فأنا أعرف مَن يمكنه مساعدتنا على معرفة معناها».

تتنهد «روث» في قلق: «أسنحتاج من أجل ذلك الخروج من المسجد؟!».

يقول «أبو عمران»: «بل من الدير بأكمله».

باستياء يتساءل «بهي»: «وكيف سنفعلها هذه المرة؟!».

لا يحتاج «الجبالي» لكثير من التفكير، ينظر عبر الشيش إلى صناديق ومعدات التصوير الموضوعة على الأرض، وحركة العمال دخولا وخروجا من أجل الاستعداد لتصوير القداس ويقول: «أعتقد أن الأمر أسهل مما نتوقع بكثير!».

(٩)

تقارب الشمس على الزوال، يتجه «عاكف» إلى أحد رجاله ليعطيه صورة الورقة التي حصل عليها من «ثيودلوس»، يطلب منه أن يسرع قبل بدء القداس، وأن يخبره بعد وضع الصورة عبر حساب تويتر الذي طلبه الرجل الغامض بالنسبة له، ثم يؤكد عليه أن يُبقي الصورة لمدة ساعة فقط بعدها يزيل أي أثر لما تم.. لو علم مَن هاتفوه بشأن قلقهم من إقامة القداس وطلبوا منه إلغاءه، فأخبرهم أنه

يقضي وقته في اختراق حساب فنانة الفوازير الاستعراضية الأولى «شريهان» لانتهت حياته المهنية بفضيحة مضحكة، والفضائح المضحكة تدوم في مصر أكثر من غيرها، قد يعود المتورطون في فضائح مالية أو جنسية للأضواء بالبلاد، إلا الفضائح المضحكة تلازمك كظلك، لذلك كان كغيره يكره السخرية وبرامجها التي انتشرت بعد الثورة، يعتقد أنها السوس الذي ينخر هيبة الدولة، وقد كان «عاكف» يعتبر أنه والدولة وجهان لعملة واحدة.

يضع التعليمات النهائية للعمل، ويتمنى أن يسير القداس كما يخطط، عبر جهاز إرساله يطلب من رجله الأصلع أن يكون مسئولا عن كنيسة التجلي أثناء القداس ليس لأنه الأكفأ، بل لأنه الأسرع والأجرأ أيضا، بينما يخبره قلبه أن شيئا ما ليس على ما يرام، طالما كان الطرف الآخر سابقا له بعدة خطوات، يعرف تحركاته، يتوقع ردود أفعاله، ويبادر دائما بالإمساك بزمام الأمور، يزداد قلقه وضربات قلبه وهو ينظر من خلف البوابة فيجد أن ضيوف القداس قد بدءوا في التوافد، يقف أحد كهنة الدير مرحبا بالضيوف، رجال دين من كنائس مصرية وأوروبية، أجانب يحتلون مواقع دبلوماسية في بلادهم، رجال أعمال وشخصيات عامة مصرية، بعض الساسة.

يصل «فيّاض» بسيارته إلى الساحة المجاورة للدير، يُخرج من درج السيارة عطره، يضغط على رأس الزجاجة فيتطاير الرذاذ بجوار أذنيه ورقبته، ينظر في جهازه المحمول إلى حساب «شريهان» عبر تويتر فلا يجد تغيرا حدث منذ تغريدتها الأخيرة، يصدر الهاتف رنتين صغيرتين متعاقبتين، إشعارين بوصول بريدين إلكترونيين، يفتح الأول، تأكيد التحويل الذي طلبه بخمسة ملايين دولار عبر

حسابه، يبتسم، يتوقع أن يكون البريد الثاني هو تذكرتَي السفر له ولزوجته، ينظر في موعد الطائرة، بعد منتصف الليل بساعة عبر مطار شرم الشيخ، جيد، يتصل بزوجته، يخبرها أن تسبقه إلى مطار شرم الشيخ وأنه سيرسل تذكرة السفر عبر المحمول وأنه سينتهي من عمله وسيوافيها إلى هناك، تنزعج الزوجة، فيقول لها وكأنه يعرف مشكلتها طوال تلك السنوات: «ألم تنشدي دائما أن أستريح لأقضي ما تبقى من العمر معكِ؟! حسنا، ها نحن أولاء، سأرسل لكِ التذكرة ولن أتأخر».

تذكر له شيئا عن الحقائب ومحابس المياه وأمور أخرى فيقاطعها بحزم ويخبرها أن تحزم أقل حقيبة ممكنة لهما، وحين يصلان إلى وجهتهما سيتدبر الأمر، ينهي المكالمة، يعلم أن زوجته ستحتاج ساعة للتحرك وثلاثًا على الأقل للوصول إلى المطار، وهو وقت أكثر من اللازم يمكن خلاله أن ينفذ «عاكف» وعده بوضع الصورة أو يتراجع عنه، فإن لم يفعل عاكف فسيخبر زوجته بإلغاء الرحلة، ويتحمل صراخها في وجهه.

* * *

يضع «عاكف» يده على صدره ليستشعر سرعة دقات قلبه، فتصطدم يده بشيء ما، يتذكر وهو يُخرجه من جيب الصديري الداخلي، هاتف «بهي» المحمول الذي صادره أول الليل، لم يفكر في الاستفادة منه لأنه كان يبحث عن الفتى أو يحاول استنطاقه، يفتح الهاتف، يحتاج إلى كلمة سر أو بصمة، يجرب وضع أصفار متتالية فيُعلمه الهاتف أنها كلمة خاطئة، لن يكون المصور بهذا الغباء، يلتفت خلفه، يتمنى أن يجد ما يبحث عنه كما وضعه،

فيركض عبر الدير، يلمحه «جمعة» فيلحقه، إلى حيث الساحة التي استجوب فيها المصور في المرة الأخيرة، كرسيان متقابلان مستلقيان على ظهريهما، وكوب ماء زجاجي شرب فيه الفتى الماء بكلتا يديه، يتجه إلى الكوب ويمسكه بحذر من قاعدته، يسير بها، باحثا عن مكان، ينظر له «جمعة» ويسأل: «أتحتاج منضدة؟!».

يفتح له «جمعة» باب غرفة الطعام القديمة، حيث لوحة «الحساب الأخير» تزين المذبح، حرب الملائكة والقديسين ضد الشيطان الأسود، المسيح الذي يتأمل ما يفعله «عاكف» بكوب الماء، يضعه «الرجل الخمسيني على المنضدة بينما يوافيه أحد رجاله الذي طلب منه حقيبة معدات ثم أمره بالانصراف، بالمثل يفعل مع «جمعة»، يخرج الفتى الجبالي ويسحب باب الغرفة ليكفل لـ«عاكف بك» الخصوصية.

يفتح حقيبة أدواته، فيقاطعه صوت عبر جهاز الإرسال يخبره بعودة الطائرة الهليكوبتر إلى أرض البستان، يضع «عاكف» يده على زر الإرسال ويأمر الحوامة بالتحليق في فضاء الدير والمناطق المحيطة لرصد أي تحركات غريبة أو محاولة للاقتحام كما فعلت سيارة الإسعاف في الليلة السابقة.

ينظر «عاكف» إلى الحقيبة المفتوحة، يخرج شريطًا لاصقًا مخصوصًا ومسحوقًا لإظهار البصمات، يستخرج بصمتَي إبهام «بهي» من الكوب الزجاجي، يختبر إبهام اليسرى أولا فينفتح هاتفه المحمول، كما انفتح لعلي بابا باب المغارة: رسائل، بعض المكالمات التي حاولت الاتصال به أثناء غلق الهاتف من أشخاص يحملون أسماء مختلفة على الهاتف، رسالة صوتية من هاتف

«روث» قبل أن يلتقيا، تنويهات لحسابات المصور على مواقع التواصل الاجتماعي، يخرج «عاكف» هاتفه المحمول ويتصل بأحد الرجال الذين يثق بهم في القاهرة:

«حسام.. أريد منك أمرًا في غاية السرية والأهمية.. أحتاجه بشكل عاجل، ورجالي مشغولون هنا، لذلك أطلبه منك خصيصا.. تتبع هذا الرقم، اعرف كل صغيرة وكبيرة عنه.. انتظر سأمليه لك.. آه شكرا.. أمر آخر يا عزيزي.. أريد التحقق من شركات المحمول الثلاثة عن أي خط يحمل اسم بافلوس داخل سيناء بأكملها.. نعم بلا اسم ثلاثي.. أي بافلوس.. اسم أول أو ثانٍ أو عائلة».

ينهي «عاكف» المكالمة، فيخبره أحد رجاله عبر جهاز الإرسال أن الصورة أصبحت متاحة عبر حساب تويتر.

* * *

يضغط «فيّاض» زر التحديث كل ثانية، لا جديد، حتى تظهر تغريدة لصورة لم تتضح معالمها بعد بسبب الإنترنت، ثم تظهر تدريجيا من الأعلى إلى الأسفل، كأن مسحا دقيقا يحدث لها، صورة جهاز أخبره عنه المؤرخ قبل ذلك، يشبه تلك الرسوم العثمانية القديمة لرجل يمتطي فيلا ضخما ويحمل هودجًا، لقد أتم «عاكف» دوره، يرفع زجاج سيارته، يسحب المفتاح، يكتم صوت هاتفه المحمول قبل النزول، فيرن هاتفه الثاني، كيف نسي هذا الشيء؟ ينظر إلى المتصل الذي يعرفه والذي يحمل إشارة «#»، ربما تكون المكالمة الأخيرة بينهما، يرد «فيّاض» وهو يحمل في داخله سنوات من الكبت والإذلال والدونية التي تعامل بها الرجل الجالس على مضيق البوسفور معه، هي فرصته الآن لرد له تلك

الصفعة جزاء وفاقًا على تعاليه وغطرسته، لا يمنح الرجل فرصة الحديث بعد «آلو»، فيباغته: «أراك قريبا أيها الغامض.. أو لن أراك، فلن تجمعنا أرض، سأحصل على الخبيئة وأسافر، يمكنك أن تلعق مؤخرتك الآن أو تستخدم أموالك كأوراق مرحاض لنفس الغرض..».

لا يرد الرجل المتغطرس على الإطلاق، يشعر «فيّاض» بصدمته رغم أنه لم يره، يلقي بدعابته الأخيرة وهو يبتسم: «صحيح، هل تستخدمون في بلدكم شطافة؟!».

ثم يغلق هاتفه الثاني، يخرج شريحته ويكسرها، ويبتسم، يتحرك كفاتح منتصر، يمر عبر البوابة الإلكترونية، يسلم على عدد من رجال السياسة الذين يعرفهم، يمد يده إلى الكاهن المتواجد لاستقبالهم، يقبله في كتفه، يدخل إلى صحن الدير، يترجل مع عدد من الرجال الذين ساروا معه نحو كنيسة العليقة، يحرك طرف عينيه فيلمح «عاكف» يقف في الخلفية ليتابع حركة الضيوف دون أن يلاحظه.. كم يتشوق «فيّاض» للقائهما المرتقب، بينما يقف أحد بدو الجبالية خلف مدفع الصوت لتجهيزه استعدادا لبدء القداس على الطريقة القديمة.

(١٠)

يضع «بهي» و«روث» صندوق معدات تصوير الفيديو والبث الحي أرضا، يفتح المصور الباب الأمامي لسيارة «سيات» صغيرة خارج الدير، فيطقطق «الجبالي» الذي يجلس خلف المقود ويقول:

«كلاكما في الكنبة الخلفية حتى لا تراكما الأعين بسهولة»، ينفذ «بهي» أوامره، فيناوله «أبو عمران» الساعة ليضعها بجوارهما، تنظر «روث» من الزجاج الخلفي المعتم قليلا، تشك في قدرته على أن يخفيهما بالكامل، تعلق: «لم أكن أعلم أن رئيس الجبالية يركب السيارات الملاكي!».

يقول «أبو عمران» وهو يدير السيارة: «إنها السيارة المخصصة لرحلات وتنقلات الرهبان القريبة، فعظامهم لا تحتمل سيارتنا نصف النقل».

يتحرك «الجبالي»، فيسأله «بهي»: «لم تخبرنا إلى أين سنذهب؟».

- «فرش النبي إيليا.. ليس المكان ببعيد».
- «لا أسأل عن المكان.. بل عمن سنقابل».
- «أحد مشايخ الدقوني».
- «أبناء عمومة؟!».

يتنهد «الجبالي» ويقول: «بل أكثر من ذلك، الدقوني فرع من فروع الجبالية، فرع مستبعد من الخدمة في الدير».

يثير الأمر «روث»، فتسأله «لمَ؟!».

يعلق «أبو عمران» بسخرية وعيناه لا تحيدان عن الطريق: «لأنهم ذوو لِحًى طويلة، أطالوا لِحَاهم أسوة بالرهبان».

لا يبتسم راكبو الكنبة الخلفية فينظر لهما «الجبالي» في المرآة، ويقرر أن يقص عليهم ما يعرفه، يقول: «الدقوني في الأساس جبالية، يحملون السلاح للدفاع عن الدير، لكنها أزمة حامل

السلاح.. المنوط به الدفاع حين يفكر في الاستفادة من مزايا من يحميه لمجرد حمله للسلاح، نفسه تسأله: لماذا أضع روحي فداء لما لا أستفيد منه وأحقق منه أكبر المكاسب؟! لماذا أحمي هذا المدني الذي لا يكف عن الشكوى والتذمر والانتقاد؟! في تلك اللحظة ظنوا أنهم الدير، بل ومساوون لرهبانه، فأطالوا لِحَاهم وتشبهوا بهم، وتعلموا مهاراتهم وبعض أسرارهم، وطالبوا بما يرونه حقوقا لهم، فأقصيناهم».

يعلق «بهي»: «بهذه البساطة؟».

ـ «كانت الغلبة لنا، حين تترك سلاحك لتتشبه بمَن تحميه وتنعم بنعيمه تصبح عظامك رخوة وقبضتك ضعيفة، تفقد مهاراتك بالتدريج سرعتك وقسوتك وجسارتك وقدرتك على المواجهة».

ـ «ولماذا نحتاجهم؟!».

ـ «لأنهم يعلمون ما لا نعلمه من مهارات الرهبان».

تسأل «روث»: «ولماذا سيساعدنا المنبوذون من قبيلتكم؟».

يقول «الجبالي» وهو يضرب على صدره: «الدم يا سيدتي، بيننا دم يجري في العروق، وإن اختلفنا في أمور الحياة فلا يمكن أن يصبح هذا الدم رخيصا علينا».

تقف السيارة أمام أحد بساتين فرش النبي إيليا، يترجل «أبو عمران» وخلفه الشاب والفتاة، يقف على باب البستان شاب يهز رأسه تحية إلى «الجبالي»، بينما يسأل الأخير وهو يتجه إلى الداخل: «هل يوسف الدقني بالداخل يا ولد؟».

يرحب الفتى بالضيوف ويسبقهم إلى الداخل، يتكشف البستان

لـ«بهي»، رغم قلة أشجار فاكهته ومحاصيله التي تعكس فقرا إلا أنه كان يحمل ذوقًا ما لم يره قبلا في تلك الصحراء، أحدهم زرع الورود في أحد جوانب البستان، الورود في الصحراء رفاهية، فالباذنجان أو البرسيم أو حتى الحَبَق أكثر فائدة في تلك البيئة القاسية، لكن صاحب البستان يحاول أن ينسلخ عن تلك البيئة، وكأنه يصرخ بأنه ليس مثلهم أو منهم. تنجذب «روث» إلى نفس الشيء، تحيد قليلا عن متابعة «الجبالي»، تتجه إلى نبتة زعتران زُرعت بكثافة، فالتفت حولها فراشات زرقاء اللون جميلة، يقترب منها «بهي» الذي يحمل الساعة بين يديه، فتلتفت له وهي تحمل فراشة على سبابتها وتقول: «الفراشة الزرقاء أصغر فراشات العالم.. كيف لم أزر ذلك البستان من قبل؟!».

يناديهما «أبو عمران» فيهرولان إليه، حتى أوصلهم الفتى الصغير أخيرًا إلى منزل «يوسف الدقني»، ليست خيمة بدوية كبيرة أو منزلًا صخريًّا كما اعتاد «بهي»، بل دار متعددة الغرف بالطوب اللبن من طابق واحد، له باب خشبي مزخرف، ومعلق على بوابته جرس موصول بحبل، يشد «الجبالي» الحبل، فيأتي صوت من داخل المنزل، يُفتح الباب، يندهش «بهي»، وكأن كاهنًا آخر هرب من الدير للتو، لم يكن الأمر في إطالة اللحية فقط، بل في طريقة تشذيبها وتصفيفها، إلى جانب العباءة السوداء الطويلة التي يرتديها «يوسف»، وابتسامته المقتضبة الودودة في الوقت ذاته التي تذكره بسماحة «ثيودلوس»، الترحيب البسيط ثم الالتفات في وقار إلى الداخل، حتى إضاءة المنزل كانت شبيهة بإضاءة قاعة الطعام في الدير: قوطية، تحمل دفئًا ورهبة، يسبقهم يوسف إلى الداخل حيث

يتجه إلى ما يشبه غرفة ضيوف وطعام، يجلس على كرسي خشبي مزخرف أمام منضدة ويدعوهم إلى الجلوس، أمامه من الخشب المنحوت، لا تنفك عينا «بهي» أن تطالع جنبات المكان، الأسقف والأرضية، المنحوتات، وبعض النسخ المقلدة لوجوه الفيوم على الحائط التي تبدو كقديسين يسكنون المكان، يبتسم «يوسف» بهدوء وهو يلحظ ذلك ويقول للجبالي: «يا لها من زيارة طيبة يا أبا عمران.. كيف حالك وحال ابنك؟».

يجيب «الجبالي» عن أسئلة الترحيب المعتادة ويُعرفه بأسماء مرافقيه ويحاول أن يكون عمليا حتى لا يسرقهم الوقت، يقول: «جئنا لك في أمر ومشورة».

يبتسم «يوسف الدقني» ويقول: «لم أُرحّب بضيفيك بعد يا أبا عمران.. ستتغدى معًا».

يرفضون جميعا ويشكرون الرجل ويخبرونه أنهم في عجلة من أمرهم، فينهض من كرسيه في تُؤدَة، ويقول: «إذن فلنحتسِ شيئا قبل أن نتحدث»، يمسك «الدقني» بدلو نحاسي على نضد قريب، ويصب في أكواب مشروبًا أسود اللون، يقترب ويناول ضيوفه ويقول: «خروب.. نزرعه في البستان».

حتى مشروبه لم يكن كبقية البدو، ليس شايًا بالحَبَق أو النعناع، تظهر معالم الاندهاش على وجه «بهي» فيباغته الرجل: «ما لي أجدك متحيرا يا بهي؟!».

يعلق المصور: «لقد قضيت سنوات عديدة أتنقل في سيناء ولم أجد بستانا أو بيتا كبيتك!».

يقول وهو يشير إلى «الجبالي»: «ليت كل بساتين سيناء وبيوتها

كبيتي.. لكن الجبالية لا يزالون يفضلون الحصى والرصاص وإفناء العمر دون التمتع بجمال الفن والحياة».

يحاول «أبو عمران» مقاطعته فيرفع «يوسف الدقني» سبابته فيصمت رئيس الجبالية. كانت له شخصية ساحرة طاغية تشبه في حركاتها الرهبان كثيرا، حتى تلك الحركة التي تمنع الآخرين من المقاطعة رآها «بهي» سابقا في «إيوانيكيوس»، تدرك «روث» أن له لماحية وذهنًا متقدًا حين سار إلى الساعة التي يحتضنها «بهي» ويقول: «ساعة الفيل المائية».

يصمت «بهي» ويضمها أكثر، فيقترب منه «يوسف الدقني» ويسأله وهو يمد يده: «هل تسمح لي؟!».

ينظر «بهي» إلى الجبالي الذي يهز رأسه بأنه لا بأس في ذلك، يضعها المصور على المنضدة، يتأملها «الدقني» ويقول: «بالطبع جئتم تسألونني عنها.. وإلا ما الذي يجعل رئيس الجبالية يترك ديره في يوم القداس الأكبر؟!».

ثم ينظر تجاه «الجبالي» ويقول: «تعازيَّ في موت بافلوس.. كان راهبا طيب القلب.. كان يستحق الكثير مثلما أرى دائما أن الجبالية يستحقون الكثير».

تفتح «روث» عينيها على اتساعها فيقول: «أنتِ في سيناء يا عزيزتي.. تلك الأخبار لا تصمد طويلا»، بينما ينظر له «أبو عمران» بمعنى أن لا وقت لهذا الحديث أو العتاب، فيحمل «يوسف الدقني» الساعة ويقربها إلى حيث كان يجلس، ويتلفت حولها ويقول: «نموذج قديم مصنوع ربما في وقت كتاب الجزري أو بعده بسنوات، صنعه الرهبان واستبدلوا كل أيقونات الساعة الأصلية بأخرى تخص موسى عليه السلام، العِجْل بدلا من...».

يقاطعه «بهي» قائلا: «نعرف كل ذلك.. جئنا إلى هنا لكي...».

يخبط «يوسف الدقني» المنضدة بيده ويقول بعنف: «بل أنت لا تعلم شيئا يا بني، فلا تكن متحاذقا وأرعن، هل تعرف ما الذي يخفيه الرهبان في الدير؟ ما الذي يبحث عنه الجميع، وأفنى المئات من قبيلتنا دماءهم من أجل حمايته.. هل يعرف أبو عمران ذلك؟! هل أخبروه بسرهم المقدس أم أنهم تعالَوا عليه لأنهم يرونه مجرد خادم.. رقم ضمن أعداد الشهداء قد يزين اسم كنيسة من كنائس الدير؟».

يصمت «بهي» أمام الرجل، فيعود إلى هدوئه ويقول: «إذن فلتصمت ولا تحاول أن تبدو عالمًا لأنك زرت الدير عدة مرات».

تقترب «روث» برأسها في هدوء وتقول بنظرات قوية: «وهل تعلم أنت يا شيخ يوسف ما الذي يخفيه الدير؟».

يبتسم «الدقني» بركن فمه الأيمن باستهزاء، ينهض ويقول: «تماما كما أعلم ما استوقفكم في فهم تلك الساعة؛ تلك العبارة التي تبين لكم التوقيت المطلوب لفتحها».

تصمت الفتاة أمام الرجل الذكي، فيقول: «كما أنني لست شيخا.. يمكنكِ اعتباري راهبًا.. راهبًا مسلمًا»، ثم يضحك وحده من دعابته، ويكمل: «إنها كتابة باللغة السامرية القديمة؟».

يسأل «بهي»: «العِبرية؟!».

يقول «يوسف الدقني»: «ليست عِبرية يا بني.. فالسامريون ليسوا إسرائيليين، ولغتهم ليست عبرانية. يعتبرون أنفسهم أصل الدين اليهودي، ولغتهم هي لغة الوصايا العشر».

يعلق «بهي»: «يعتبرون؟! هل لا يزال هناك سامريون في العالم؟».

ترد «روث» وكأنها تسكته: «أعداد قليلة جدا تقاوم الفناء على جبل جرزيم».

بينما يضيف «الدقني»: «عليك بزيارتهم يومًا ما قبل أن يصبحوا ذكرى».

يعيدهم «الجبالي» إلى موضوعهم الأساسي، فيقول: «وما الذي تقوله الجملة المكتوبة بالسامرية القديمة يا ابن عمي؟».

ينظر «يوسف الدقني» إلى الجملة.

2∇P ϽϘ∇

ثم يقول بهدوء: «كلمتان»، يكمل بالإنجليزية: «kill.. time»، يترجمها: «توقيت القتل».

تسأل «روث»: «قتل مَن؟!».

يرد «الدقني»: «أنتم تعلمون أكثر.. من الذي قُتل؟!».

يغمغم «بهي» وهو يتذكر ساعة اليد المقطوعة من يد «بافلوس» بجوار صليبه، والتي جلبها أحد رجال عاكف له في الليلة السابقة حين شاهد الجثة للمرة الأولى: «بافلوس!».

يعلق «الجبالي»: «لكن هذا لا يبدو منطقيا! معنى هذا أن الذي يخفي رسالة في تلك الساعة هو مَن قتل بافلوس!».

تعلق «روث»: «أو أن بافلوس...»، تصمت قليلا وتتراجع عما ستقول، فينظر لها «بهي» مكملا الجملة: «بافلوس عرف موعد قتله قبل أن يُقتل!».

تطرد «روث» الفكرة من رأسها وتقول: «هذا لا يبدو منطقيا أكثر.. فهو يحتاج إلى دقة مبالغ فيها لمعرفة ساعة أجله المربوطة بيد شخص آخر، أما إذا كان قاتله هو الذي يخفي شيئا في الساعة فلماذا قتله من الأساس ولم يحصل على الشيء المُخبأ مباشرة؟!».

يوقف «يوسف الدقني» استرسال أفكارهم غير المجدي ويسأل: «يتبقى السؤال ها هنا.. هل تعرفون ساعة مقتله؟!».

يرى «بهي» عقربَي ساعة يد «بافلوس» في مخيلته بوضوح، يظهر ذلك جليا عليه، ينهض من كرسيه ويبدأ في إدارة تمثال الخضر حول محوره، بعد أن يتم دورة كاملة تسقط كرة في فم الثعبان الذي يضعها بدوره في المهد فيطرق التمثال المقرن بعصاه معلنا انقضاء نصف ساعة، يكرر «بهي» دورة أخرى فتسقط كرة أخرى ويظهر في النصف دائرة العلوية رقم ١، بمعنى الساعة الواحدة، يكمل «بهي» تحريك الخضر حول محوره من أجل الوصول إلى الساعة المنشودة، ثم يتوقف فجأة وينظر في عينَي «يوسف الدقني» أمامه مباشرة ويقول: «أريد أن أعرف».

يميل «يوسف الدقني» برأسه متحيرا فيكمل «بهي» بثقة: «ما الشيء الذي يبحث الجميع عنه؟».

يرد «الدقني» بامتعاض: «فلتسأل الرهبان!».

يقول «بهي» مهددا: «أنت مثل الجميع؛ أفنيت عمرك تسمع عن هذا الشيء وتعتقد فيه لكنك لم تره، تريد أن تتملكه وهأنذا على بُعد خطوات منه.. لن أكمل قبل أن أعرف».

يترك بهي تمثال الخضر من يده ويعود خطوة إلى الوراء، فيما

يقول «الدقني» بصوت هادئ: «يا بني.. لقد أصبحتُ عجوزا.. ربما أردتُ تملّكه قديما، لكنني الآن لستُ في حاجة إليه».

ـ «لكنك في حاجة للتأكد من أنك كنت على صواب حين خرج الدقوني من الدير قديما.. استحقاقك العيش مثلما يحيا الرهبان فلست أقل منهم.. وأن ترى ما رأوه بأعينهم ومنعوكم من رؤيته لأنكم مجرد خدم.. حتى وإن لم ترغب في تملكه لأنك عجوز.. فأنت في حاجة لرؤيته».

يصمت «يوسف الدقني»، يلامس حديث الفتى وترًا حساسا في نفسه فتختلج عضلات وجهه، ويقول:

«أنت تعيش وسط عملية تمويه امتدت لسنوات، ألم تسأل نفسك يوما لماذا يشيد أقدم دير في العالم في منطقة ليس لها بُعد ديني في المسيحية؟ ألم تشهد في سنوات ترددك على الدير أن الرهبان يحتفلون بعيد موسى؟! دعنا من كل ذلك.. عمليات الإخفاء والتغيير لكل ما يتعلق بموسى، لدرجة رسمه في أيقونات بنفس وضعية المسيح وبطريقة مقاربة منه فيختلط على الرائي الأمر ولا يعرف أينظر للمسيح أم موسى! في تلك الأرض ظهر الحراس أولا، حافظوا على سرهم المقدس، عاشوا بجواره، كانوا من معتنقي المسيحية، فأصبح الدير لزاما لتأدية الشعائر الدينية، حمل أولا اسم دير طور سيناء ثم تغير كما تغير كل شيء إلى كاترين، ومعه ظل السر حبيسا جدران الدير العالية!».

باهتمام شديد ينصت الجميع، قبل أن يرشف «يوسف الدقني» كوب الخروب أمامه، وينظر في عينَي «بهي» ويقول:

«أنتم تبحثون عن الشيء الذي أبصره رجل واحد فقط فاغتنم

فرصة ما أبصر؛ أثر الرسولَ.. التراب الذي توهج كالذهب لأن فرس جبريل لامسه، تراب السامري يا فتى!».

ـ «تراب السامري!».

ـ «القبضة التي قبضها السامري بكفه وقت شُق البحر، فهبط جبريل بفرسه ليعين العابرين، تلك القبضة التي أخبر موسى أنه رآها بعد أن عاد، والتي اكتشف فيها القدرة على بث الروح في كل ما هو جامد، تلك المعجزة التي كان عقابها ألا يمس شيئا آخر بقية حياته!».

يُخرج «بهي» نصفَي مفتاح المكتبة من جيبه، يتحسس النجمة الخماسية في رأسه.. العناصر الخمسة المكونة للطبيعة كما كان يعتقد القدماء: «الهواء، والماء، والنار، والأرض، والروح».. الروح!

يقول رافضا ما يسمعه: «لكن السامري ألقى التراب في تمثال العِجْل ليخور».

«كله؟!»، يسأل «يوسف الدقني»، ثم يكرر سؤاله: «هل ألقى بكل ما قبضه في ذلك النهار؟!».

ـ «آ.. أظن أن.. آ... لا يوجد ما يؤكد ذلك».

يبتسم «يوسف الدقني»، فينظر «بهي» إلى «الجبالي»، الدهشة تعتري وجه «أبي عمران»، يلتفت إلى «روث» فيقاطعه «الدقني» قائلا: «والآن دورك يا بني».

ينظر «بهي» إلى الساعة، لا يحتاج أكثر من إدارة تمثال الخضر حتى يصل إلى العاشرة والربع مساء، وقت مقتل «بافلوس»، يكرر الأمر وسط دقات عصا موسى، حتى يصل إلى الساعة العاشرة

مساء، ثم يدير التمثال الجالس فوق الهودج بحذر ربع دائرة كاملة، وينتظر، فيجد أمرا غريبا قد حدث، انفجر ثقبان صغيران في فم العِجْل ومؤخرته وشرعا في قذف ما في جوف التمثال المعدني من سائل، كان سائلا لزجا فتبينت «روث» أنه لم يكن ماء لكنها لا تمتلك الأدوات لمعرفة ماهيته. يرفع «بهي» الساعة بين راحتيه ببطء، فيجد أن ثقبا ثالثا في أسفل الساعة قد انفجر، يفرغ العِجْل من سوائله فيسقط شيء ما بداخل بطنه إلى الأرضية، الوعاء المعدني المثقب سقط في الأرضية الفارغة، يبحث «أبو عمران» عن شيء معدني، يجد بلطة معلقة على الحائط، فينتزعها يخبط بها أرضية الساعة فيسقط الوعاء الصغير منفتحا على ما فيه، ورقة صغيرة كما توقع «بهي»، مبللة، بهت لونها قليلا، يحركها في الهواء فيتطاير رذاذ السائل العالق بها، بينما تتجمع الوجوه حول الورقة، يفتحها، تضم عدة كلمات كُتبت بالإنجليزية: «تحرسه ٤٠ شمسا، معلق على الصليب لكنه ليس المسيح، ينظر إلى نور الرب».

تقرؤها «روث»، ثم تنظر إلى ثلاثتهم، فلا تجد استجابة، تكرر قراءة الجملة بتروٍّ ربما فهمت الإشارة، يقاطعها «بهي»: «معلق على الصليب لكنه ليس المسيح.. نبيٌّ آخر غير المسيح!».

يقول «الدقني»: «أنبياء هذه البقعة كُثر.. إيليا وصالح وهارون وموسى.. وجميعهم في أعمال الأديرة والكنائس بالمنطقة».

يعقب «بهي»: «لكنهم يتواجدون في الأيقونات، الجداريات، المنمنمات، وحده نبي آخر نُقش على صليب يحمل اسمه.. نحن نبحث عن صليب موسى».

تعلق «روث»: «صليب مَن؟!».

يقول «بهي»: «صليب موسى.. هذا اسمه.. صليب معدني محفور عليه الكثير عن موسى، وأيقونة غائرة وهو يخلع نعليه ناظرا إلى نور الرب».

يقول «الجبالي»: «توجد عدة نُسخ من صليب موسى، إحداها في متحف الدير، أيُّها؟!».

يعلق «بهي»: «ليس بمتحف الدير، ما نبحث عنه يحرسه ٤٠ شمسا، ٤٠ شهيدا يحلقون في السماء، صليب موسى بداخل كنيسة الأربعين شهيدًا داخل الدير الذي يحمل الاسم ذاته أسفل جبل موسى من الجهة الأخرى».

يصمت «بهي» ويسأل «الجبالي»: «هل يمكننا دخولها؟!».

يرد «أبو عمران»: «ستكون مغلقة الآن ومفاتيحها مع المطران إيوانيكيوس».

يهم «بهي» بالتحدث فيوقفه «أبو عمران»: «هش! لا تفكر.. لن يكتب التاريخ أن جباليًّا اقتحم كنيسة أو ديرا أو كسر بابه».

بهدوء يتدخل «يوسف الدقني» أخيرا ويقول: «لستم في حاجة لاقتحامها، فأنا أعرف خادم بستانها الذي يحمل مفتاحا احتياطيا من أجل حالات الطوارئ أو السيول، فالدير يقع في منطقة مخر سيول، يمكنكم أن تكسبوا الوقت قبل غياب الشمس وتتحركوا عبر الطريق إلى ما قبل وادي فريعة، وسأطلب منه أن يوافيكم هناك».

تتهلل أسارير «بهي» مرة أخرى، بينما يربت «أبو عمران» على كتف شبيه الكهنة ممتنا، بينما يقول «الدقني» بابتسامة هادئة للمصور: «إن وجدتَ تراب السامري.. عِدني أن أراه يا بني!».

يهز «بهي» رأسه بالإيجاب، بينما تحمل روث الساعة، ويشير «أبو عمران» للمصور حتى لا يدركهم الظلام.

(١١)

فَلَيتَ شِعري ليتَ شِعْري   أيُّ أرضٍ هـــي قَـــبري

يجلس «عبد الله أفندي» فتحسبه بدويا، لا تلامس عجيزته الأرض بينما استند بكوعيه على ركبتيه، الشمس حارقة فوقه، لكنه ينتظر في مخر السيل الضيق، رحم الوادي محاط بالجبال من الجهتين، يشعر خادمه السوري المسيحي خليل عتيق بالعطش، فينهض من افتراشه للأرض إلى حيث الجمل الذي يركبه الشيخ البدوي مطر أبو صفية، ويستلم قارورة مياه معلقة على سنام الجمل، يسخر البدوي المنتسب، والذي تجاوز السبعين من العمر، من الشاب المسيحي السوري لإحساسه الدائم بالعطش، يعلق بلهجته البدوية أن الصحراء ليست مكانا للشوام فيضيق «عتيق» من سخرية الكهل، يحاول أن يحفظ كرامته فيعلق بأنه كان ليلقن أبا صفية درسا لولا سِنه، ينزل الأشيب بخفة لا تناسب عمره وتجاعيده من فوق سنام الجمل ويقف متربصا لـ«عتيق»، يقول له بتحدٍّ: «دعني أرَ..»، يشمر «عتيق» كُم جلبابه ويقول: «حسنا.. لنتصارع ولنجعل ياخور حكمًا علينا».

يقول الشيخ البدوي «أبو صفية» بذات التهكم: «لا، لن أجعل يهوديا حكمًا عليَّ»، الجملة تصيب الخادم اليهودي «ياخور حسّون» بالضيق، لكنه لا يحرك ساكنا، فهو الطرف الأضعف في

الحضور، أو هكذا يشعر، يعلم أن هذا الجبل كان ممنوعا على اليهود الاقتراب منه قبل ٤٠٠ عام بالتمام والكمال، واليوم في عام ١٨٨٢ يجلس بصحبتهم في أحد الأودية الضيقة داخله في انتظار عملية التسلم.

يضحك «أبو صفية» من سلبية اليهودي «حسّون» فيعلق وهو ينظر للمسيحي «عتيق»: «أرأيت؟! لقد صمت.. رغم كونه يهوديا إلا أنه مسيحي أكثر منك.. سيعطيني خده الأيسر بعد الصفعة الأولى!».

ينهض «حسون» غاضبا، وينفجر «عتيق» فيجري نحو «أبي صفية» ضاربا إياه بقبضته، يستقبل الأخير اللكمة في بطنه فتؤلمه، لكنه يمسك «عتيق» من رأسه كالكبش، ويسقط به على الأرض.

بهدوء شديد ينظر لهما «عبد الله أفندي» وقد أزعجته تلك الجلبة، يصفق بيده مرة واحدة فيتوقفان عما يفعلانه، يستجيبون جميعا إلى الرجل الذي انتظر خمسة عشر عاما لإتمام صفقته، يصمتون، ينظرون إلى حيث ينظر وينتظر؛ الرمال الصفراء لا غير.

يعاتب «حسون» بخفة «أبا صفية» لأنه تهكم على ديانتيهما؛ وبالتالي أزعج «عبد الله أفندي»، يرى «أبو صفية» في تعليق «حسون» وجاهة، يتذكر أن اسم «عبد الله أفندي» بأكمله ما هو إلا كنية الرجل الذي يستأجر ثلاثتهم في سيناء: المسلم والمسيحي واليهودي، والذي يحمل اسما حقيقيا هو «بالمر»، يسأل «أبو صفية» بذات العفوية «عبد الله أفندي» أو «بالمر»: «ما مِلّتك يا خواجة؟».

ضاع عمري في اغتراب ورحيل مستمر

يتأمل «إدوارد بالمر» العِجْل الراقد فوق الحطب، رائحته

الشهية، بينما يجلس بدوي القرفصاء ساندا بكوعيه على ركبتيه، جلسة لم يتمكن «بالمر» من إتقانها بعد، من أجل هذا العِجْل عاد.

قبل سنوات أنشأت بريطانيا هيئة «استكشاف فلسطين» غرضها الربط بين التاريخ المقدس والجغرافيا المقدسة ومسيرة بني إسرائيل في صحراء سيناء، وقتها لم يكن يُعرف بـ«عبد الله أفندي»، ولم يعتقد «بالمر» ابن الثامنة والعشرين أن معرفته للغة العربية ستكون مصدر هوسه بتلك البقعة، كانت البعثة في حاجة إلى مترجم، وكان هو قد أتقن العربية عبر رجل هندي يسمى «عبد الله» أيضا.

يتذكر «بالمر» وهو ينظر لليد الماهرة التي تقطع الطبقات الخارجية للعِجْل المشوي، كيف وطئت قدماه هذه الأرض، دوره ينحصر في ملازمة البدو، معرفة أسماء الأماكن منهم وقصصها وربطها بما جاء في الكتاب المقدس، إلا أن هذا لم يكن كافيا، فرهبان الدير غيروا من أسماء المناطق بسبب أحلامهم، وبينما كان العساكر الإنجليز يقومون بمسوح جغرافية توثيقية للمنطقة. تعاون معه البدو، وأسهبوا في الشرح، حكوا له الكثير من القصص التي تخلط فيها الحقيقة بالأسطورة، في أرض شهدت العديد من الديانات القديمة، والميثولوجيا المتواترة يصبح التفريق بين ما حدث فعلا وما تمنى الرواة حدوثه صعبا.

الجميع له قصصه، والجميع يرويها بطريقته، عدا الجبالية، ناصبوه الجفاء فزاد فضوله العلمي كأستاذ في جامعة كمبريدج، وقتها طلب من سير «هنري جيمس» رئيس المدفعية أن يسمح له بالذهاب في رحلة تفقدية بالقرب من الدير، إلا أن الرجل العسكري لم يكن يمتلك رفاهية الوقت، انتهت البعثة ولم ينتهِ شغف الرجل.

في الصيف التالي قرر أن يعود بمفرده وعلى نفقته، يحاول أن يدقق تلك الأساطير التي إن صحت لتغير الكثير، يهمس البدوي وهو يضع فخذ العِجْل في صينية نحاسية كبيرة لتستقر فوق الأرز أن الجبالية يُخفون أمرا، يسأله «بالمر» عنه فيهز كتفيه بأنه لا يعرفه تحديدا لكن أجداده يقولون ذلك، يمد البدوي يده إلى «بالمر» فيناوله الأخير ثمن حضور الوليمة. أمران تعلمهما «بالمر» من البدوي: لا شيء مجانا في الصحراء، وأن «الجبالية» لن يطهوا عِجْلا مماثلا لأنهم لا يرعون الماشية.

أما فيما يتعلق بالسر، فقد أصبح يشك أن الأمر يشبه أحاديث السمر، نوعًا من الغيرة القبلية بسبب حظوة الجبالية وسيطرتهم، أو ربما تستدرجه القبائل بقصص خيالية لتأخذ ما لديه من أموال. ليس سهلا عليه ادخار الإسترليني! وبينما يُخرج «بالمر» الأموال من جيبه، وبينما ينظر للعِجْل المشوي أمامه، وبينما يربت شيخ آخر على كتفه بأن يأكل مؤكدا جملة سابقة بأنه لن يجد لدى الجبالية مثلها، ينتفض الرجل وقد لمعت الفكرة الغائبة عنه، يرى تلك الحقيقة التي غابت عنه كثيرا، يركض دون أن يكمل وجبته.

طوال الأسابيع الستة التالية يمكث بالقرب من الدير ليدرس حركة حرّاسه وعاداتهم، تلك القبيلة المنغلقة على نفسها، والتي تحرس ديرا مسيحيا لسنوات طويلة، مهمتهم المقدسة التي لا يتوانون عنها، إن لم تعتمد قبيلة الجبالية على الماشية والرعي مثل بقية البدو، فعلامَ تعتمد في غذائها؟

يمسك بأوراقه ويدوّن بشكل حسابي منظم؛ كل أسرة جبالية تستهلك ١٢٠٠ جالون قمح يكلفهم سنويا ستة جنيهات إسترلينية،

بالإضافة لعدد من السلع الواردة والتي لا تُزرع في الجبل مثل السكر والأرز والقهوة، تصل تكلفتها إلى عشرين جنيها أخرى، كيف يحصل «الجبالية» على تلك الأموال؟ والأهم.. لماذا يتكلفون كل تلك الأموال من أجل حماية الدير؟ ما الذي يعود عليهم من ذلك؟ لو تركوه لكانوا أوفر حظا وثراء.

ومتــى يــوم وفاتي؟ ليتني لو كُنْتُ أدري

يُخرج «عبد الله أفندي» المُنتظِر في مخر السيل منديلا قماشيا من جيب جلبابه العلوي فتسقط ورقة يعرفها جيدا، يفتحها، قصيدة بالعربية قرأها مرارا، قطعها من الكتاب الأصلي من شدة تعلقه، يشير له حسون وهو يرى سحابة من الرمال أمامهم تظهر رويدا من خلف الجبل بأن الرسول المسئول عن الحفر قد وصل.

لا شيء مجاني في الصحراء، لذلك أغدق «بالمر» للبحث والتدقيق وراء شائعة سمعها وجد فيها وجاهة واستهوته، كنز يستحق أن يستميت الجبالية من أجله، اشترى الكثير من البدو، انتقل من سيناء إلى القدس وتركيا ودمشق باحثا عن بعض العجائز الذين يقصون عليه الأمر أو يمدونه بخرائط، هناك تعرف بـ«أبي صفية»، أحد أنساب قبيلة «دقني» الذي سمع نفس الشائعة من زوجته، فتصادقا، وطاف «أبو صفية» معه الخيام ليتعرف على المزيد، علم أن الأمر مُخبأ في الكتب المقدسة الثلاثة والجغرافيا التي تغيرت أسماؤها بيد الزمان أو رهبان الدير، لكن «بالمر» لم يستطع إكمال رحلته لأنه لم يعد يملك شيئا.

عاد إلى موطنه، ترجم القرآن الكريم إلى الإنجليزية في رحلة دراسته له، وهي الترجمة الأوسع انتشارا؛ لطباعتها عن طريق

«أوكسفورد وورلد»، كان الغرض من الترجمة جمع المال اللازم لرحلته الختامية التي يعدها للوصول إلى الكنز الذي يغير قدرات البشر.

كان يستغل وقته بالبحث في الكتب لصالحه الشخصي، ثم ينشر بعضها مترجما حتى لا يشك فيه المجتمع العلمي الإنجليزي، لم يكن القرآن هو موضع دراسته الوحيد، الإنجيل والتوراة، وضع كتابين «جغرافيا الكتاب المقدس»، و«تاريخ الأمة اليهودية»، نقح ترجمة الإنجيل للفارسية، ووثق على الخرائط عشرة آلاف موقع تاريخي يمتد من القدس إلى سيناء، في أثناء ذلك كان يترجم أيضا كل ما يفيد جامعته ويعزز صورته كأستاذ في الآداب واللغويات ويكسبه مالا، اصطدم بديوان «البهاء زهير» فأحبه ووقع في هواه، ترجمه للإنجليزية منظوما ومقفى من شدة تأثره به، كان يرى فيه نفسه، لدرجة أن قصيدة بعينها لازمته طوال فترة بحثه عن الكنز:

فليت شعري ليت شعري أي أرض هي قبري
ضاع عمري في اغتراب ورحيل مستمر
ومتى يوم وفاتي ليتني لو كنت أدري
ولقد آن بأن أصحو فما لي طال سكري

«لورد نورثبروك، أستطيع شراء ولاء خمسين ألف عربي في سيناء مقابل ثلاثون ألف جنيها إسترليني. المخلص بالمر» - برقية أغسطس ١٨٨٢.

«بالمر، ابقي البدو مستعدين لعمل دوريات على القناة، يمكن دفع مبالغ معقولة، أما التعهد بمبالغ أكبر فهو أمر يحتاج دراسة. نورثبروك» - برقية أغسطس ١٨٨٢.

لن يعطله تأخر الأموال، فهي فرصته قبل أن تتحول المنطقة لساحة حرب، قبل عدة أشهر علم بنية السلطات البريطانية بتوجيه ضربة عسكرية لمصر وجيش عرابي، توجه إلى لورد نورثبروك، فرصته للعودة إلى المنطقة، وإنهاء ما بدأه قبل عقد ونصف العقد، عرض على الرئيس الأول للبحرية البريطانية خطته، إذا ما ضربت القوات الإسكندرية، كيف سيضمن تأمين قناة السويس ملاحيا؟ ثم عرض خدماته، هو يعرف المنطقة جيدا، درسها وتواصل مع أهلها لسنوات وأنفق من ماله الخاص لتوثيقها، يمكنه أنه يعود لهناك، وشراء البدو لتأمين القناة ضد أي عملية تخريبية، يسأله «نورثبروك» بتعجب: «وهل سيوافق البدو؟».

يتذكر «بالمر» العِجْل والنصيحة الأولى الخالدة: «لا شيء مجاني في الصحراء»، لذلك أغدق عليه قائد البحرية بثلاثة آلاف جنيه، وجدها «بالمر» كافيه للمرحلة الأولى، عاد بها كـ«عبد الله أفندي» إلى يافا حيث قابل «أبا صفية» واستأجر رجلين؛ مسيحيًّا ويهوديًّا، على علم بالمواقع المقدسة، بالتوازي كان يعقد بعض الصفقات لتأمين المجرى الملاحي للقناة والذي يشكل الهاجس الأكبر للإنجليز، يعلم بحكم خبرته أن المصريين لن يعمدوا إلى تخريب المجرى الملاحي إذا ما اشتبكوا بالإنجليز، لكن الخوف خلق له فرصة يغتنمها، شكّل لجنة لتحديد موقع الخبيئة، أجمع الثلاثة أن الوادي الذي يقفون فيه الآن هو البقعة المختارة، لكنه وادٍ كبير، ينقصهم المكان بالتحديد الذي يشرعون في الحفر فيه، لذلك كان ينقصهم مَن أشرفوا على إخفاء الكنز لسنوات.. «الجبالية».

قبل يومين نجح «أبو صفية» في استمالة أحد بدو «الجبالية» فعقد

بينه وبين «عبد الله أفندي» جلسة، لا شيء مجاني في الصحراء، حتى ولاء «الجبالية» أنفسهم، عرض «الأفندي» على «الجبالي» الخائن ٣ آلاف جنيه إسترليني هي كل ما يملك وقتها، واشترط أن يدفعها يوم الحفر لضمان أن يجد غايته.

أما رجاله الثلاثة: المسلم والمسيحي واليهودي، فقد كان شرطهم عشرة آلاف جنيه لكل منهم، يحاول «عبد الله أفندي» تأمينها بإرسال برقية لقائد البحرية يخبره أنه سينظم دوريات على طول القناة تحتاج إلى شراء ذمم خمسين ألف رجل، مقابل ثلاثين ألف جنيه.

ينظر «عبد الله أفندي» إلى السحابة الترابية التي أشار لها «عتيق».. هنا المكان المتفق عليه مع «الجبالي»، لا بد أن أتى على حصان ليثير كل هذه السحابة، لكن ما ظهر لهم كان جملا، تبعه جمل آخر، ثم ثالث، قطيع يسير بلا حداء، ينهض «الأفندي» متوجسا، خاصة حين صرخ «حسون» بأن قافلة إبل أخرى خلفهم، يلتفت «الأفندي»، القافلتان تسدان مدخل ومخرج الوادي كأبواب قلعة توصد عليهم، يصيح الرجل العجوز «أبو صفية» الأكثر دراية بالمكان: «كمين!».

لم يكن «الأفندي» في حاجة لذلك، فقد استشف الأمر بانغلاق المكان، وظهور بدو «الجبالية» بأعداد وفيرة من خلف الجمال بهيئتهم المميزة، ومعهم يبتسم مَن ظنوه جباليا خائنا، يحملون خناجر، يفزع الجميع ويركضون، بينما يقف «عبد الله أفندي» في مكانه، لا يُبدي حراكا بإدراكه للنهاية، كان «أبو صفية» أولَ المذبوحين، يمر الخنجر بروية على رقبته فتنفجر عروقه بالدماء،

يفتح «الأفندي» قبضة يده، فتطير الورقة من يده، ومعها تساؤلا لـ«البهاء زهير».

أترى يُسْتَدرك الفارط   مــن تضييع عمـــري؟

(١٢)

ساعة من الانتظار تمر، يوشك قرص الشمس على إعلان وفاته لليوم قبل أن يبعث مرة أخرى من جديد، يغفو «بهي» في جلسته بجواره ساعة الجزري فهو لم ينم تقريبا، بينما تتحرك «روث» ذهابا وإيابا في توتر، وينظر «أبو عمران» تجاه الممر الضيق الواصل بين فرش النبي إيليا ودير الأربعين شهيدًا، يلمح سحابة ترابية تعلو من خلف إحدى الصخور، وصلت سيارة الشخص المنتظر أخيرا، لكن على عكس توقعه تخرج دراجة بخارية صغيرة يركبها أحد البدو الصغار، لا يمكن أن تثير دراجة واحدة كل تلك السحابة الترابية، يتبعها عدد من الدراجات البخارية الأخرى، ليس المكان مخصصا لرحلات السفاري، يتذكر حكايات أسلافه التاريخية التي يتفاخر بها فيفزع، يلتفت خلفه، سحابة ترابية أخرى، تظهر أولى الدراجات البخارية، فيصيح الجبالي: «كمين!».

ينتفض «بهي» من سُباته، يحتضن الساعة، يشير «أبو عمران» فيدقق «بهي» و«روث» فيما يشير إليه، الدراجات البخارية في سرب الواحدة تلو الأخرى تسد فتحة الممر، ثم يظهر فتى يرتدي قميصا مفتوحا وبنطالا، كاشفا عن جلد أسود محمر ملتهب، ووجه أبيض يحمل الكثير من الفقاقيع، يعرفونه جيدا ولا يعرفون اسمه، لم يتردد

في إطلاق النار على الجبالي أول الليل، وظل يطارد المصور والباحثة البيئية طويلا عبر الأخدود، يلتفت «بهي» إلى الناحية الأخرى فيجد «يوسف الدقني» بصحبة الدراجات البخارية من الجهة الأخرى، يفكر «بهي» في الركض لكنه لا يجد مفرا، عدة مسدسات مصوبة من الجهتين تمنعه من اتخاذ الخطوة الحمقاء، فيقترب أكثر من الجبالي، وبالمثل تفعل «روث»، يتدثران به، بينما يدرك «أبو عمران» أنها النهاية، تضيق الحلقة الدائرية للدراجات البخارية حتى تتوقف تماما، مركزها «روث» ورفيقاها، ينزل «سليم» من على دراجته، بينما يصيح «يوسف الدقني» وهو يسير بتؤدة مخاطبا «سليم»: «هل رأيت يا ابن القصلة؟! ها هم أولاء المطلوبون الذين أبلغت عنهم، تسلمهم وابعث معي رجالك يكسرون باب دير الأربعين شهيدا».

يقترب «سليم» من الناحية الأخرى من الدائرة، ويخرج مسدسه، تغلق «روث» عينيها، وينسحب الدم من عروق «بهي»، بينما يرفع البدوي المحترق السلاح في خفة ويطلقه على صدر «يوسف الدقني»، تسمح الطلقة بانفجار دموي يغرق لحيته البيضاء الطويلة، فيسقط الرجل على الأرض، يضغط على صدره محاولا إيقاف النزيف، بينما يسير «سليم»، قدماه تقتربان من رأس الرجل الغارق في دمائه، تنازع روحه المعلقة مصيرها بين السماء والأرض، يتصاعد الأدرينالين في جسدَي «بهي» و«روث»، بينما لا يفكر «أبو عمران» سوى في الولد الذي يحمل كنيته، يتذكر ملامحه، لحظاتهما معًا، لم يكن الرجل عاطفيا، عادة يكتسبها من خشونة الصحراء، لكنه كان محبا حقيقيا، يعلم أن تلك الذكريات هي ما تسهل عليه تقبل النهاية.

ينظر «يوسف الدقني» المسجَّى إلى الفتى البدوي الصغير الذي يقف فوق رأسه فيبدو ضخما، يسأل بأنفاس ذابلة: «لماذا؟!».

يقول «سليم» وهو يرفع مسدسه بغيظ تملؤه حُرقة، نار داخلية تزيد عما مس جلده طوال تلك السنوات: «لأننا كما قلت.. أبناء القصلة.. لا ندين لأحد ولا ننتمي لأي قبيلة»، ثم يطلق الرصاصة الأخيرة فتستقر في رأس الدقني فترديه قتيلا.

تصرخ «روث» فيلتفت لها «سليم»، يتحرك «أبو عمران» مشكلا حاجزا بينها وبين «سليم»، ينطلق عدد من رفاق «سليم» متحصنين بدائرة المسدسات خلفهم، يمسكون بالجبالي، يحاول مقاومتهم، يدفع واحدا، بينما يضربه الثاني في فخذه المصابة، وينقض أربعة آخرون عليه، يمسكون بذراعيه، يمنعونه من الحركة، يقترب منه «سليم»، يشير له بيده أن يركع، فيأبى الجبالي في كبرياء، يطلق «سليم» رصاص مسدسه على أصابع قدم الجبالي، تؤلمه، يميل قليلا، لكنه لا ينحني كما اعتاد، يقول «أبو عمران» لـ«بهي»: «قص على ولدي تاريخي حتى لا ينساه.. أخبره أن يقصه لولده من بعده.. قل له يا بهي إنني كنت بطلا»، بينما تنسحب يد أحد معاوني «سليم» لتخرج سكينا حادا، يمر على رقبة رئيس الجبالية، فينفجر الدم من عروق رقبته، يسقط على ركبتيه دون أن ينحني، وكأنه يأبى ذلك حتى في مماته، ثم يقع على وجهه، وسط صراخ «بهي» مناديا اسمه، بينما يقلبه «سليم» بقدمه، يلقي نظرة أخيرة على الرجل الذي منعه ترقّي سلم الفضائل حين حاول.

حتى في موته.. يفكر الإنسان في تاريخه، وما سيتركه للتاريخ! تعجز حواس «بهي» عن الإلمام باللحظة، يُبحُّ صوته من كثرة

النداء، يحرك قدمه حتى لا تدوس دماءَ «أبي عمران» المنحور، هذا الدم مقدس، تناديه «روث» فيبدو غائبا عما حوله، مصدوما، لقد مات «أبو عمران»، وكان يحسب أن الرجل أسطوري خالد لا يفنى.

يضيق نفس «بهي»، تهاجمه أزمة صدره، يجثو على ركبته، ويُخرج البخاخة، يصيح رجال «سليم» فيطمئنهم وهو يرفع البخاخة عاليا، ثم بهدوء وببطء يضعها في فمه حتى لا يتهور أحدهم بقتله، يعالج شِعابه التي ضاقت، يشير له أحد أبناء القصلة ليناولها له، فيعطيها له، يقذف بها البدوي في الظلام فيسمع صوتها من بُعد تستقر وسط صخور الوادي المترامية، وسط فزع من «بهي» بما هو قادم.

لا تستطيع «روث» مقاومة رجلين من بدو القصلة اللذين أمسكا بذراعيها خلف ظهرها، بينما يشير ثالث إلى الساعة طالبا إياها، يناوله «بهي» الساعة في خضوع، يلقيها الثالث أرضا ويدوسها، لا حاجة لهم بها، يقول: «بهي»: «لن تستطيعوا الوصول إلى ما بها بقتلنا..».

يرد «سليم» بهدوء: «ومَن قال إنني سأقتلكما.. سأصحبكما في نزهة إلى دير الأربعين شهيدا.. أليست تلك هي المحطة التالية؟».

يدفع شابان «روث»، بينما كان نصيب «بهي» ثلاثة، وسادسهم قائدهم، يقول «سليم»: «لن تُضحيا بحياتيكما من أجل الدير، فلستما مثل الجبالي، حياتاكما أغلى عندكما مما يخفيه الرهبان، لذلك ساعداني أو تلذذا بإحساس الشاة المذبوحة».

يرتعد «بهي» و«روث»، يكمل «سليم» أوامره لبقية رفاقه على الدراجات البخارية مشيرا إلى الرجال الخمسة المصاحبين له: «سأكتفي بهؤلاء فقط.. العدد الكبير سيثير الأنظار».

يهزون رءوسهم ويتحركون مُخلّفين وراءهم سحابة ترابية تزكم الأنوف، يرحلون مع آخر ضوء للنهار، بينما ينسج الليل رداءه الحزين، يسير «سليم» في المقدمة، وخلفه يقتاد رجاله «بهي» و«روث»، ها قد نجح فيما اتهمه فيه «فيّاض» بالفشل، سيصبح فخورا به أخيرا، سيُسر بما فعله من أجله، لن يحتقره مجددا أو يقلل من قدراته ومواهبه، هو أعلم أهل الصحراء وأكثرهم بأسًا، يُخرج هاتفه المحمول ويقرر الاتصال بـ«فيّاض».

تكسر «روث» الصمت وتسأل الرهينة الثانية «بهي»: «هل تتوقع أن...».

يقاطعها «بهي» في رتابة مَن يعرف مصيره: «سنموت.. في النهاية سنموت يا روث».

«دعنا إذن لا ندلهم على المكان إن كانت النهاية محتومة».

«لا أمتلك تلك الجرأة يا روث.. لست شهيدا أو مغامرا.. ربما تركَنا بعد أن نرشده».

«لا ترشده.. لقد كنتَ دوما تمتاز بالـ...».

يقاطعها «بهي» ويقول بنبرة يائسة: «أنتِ لا تعلمين عني شيئا».

تكتفي «روث» بنظرة حائرة بينما يكمل «بهي»: «مادام الموت محتوما في النهاية.. فهناك شيء يجب أن تعرفيه عني..».

تتسع عينا «روث» في دهشة بينما يكتسي وجه «بهي» بالجدية وهو يـردف: «شيء وضيع لم يعرفه عني شخص آخر سوى بافلوس!».


BLACK

(١)

يفتح الرجل النوبي الذي يثق به حاكم مصر عباس حلمي الأول مفكرته وهو يستند بظهره على الضريح الوحيد الموجود في طور سيناء، يشعر أن انتظاره طال قليلا فيسأل خادمُ المقام الرجلَ العجوز متساقط الأسنان فلا يسمعه، يرفع النوبي صوته ليفيق الرجل الذي يعاني سكرات الشيب: «يا حاج.. أي يوم نحن؟».

يرد متساقط الأسنان فتخرج منه الأحرف مختلفة: «الثلاثاء».

يقطب النوبي حاجبيه ويقول: «الأمس كان الثلاثاء يا حاج.. التاريخ لا يعيد نفسه».

يرد العجوز وهو ينحني ليزيل بعض الحصى الذي جرفه الهواء إلى المقام: «بالتأكيد.. لكن البشر يا بني يكررون نفس الحماقات فيصلون إلى ذات النتائج».

لا يعبأ النوبي بخادم المقام العجوز، يقرر أن يشغل نفسه بالصلاة ركعتين، والدعاء أن ييسر الله أمر المرسال الذي ينتظره، فهو يترقب وصول دليل سينائي وعدَهُ بأن يقدم «تراب السامري» لوالي مصر نظير أن يغدق الأخير عليه بالمال، يسلم النوبي معلنا نهاية الصلاة، ثم يسأل خادم المقام بذات الصوت المرتفع: «يا حاج.. ما اسم مولانا في الضريح؟».

يرفع العجوز رأسه وكأنه يتذكر فيفشل، فيضحك «النوبي»: «تخدم وليا من أولياء الله وتنسى اسمه! هل تعرف كراماته؟».

يقول العجوز: «كان يتتبع خطوات موسى حتى إن الصغار يعتقدون أنه مقام سيدنا الخضر».

سيدنا الخضر.. هكذا أخبر الدليلُ السيناني الرجلَ النوبي قبل رحيله، يعلق «النوبي»: «إنه مقام سيدنا الخضر بالفعل.. لقد أخبر...».

يقاطعه الرجل العجوز: «ليس مقامه.. كان لرجل جاء من الصعيد، باع ما يمتلك حتى لم يكن يجد إلا فتات يومه، كل ذلك من أجل أثر النبي الذي سمع عنه وجُن به.. تعرف على البدو، كان يشتري بما يملك حفنات من التراب، يعتقد في كل مرة أنها الموعودة، يعود إلى القاهرة ليجربها، لم يكن في وقته سوى تماثيل الفراعنة، وفي كل مرة يسأل نفسه: هل التراب سيجعل تلك التماثيل تخور أم ستتحدث بلغاتها؟ هل ستتحرك شفاه الفرعون باللغة المصرية القديمة أم أن قدرة التراب قاصرة على صوت العِجْل فقط؟ يلقي ما في يده، فلا يحدث شيئا، خدعه البدو! يجمع المال ويعود، يبيت في الصحراء، يشتري حفنة جديدة من بدوي آخر ويلقيها على كباش الصعيد، فلا تحرك ساكنا، خدعوه ثانية، يعاود الكرة ويعاود، خمسون عاما، أفنى حياته، كان البدو ينعتونه فيما بينهم بالمجنون، حتى جاء في مرة ومات هنا، فأقام الرجال الضريح إكراما للميت، ثم تناسى الأحفاد التاريخ، كما يفعلون دائما، احتاجوا إلى مسجد وقصدوا بناء مسيحيا، فاقترح عليهم تشييده بجوار المقبرة، حتى صاح أحدهم بفكرة إقامة المسجد فوق المقام لأنه سمع قصصا عن الرجل الصالح المدفون فيه».

يصمت النوبي، يستشعر أن العجوز خرف وأصابه الجنون، يأتي الدليل السيناثي، لا يحتاج إلى سماع المزيد فالدليل السيناثي وصل، يعطي النوبي زجاجة بها تراب، ويحمل الأموال التي بعثها معه الوالي، يشكره، سيُسر الحاكم الذي يريد أن يتحصل على تلك القوة لتدميرها، فلا يجب أن يمتلك أي مخلوق ذلك، لكنه يعلم أن «عباس» المتشكك سيجربها أولا على أحد المنحوتات التي يراها كفرا، كما أنه لا يثق في البدو، ويضمر في نفسه أن يعاقب الجميع أو أن يذهب بنفسه ويشيد قصرا بجوار الدير إن حاولوا خداع رسوله النوبي، يسأل النوبي الدليل السيناثي: «هل تعلم ما يمكن لمولانا فعله إن كنت تخدعني كما حدث مع صاحب المقام؟».

يشير الدليل إلى العجوز خادم المقام: «هل تصدق هذا الخرف؟ إنه يختلق الحكايات.. كما أنني لست ساذجا لأخدع حاكم مصر».

يخرج النوبي ليلحق بركبه بينما يفيق البدوي العجوز من سكْرته ويهتف بتكرار رتيب في الرجل الذي ابتعد ولم يعد يسمعه: «اسمه الجيلاني.. الحسن الجيلاني.. إنه صاحب المقام.. اسمه الجيلاني.. الحسن الجيلاني».

(٢)

تنطلق المدافع إيذانًا ببدء الاحتفال بقداس القديسة كاترين، التي نُسبت إليها الأرض، والتاريخ أيضا، يتبع دوي الطلقات صوت الأجراس المتراقصة مجلجلة تجبر الرقاب أن تشرئب نحو الأعلى، وبينما يجلس المصلون والضيوف داخل كنيسة التجلي «البازليكا»،

يتقدم الأبُ «إيوانيكيوس» في كامل حلته الموكبَ الطواف، مرتديا تاجه المرصع بالأحجار الكريمة، حاملا عصاه الأسقفية الذهبية وخيزرانة رئاسة الدير، ممسكا بصليب ضخم، يسبقه أربعة من الشمامسة يمرجحون المباخر بأيديهم فتخالط سحابة العطر التي طالما طيبت أنوف الحجاج، رائحة الثلج الذي عاد ليستأسد في المساء، تتصاعد الصلوات بصوت «إيوانيكيوس» فيرددها الرهبان وهم يطوفون في أركان الدير حاملين تابوتين من الذهب: الأول به يد القديسة كاترين ملفوفة في قطن طبي مزدانة بالخواتم والأساور اللامعة، والثاني به جُمجمتها.

ينظر «عاكف» الذي أمر «جمعة» بملازمته إلى الموكب المتجه إلى داخل الكنيسة التي أُضيئت بالكامل بالشموع والقناديل الزيتية، فغدت كزينة العيد، تحمل من البهجة مثلما تحمل من الخشوع والورع والتصوف، أخيرا يدخل التابوتان إلى الكنيسة، لبدء الشعائر، يشغل «عاكف» هذا الثبات البادي على وجه «إيوانيكيوس» وكأنه لم يشهد مثله ليلة عاصفة بنهارها، يصله صوت غير مسموع في السماعة التي دسها في أذنه، يضغطها إلى الداخل حتى يعزل الصوت عن أصداء الصلاة، كانت رسالة من قائد الحوامة، يقول «عاكف» وهو يضع يده على فمه:

ـ «كرر».

«عاكف بك.. أرى بوضوح المذكورين، بهي والفتاة يقتادهم البدو في الطريق إلى دير الأربعين.. من المحتمل أن يكون أحد هؤلاء البدو هو نفسه الذي هاجم الدير ليلة أمس.. ما تعليماتك يا افندم؟».

ينظر «عاكف» إلى آخر الرهبان يخطو إلى داخل الكنيسة، بينما يغلق اثنان من خدم الدير البوابات، تتيح له الطاقة التي تضيق تدريجيا بين درفتَي الباب النظر إلى «إيوانيكيوس» الذي يلتفت فتتلاقى أعينهما، قبل أن تختفي صورته خلف الباب الرئيسي تماما، يقول «عاكف»:

«لا أحد يتحرك. لن نتحرك إلى هناك. مهمتنا هي حماية القداس حتى ينتهي.. أكرر، لا أحد يغادر موقعه».

يمر «عاكف» وخلفه «جمعة» بجوار باب جانبي صغير في كنيسة العليقة للزوار والمصلين، يلقي نظرة فاحصة على الحضور، بين هؤلاء رَجُله المنشود الذي لا يعرف هيئته، سيلتقيه بعد قليل، لم يتفقا على المكان والزمان وطريقة الاتصال فيما بينهما، لكنه يدرك مما فعله هو وغريمه أن كليهما يستطيع الوصول للآخر، يدقق النظر مرة أخرى في الحضور، كأنه يقوم بعمل مسح إلكتروني لهم، في الركن يقف رجله الأصلع ليقوم بدوره، يهز له «عاكف» رأسه محفزا مشجعا، فيبادله الأصلع الإيماءة، ثم يترجل قليلا خارج الباب الجانبي ويأمر في جهازه الصوتي: «أريد قطع شبكة الإنترنت بالمكان.. كم يلزم لتوفير أقرب عربة تشويش؟».

يجيبه صوت أحد الرجال: «لن يتم ذلك يا افندم إلا بالتشويش على شبكة المحمول بالكامل، معنى ذلك قطع الاتصالات والإنترنت داخل الدير».

يفكر «عاكف» للحظات، كان يحاول شل الرجل الذي لا يعرفه عن إكمال تهديده بنشر صورة الراهب الذي يدين «أحمد شفيق»، بهذه الطريقة سيغدو المكان معزولا، كل من بداخل

الدير، يأمر أخيرا: «حسنا.. كم يلزم من الوقت لتوفير أقرب سيارة تشويش؟».

- «نحو ساعة يا افندم حتى نطلب ونحرك واحدة من أقرب نقطة أمنية».

يرد «عاكف» بصرامة: «أريد أن يتم ذلك قبل انتهاء القداس».

يرفع يده عن زر الإرسال ثم يسأل الفتى الصغير الذي يلاصقه: «هل تجيد قيادة السيارات يا جمعة؟».



في الصف الخامس بجوار الممر يجلس «فيّاض»، يركز بصره على القداس، ويتحاشى أن ينظر تجاه الأمن أو البوابة حتى لا تتلاقى عيناه مع عينَي «عاكف» أو أحد رجاله، وحده اللص هو من يتلفت حوله ليتأكد أن الجميع لم يره، يبقى هاتفه المحمول داخل جيبه، فهو سلاحه الذي سيهدد به الرجل إذا ما أخل بوعده، ضمانة خروجه، بدلا من التهديد بضغط الزناد، التهديد بضغط زر نشر صورة الراهب وهو يتهم «أحمد شفيق» بأنه وراء قتله، صحيح أنه لا يمتلك تلك الصورة لكن غريمه لا يعلم، يُبقي هاتفه المحمول على الوضعية الصامتة، فيفوته أن يدرك محاولات «سليم» المتكررة للاتصال به، يرفع كُم بدلته وقميصه وينظر في الساعة، لا بد أن يتحرك بعد قليل، أثناء دخول الزوار إلى الكنيسة استغل حالة الزحام وانشغال المصلين بالترحيب أو رؤية موكب كاترين، فتحرك إلى حيث الشمع على يسار المدخل، تتراص الشموع على طاولة مكسوة بالتراب لتسمح للشمع بالاستقرار داخله، أشعل شمعته واقترب من الطاولة الترابية وأخرج كارت عيد ميلاد زاهي

الألوان على غلافه صورة «بندق» شخصية ديزني وهو يمسك بالبالونات، وثبتها على الطاولة بجوار شمعته، في الداخل كتب فيها «إلى عاكف..» ثم المكان والزمان، حتمًا سيراها أحد خدم الكنيسة أو الشمامسة أو رجال الأمن، فشكلها اللافت يثير الفضول والريبة، يلتفت «فيّاض» فيجد من موقعه أن الرسالة لا تزال في مكانها، يعاود الاعتدال سريعا ومتابعة القداس، يقترب منه أحد المصلين ويناوله ورقة مطوية، يفتحها «فيّاض» في اندهاش، بينما يجلس المصلي أمامه بمقعدين، يخفي «فيّاض» يده إلى الأسفل وهو ينظر إلى الرسالة:

«الآن.. المطحنة.. عاكف».

يجفل للحظة! عرف «عاكف» شخصيته، كيف فعل؟! يعاود الهدوء والتركيز، لا يهم فهو في كل الأحوال كان سيعرفها لحظة التبادل. يغمغم وهو ينظر تجاه باب الزوار الخلفي استعدادا للخروج: «دعنا إذن نلعب على المكشوف يا عاكف».

(٣)

يعلن الربان عن استعداد رحلة الطائرة التي عبرت المحيط للتو للهبوط في مطار «لوس أنجلوس»، ينظر «بافلوس» إلى الأرض من تحته، لا يحب الخروج من مكتبته، كعادة كل حراس المكتبة وأمنائها؛ ففي أوراقها العالم، وما خارجها عالم آخر لا يرغبه ولا يريده، تماما كما فعل سلفه «فارباسيوس» قبل قرن كامل حين خرج من المكتبة للدفاع عن وثائق الدير. كان الأخير يطالع بنوع من

الحذر ما فعله البروفسيور الألماني «كارل شميدت» المتخصص في الدراسات القبطية القادم بصحبة «برنهارت مورتيز» المدير السابق للمكتبة الخديوية بالقاهرة لدراسة وثائق الدير عام ١٩١٤، يحاول «فارباسايوس» أن يعرقل عمل «شميدت»، لكن الأخير المتخذلق استند على الموظف الأعلى بالبلاد والذي لا يمكن لأحد الوقوف في وجهه-وإلا أرسل للحاكم بشأن امتناعهم عن المساعدة العلمية، وهو ما يخشى «فارباسيوس» عواقبه، فقد يأمر الحاكم بوضع المكتبة بأكملها تحت إشراف هيئة من خارج الدير أو فصلها عن الكنيسة الدينية.

على مدار أربعة أشهر لم يكف «شميدت» عن التوثيق والتصوير، وكذا فعل «مورتيز» الذي كان عالما متمكنا من اللغة العربية؛ مما جذبه ناحية الوثائق العربية، كانت حصيلة تلك البعثة ٨٥٠٠ صورة وتدوينة وشريحة لوثائق الدير، تم نقلها في ثلاثين صندوقا، يستشعر «شميدت» عداوة «فارباسيوس» دون أن يتحدثا، تكفيه النظرات، والأحاديث التي سمعها عن بعض الحوادث الغريبة التي يشترك فيها مستشرقون ورحالة اقتربوا من الدير، يخشى على صناديقه الثلاثين من غدر البدو أو حادث مأساوي مجهول يتم تدوينه في التاريخ في سطر على عُجالة، فيرسل برقية إلى القنصل الألماني بالسويس «جورج ميلن» يطلب تأمينا وحماية للحمولة ذات الثلاثين صندوقا. يرحل الباحث الألماني على وجهه علامة النصر ليترك «فارباسيوس» غارقا في صمته وعجزه عن حماية ما وهب حياته له.



يحس «بافلوس» بردًا في «لوس أنجلوس» أكثر مما يعتاد في جبال سيناء، وظلمة رغم نور الشمس التي تضرب حدائق متحف «جيتي» الشاسعة، وفقرًا رغم الرخام الذي يملأ المباني البيضاء الفخمة لأغنى رجل عاش في العالم مهووسًا بالتحف، وموتا رغم الحدائق الغنية المتعددة الأشكال والألوان والأنواع بشكل لم يره في بستان الدير، يسير قبل ساعة من فتح المكان للجمهور في المدخل، يصعد السلالم البيضاء في الساحة، تقع عيناه على تمثال سيدة عارية مضطجعة على جانبها الأيمن، تباعد بين ساقيها في خفة وتصد بيدها اليمنى الهواء قبل أن يخبط ثدييها البارزين في استدارة، يغض «بافلوس» بصره عن التمثال الجرانيتي الأسود الذي نحته الفرنسي «آريستيد مايول» ويكمل طريقه إلى الداخل، على الأعمدة صور يعرفها جيدا، ملصقات دعائية عن معرض خاص لأبرز أيقونات الدير: لوحة المسيح «بندوكاتور»، سلم الفضائل، أيقونة سان بيتر الخشبية، ثم تاريخ المعرض «١٤ نوفمبر ٢٠٠٦ إلى ٤ مارس ٢٠٠٧»، يعد الأيام منتظرا انتهاء الكابوس الذي يعيشه، قبل أشهر جاءه «إيوانيكيوس» أسقف الدير بنفسه إلى المكتبة، وقلّما يفعلها الرجل الأول في الدير، يرحب مسئول المكتبة بأسقف الدير ويدعوه للدخول فيفعل، يقول «إيوانيكيوس» وهو ينظر إلى الأرفف التي أفنى «بافلوس» عمره بينها: «كل هذا التراث العظيم هو كنز الدير الحقيقي»، لا يجيب «بافلوس»، فالجمل المفتاحية تحمل وراءها ما لا يفضله دائما، يكمل «إيوانيكيوس»:

«لقد أرسل لنا مركز جيتي في كاليفورنيا اقتراحا بإقامة معرض لعدد من أيقونات الدير ووافقت».

ينفعل «بافلوس» صارخا باليونانية: «وافقت! لا، أنت لا تريد أن تعيد ما حدث في الحرب العالمية الأولى».

ـ «الزمان تغير يا بافلوس.. جيتي مؤسسة عالمية قدمت لنا تصورا عن عملية النقل وحفظ المخطوطات في أوعية فولاذية ستُصنع خصيصا، ستكون الأيقونات في أمان».

يصيح «بافلوس»: «ما يحفظ مخطوطاتنا عبر الأزمنة لم تكن الأوعية الفولاذية.. بل دماؤنا».

ـ «عرفت أنك ستخشى على صغارك.. فاشترطت أن تسافر مع المخطوطات طوال فترة المعرض».

ـ «لا.. فلترجع عن قرارك، نحن نحاول الابتعاد عن الفضوليين والأعين المتربصة، وأنت تضع مخطوطاتنا وسط معرض».

ـ «هل تعتقد أن زواره سيكونون ممن نخافهم أو ممن يدققون فيها فيفهمون ما تخفيه إشاراتها؟! إنني أتحدث عن أمريكا.. الجمهور سيغدو مراهقين يحملون ساندوتشات برجر أثناء مشاهدة الأيقونات بلا اهتمام».

يستشيط «بافلوس» غضبا فيصرخ من انعدام المنطق: «إن كانوا بلهاء.. فلمَ نعرض كنوزنا عليهم؟!».

يرد «إيوانيكيوس» وهو يضرب بصليبه الذهبي الأرض وكأنه يحذر «بافلوس» من التمادي في الحديث بتلك النبرة التي حتما سمعها مَن بالدير: «لأن مبلغ التأمين مُجزٍ يا بافلوس.. ملايين الدولارات تساعدنا على عمليات الترميم المتأخرة، تمنحنا متنفسا لندفعها كإتاوات ومساعدات لبدو الجبل لاتقاء شرهم.. وضْعُنا المالي يهدد قدرتنا على حماية الدير يا بافلوس».

يصمتان فيقول «إيوانيكيوس»: «كما أنك تُدخل الغرباء إلى مكتبك ولا أعترض!».

ـ «غرباء!».

ـ «المصور الذي تحتضنه».

ـ «لا تقلق فهو لا يفهم اليونانية وليس من سكان المنطقة حتى ينصت لأساطيرها».

بتعجب يقول «إيوانيكيوس»: «ما كل هذه الثقة في غريب!».

يرد «بافلوس» بصرامة: «هذا بالضبط ما تحتاج أن تسمعه بخصوص المعرض».

❖ ❖ ❖

يخرج «فارباسيوس» مودعا أصدقاءه من الرهبان في الدير قاصدا القاهرة، رافضا أن يخبر أحدا عن وجهته أو سبب رحيله، يكتفي بإخبار أسقف الدير ألا يقلق عليه إن لم يعد فهو في مهمة استعادة صورة الوثائق التي أخذها الباحث الألماني، يعتقد أسقف الدير وقتها أن حارس المكتبة فقد عقله من الحسرة، فحتى البدو لم يستطيعوا الاقتراب من الحمولة التي وصلت إلى السويس منذ أيام، والتي يستعد الباحث الألماني للسفر بها إلى بلاده خلال أيام بعد أن اشتعلت الحرب «العظمى» الأولى، يحاول أسقف الدير أن يثني «فارباسيوس» عن مهمته المجهولة لكنه يفشل.

يوسم «فارباسيوس» الصليب على جسده قبل أن يطرق باب مكتب الرئاسة العسكرية البريطانية في القاهرة، يأمره الحاكم العسكري بالدخول، فيسير الراهب متسربلا في سواده، يقول

للرجل الإنجليزي بهدوء شديد: «أريد التبليغ عن ثلاثين صندوقا تحتوي وثائق جاسوسية ألمانية».

* * *

لم يكن «بافلوس» في حاجة ليشرح لـ«بهي» سبب خلافه مع الأسقف الذي سمع الدير بأكمله عنه ولم يدرِ أحد سببه، فبعد عدة أيام وصل فريق المتحف ليضع الوثائق والأيقونات في صناديق فولاذية من أجل معرض يستمر أربعة أشهر، وقتها خمن المصور أن الخلاف متعلق بهذا الحدث الذي يكرهه «بافلوس»، وها هو ذا يقف يوميا أمام حديقة صالة العرض الدائرية المتداخلة في شكل متاهة، يطلب الرحمة لسلفه «فارباسيوس»، فلولاه لما دمر الحاكم الإنجليزي الصناديق الثلاثين، يبدأ الجمهور في التوافد فيدقق «بافلوس» في الزوار وخصوصًا المتكررين ويتفحصهم، يحاول أن يلمح ما يثير ريبته، لكن «إيوانيكيوس» كان محقا: فما الذي يثير القلق في ولدين مراهقين يأتيان يوميا لم يصارحا محيطيهما بهويتيهما الجنسية، يفترشان الحديقة ثم يعرجان على بعض أركان المعرض، يتناولان الغذاء، يتضاحكان، ويختلسان قبلة بعيدة عن الأعين؟! ينفر «بافلوس» مما يراه لكنه كان ليغضب لو رآهما مهتمَّيْن بالأيقونات، أو في فتاة عشرينية مُقعدة على كرسي مدولب بصحبة أطفال مدارس، مرشدة رحلات مدرسية للصغار، تدفع الكرسي بيدها وتصطحب الأطفال في جولة، تصورهم، ثم تدعهم ينطلقون في حدائق جيتي بينما تشغل الوقت الذي لا تستطيع الركض فيه مثلهم بالبقاء داخل المعرض، أو اللعب بمكعب روبيك الملون، أو قراءة الصحف، أو مساعدة أطفالها في إنهاء كتيبات

التلوين، أو ما الذي قد يقلقه في عاشق للرسم بأقلام الفحم، هيبي أطال شعره يسكن منطقة فينيسيا القريبة والتي تعد موطنا لأقرانه، يتعاطى المخدر قبل أن يأتي.. فينتشي، ويعيد تشكيل وجه المسيح «بندوكاتور» الذي ينظر إلى العالم بوجهين؛ الأيمن يحوي نظرة حادة تراقب العالم كقاضٍ على منصته، والأيسر بعين حزينة هادئة تعكس دور الشفيع المنقذ، مضطرب، يبكي فجأة ويطلب من المسيح الذي يرسمه أن يسامحه على تعاطيه المخدر.

الأمور أهدأ من ثورته التي أطلقها في وجه «إيوانيكيوس»، لكن هذا لم يمنعه من الإحساس بالضجر من أضواء المدينة اللامعة التي لا تشابه أبدًا «سانت كاترين».

(٤)

يتجاوز «فيّاض» سلسلة حديدية تم إغلاق الطريق إلى بقية الدير بها، المكان خالٍ، الجميع منشغل بالقداس، أخيرا يرى أمامه المطحنة، يدخلها، لا يزال الدقيق على القاعدة الرخامية التي تتوسطها، بعض الأرغفة على طاولة أخرى، يمد يده ويقطع طرف الرغيف ويتناوله، صنعوه على عَجَل هذه المرة بسبب ما فعله فيهم أول الليل، لو أنه امتلك الوقت الكافي للبقاء هنا لأخبر «إيوانيكيوس» برأيه في الخبز هذه المرة، ويبدي استياءه من عدم إتقانهم له كالمرات السابقة، لكنه سيحصل على مراده ويتحرك خارجا، الساعة التي تم تخزين تراب السامري بها كما تحكي القصص المتواترة التي يرويها بعض المنشقين من داخل الدير،

يسمع صوت خطوات خلفه فيلتفت، لم يكن «عاكف»، بل أحد رجاله، رجل أصلع ضخم مميز، يعتبره «عاكف بك» رجله الأول، يغلق الأصلع الباب خلفه فيصدر صريرا، يقول «فيّاض» بارتباك: «لست عاكف.. أين رئيسك؟!».

يقترب الأصلع في صمت وهدوء، يخرج «فيّاض» من جيب بدلته المحمول، يرى أنواره تومض باتصال لـ«سليم»، ليس هذا وقتا لذاك المريض النفسي، يقول «فيّاض» مهددا ملوحا بهاتفه المحمول: «إن اقتربت سأنشر صورة الراهب المقتول عبر الإنترنت فتحترق البلاد.. أخبر عاكف بذلك».

لكن الأصلع لا يستجيب، بل يحرك يده بخفة وسرعة فيطيح بالمحمول الذي يسقط على منضدة الطحين، بسيف يده يضرب «فيّاض» على رقبته ضربة مؤلمة، تجعله يسقط، فيمسكه الأصلع الضخم، يديره جاعلا ظهره في مواجهة وجهه، يطبق على رقبة «فيّاض» برسغه الأيمن، بينما يستخدم يده اليسرى كداعم لتضيق الخناق عليه، يتحرك «فيّاض» في هياج، يشعر بالاختناق، يخبط بقدمه المنضدة فيتطاير لوح خشبي يحمل الدقيق فوقه فينساب فوقهما كِقِطع ثلج صغيرة، ملح منثور، محولا المطحنة إلى كرة ثلج بلورية يلعب بها الأطفال يتراقص بها «فيّاض» محاولا الإفلات من القبضة العضلية للرجل الأصلع، الفارق الوحيد أن الأطفال لن يشعروا بارتياح لرؤية الرجل الأصلع وهو يخنق «فيّاض» في ثبات وقوة، يضرب «فيّاض» الأرض عدة مرات أخرى في محاولة للتخلص من الرجل، تنطبع قدماه على الدقيق مهتزة وعشوائية، حتى تتوقفا تماما عن وضع بصماتهما على الأرضية، لا تتحركان،

يدرك حينها الأصلع أن الرجل قضى نحبه، كان يمكنه أن ينهي حياته برصاصة، لكنه لم يمتلك عازلًا للصوت يمنع الآخرين من سماع الدوي، يترك الأصلع «فيّاض» فيهوي على الأرض بعينين جاحظتين ورقبة متورمة ووجه مزرق، يمسك «الأصلع» هاتفه المحمول ويطلب رقما ويقول: «لقد قضيت على الخائن يا سيدي».

من الجانب الآخر تأتيه التحية بكلمة واحدة: «عفارم.. عفارم»، كلمة تركية «afarin» يقولها المتحدث وهو ينظر إلى مضيق البوسفور ويبتسم، ثم يكمل المؤرخ الذي يعرفه الأصلع بذات الاسم «#»: «والآن يا بطل.. احصل على الخبيئة من المصور قبل أن يقتله البدوي الأرعن».

ينهي «الأصلع» المكالمة، ويلقي نظرة على جثة الغبي الذي ظن للحظة أنه قد يكون أقوى من المؤرخ الذي يحرك الأمور بأصابعه، رجل مضيق البوسفور يغدق بالمال ليحصل على ما يريد وقتما يريد، يمر الأصلع من فوقه وهو ينظر إلى المحمول المضيء على طاولة الطحين، يحمل المتصل اسم «سليم»، يرد الأصلع فيتحدث البدوي الذي يهوى النيران بسرعة: «لم أخيب ظنك يا حاج.. في طريقي للخبيئة مع المصور والفتاة».

يرد «الأصلع» بصوت هادئ: «الحاج فيّاض في القداس الآن.. طلب مني أن أرد وأخبرك بألا تقتل المصور حتى نعرف موقع الخبيئة بالضبط، سيوافيك عقب انتهاء القداس إلى كنيسة الأربعين شهيدا».

(٥)

يمسك «بافلوس» الحلقتين المعدنيتين للباب الخشبي العتيق لكنيسة التجلي (البازليكيا)، يتأمل «بهي» النقوش الغائرة للنباتات والطيور والأسماك التي تزين درفتَي الباب، يدفعهما بافلوس كاشفا عن الساحة الكبرى للكنيسة، يدخل الراهب متسربلا بهذا الفتى الذي أطال لحيته وطأطأ رأسه في وهن وبؤس جعلاه يحدق في الأرضية الدمشقية الهندسية ذات اللونين الأسود والقرمزي، ومنعاه من رؤية النجف والشمعدان الذهبي الذي يملأ الساحة محولا إياها إلى حلية كبيرة، خاصة وأنها أُضيئت بالشموع في تلك الليلة، لا كهرباء ولا إضاءة اصطناعية، نور الخالق صباحا ودموع العذراء الشمعية ليلا، تحتاج إضاءتها إلى أن يحمل راهبا سُلمًا معدنيا لوضع الزيوت في القناديل العلوية، عملية طويلة يزيدها طولا وهن الرهبان وكثرة القناديل، يمران بجوار منبر الوعظ ثم يتجاوزان كرسي الأسقف الخشبي الذي يحرس ذراعيه طائر ضخم يطأطئ رأسه تماما مثل «بهي».

بالأمس اصطدم «بهي» بكتف المطران «بافلوس» وهو يسير ساهما في ساحة الدير في الساعات المخصصة للسياح، فالتفت واعتذر، عرفه صاحب عمى الألوان رغم أن لحية الفتى استطالت، وازداد السواد تحت عينيه، يسألون دائما لماذا تم اختيار السواد كلون للحزن، بينما يفرضه الجسم العليل أولا، تظهر آثاره لتعبر عن الأرق والتوتر والحزن ودوام البكاء، يسأل «بافلوس»: «ألستَ ذلك المصور الصحفي الذي جاء قبل عام لتصوير الدير.. أحمد؟!».

يقول المصور بنبرة منكسرة: «لقد تركت العمل في الصحافة».

يصمت «بهي»، يتأكد المطران من أن همًّا كالجبال يثقل كاهل الفتى، رغم عزلة «بافلوس» في الدير، كان يعلم نفوس البشر بشكل جيد، وكأن عجز عينيه سمح له بالولوج إلى أرواحهم ورؤية ما بها، لا يهوى الاختلاط لكنه لا يقدر الوقوف مكتوف اليدين أمام الحيارى والمعذبين، يهمُّ المصور بالانصراف، فيعلق المطران بنبرة استفهامية: «إذن أنت هنا في إجازة؟!».

يهز المصور رأسه غير مكترث ويقول: «أريد العزلة».

يتحرك الفتى، يبتعد عن المطران خطوات، يقف «بافلوس» لمراقبته، ثم يهتف به: «هل تريد الاعتراف؟!».

يتوقف «بهي»، يلتفت ليتأكد أنه المقصود بالجملة، ينظر حوله، «بافلوس» لا يخاطب غيره، ربما يريد ذلك، فهو لم يقوَ عليه سابقا، يريد أن يفضفض ويبوح بما داخله لرجل لن يراه مرة أخرى، يقترب منه «بافلوس» في تؤدة ويقول مقررا: «سأنتظرك غدا بعد المغيب يا بُني».

الاعتراف.. أحوج ما يريده الآن هو ذلك الطقس الكنسي، سيجلس في تلك الغرفة الخشبية ليلمح لحية الرجل المسن من خلف فتحات الشباك الصغير الفاصل بينهما، سيترك كل ما بداخله هنا ويرحل، واليوم يسير خلف «بافلوس» بامتداد الكنيسة. يتجاوز المطران العازل الخشبي المزين بالأيقونات والذي يفصل الكنيسة عن المذبح، بينما يقف «بهي» لا يعرف إن كان مسموحا له العبور، فالمكان ليس مصرحا به للمصلين والسياح/ لكنه اليوم معترف، مهموم يبحث عن علاج، يتأمل الأيقونات الزاهية، يذكرها جيدا،

رآها في أرشيف الجريدة القومية-حين كان يذهب إلى والده محاولا التعلم، أو مزهوا بصورة جيدة التقطها، يريها لعدد من مصوري الجريدة التي لا يعمل بها الأب أولا، يعلق عليها بعض شيوخ المهنة، ثم يتركونه لوالده؛ أمهر من عمل في هذا المجال، والأكثر دراية بتاريخه، ذاكرته الاستثنائية تستطيع أن تلهم الآخرين بحكايات عن مصورين من أجيال أكبر، زوايا تصويرهم، وبالطبع أرشيفهم الذي يمتلك سلطة الولوج إليه، يطالع «حسن» صورة التقطها ابنه «أحمد» لرحلة الحج الأصغر في «حميثرة»، يشير المخضرم بيده إلى ابنه ويخبره أنها تشبه كثيرا في تكوينها صورة لأحد أساطين المهنة من الأجيال الراحلة يسمى «محمد الجندولي»، يبحث الفتى على الإنترنت فلا يجد أثرا لـ«الجندولي»، يبتسم والده ويعطيه كلمة السر للولوج إلى العالم الساحر: أرشيف الجريدة.. التاريخ.

يطل «بافلوس» برأسه من الشق المفصلي لباب الفاصل الأيقوني، ويشير للمصور بأن يتبعه، يدخل الفتى المذبح، يرفع عينيه على نصف القبة العلوية الفسيفسائية، اللون الأزرق بدرجاته المختلفة يجتمع مع الذهبي مكونا صورة للمسيح ضامًّا بنصر وإبهام يده اليمنى، وعن يمينه يقف موسى، في هذه الكنيسة تجتمع الألوان الأربعة للألواح الطباعية لتُكوّن الصورة الكاملة: سيان.. رداء المسيح ولحيته وهالة القدسية من حوله، ماجينتا.. في حُمرة الأشكال الهندسية المكونة للأرضية، يلو.. صفرة الذهب التي تضرب النجف والشمعدان، بلاك.. سواد رداء الراهب الذي يجذبه نحو الاعتراف.. وكذا سواد الحقيقة.

وسواد يوم الفضيحة!

حين هاج والده وصرخ فيمن يملئون الدور الرابع لصالة التحرير في الجريدة، كان الاتهام هادئا من رئيس التحرير في مكتبه مراعاة لتاريخ «حسن بهي»، لكن الأب أبى أن يتم الطعن في تاريخه فخرج للصالة وزعق، اجتمع زملاءه وصغار الصحفيين، صاح «حسن» أن رئيس التحرير يريد أن يحقق معه في شكوى موظف صغير في الأرشيف يتهمه بسرقة صور الجريدة، صرخ المخضرم بأن ما يتردد من الأنباء عن اقترابه لمنصب رئيس مجلس الإدارة جعل رئيس التحرير يحاول الكيد به، لم يهدأ «حسن»، كل مَن حكى الواقعة بعد ذلك أكد الأمر، وصلت الأنباء بسرعة البرق إلى الجريدة الخاصة التي يعمل بها ابنه «أحمد»، أخبروه أيضا أن رئيس التحرير أمام التشكيك في نزاهته من قِبَل والده لم يجد بُدًّا من الخروج إلى صالة التحرير أثناء صراخ والده، حاملا كمبيوتر محمولًا، به عمليات نسخ صور الأرشيف المباعة من قِبَل حساب والده على الجريدة، حينها.. وحينها فقط، سقط المخضرم مغشيا عليه، وتحولت الدنيا في عينيه حرفيا إلى اللون الأسود.

يعرج «بافلوس» إلى اليمين، يمر من الفتحة الضيقة، فالكنيسة الكبرى (التجلي)، تضم في داخلها عددًا من الكنائس الأصغر لم يزرها «بهي» يوما، يمران بجوار أعمدة قبة الفسيفساء، ترتكز الكنيسة بالكامل على اثني عشر عمودا بعدد شهور السنة، على كل منها لوحة بصور الشهداء والقديسين الذين رحلوا في هذا الشهر، مع اسم الشهر باليونانية التي تملأ المكان، وبداخل الأعمدة فتحة صغيرة كفتحات صناديق البريد وُضِع فيها بعض عظام القديسين لتقوية العمد برفاتهم الطاهر وعملهم الصالح الذي لم ينقطع بالوفاة.

خلف الفاصل الخشبي يتبع «بهي» الراهب، أمامهما أربعة حوامل ذهبية للشمع، بينما تستقر على الحائط أيقونة الشهداء الأربعين، يقترب منها «بهي»، يشده انتظام المصفوفة التي يقف فيها الشهداء وتتابعها (سمترية)، يعد بإصبعه، فيقول «بافلوس»: «أربعون شهيدا، لهم كنيسة على قمة الجبل، حتى وادي الأربعين مسمى باسمهم»، يعلق «بهي»: «لكنني سمعت من الأدلة أن...».

يقاطعه الراهب بثقة ويكمل: «إن الوادي سُمي بالأربعين نسبة إلى الليالي التي قضاها موسى يناجي ربه انتظارًا للوصايا، أو أنهم عدد الرسل الذين صعدوا مع موسى إلى الجبل لملاقاة ربه.. أليس كذلك؟!».

يهز المصور رأسه فيبتسم «بافلوس»، ويكمل: «مسكين! لا تعلم شيئا عن التاريخ!».

يعلق «بهي»: «لكنني أحب قراءته».

يعقب الراهب: «القراءة غير البحث يا بني.. التاريخ يحتاج لاجتهاد لمعرفته».

ثم يميل «بافلوس» ليخلع نعليه وجبّته السوداء فيبدو شعره منحولا من المقدمة، ينظر بعينيه إلى حذاء «بهي» ويقول: «بالداخل كنيسة الشجرة المحترقة.. حيث خلع موسى حذاءه محدّثا ربه.. اخلع نعليك».

أصر الأطباء عقب خروج والده (حسن) من المستشفى على راحته، يتحامل الابن على نفسه، بداخله الشعور بالمفاجأة، دائما ما يسبق الألم، يزول الألم أحيانا، إلا أن الخزي وعار الفضيحة لا يفارقان صاحبها، يتحاشى «بهي» أن ينظر إلى والده وهو يصحبه إلى المنزل الذي خلا إلا منهما بعد وفاة الأم، تغدو الأيام مرهقة،

فـ«بهي» يتجنب أن يجيب والده سوى بعبارات مقتضبة تتعلق بالغذاء والدواء، ويغيب كثيرا في ساعات نشاط الأب حتى لا يصطدم به، ويبكي، لا يقدر على العودة إلى العمل، يقول له «حسن البهي» الجالس في غرفته بصوت مرتفع إنه سيرفع قضية على الجريدة عقب استرداد صحته، يدخل الابن حاملا الأدوية وكوب الماء مغمغما بصوت خفيض: «إن شاء الله»، ثم يذهب إلى المطبخ ويحضر صينية الطعام ويضعها بجوار والده ويقول: «سأعود مساء»، ويتحرك متجنبا النظر له، يسأل المخضرم مندهشا وهو يرى من باب غرفته كمبيوتر ولده المحمول موضوعا: «لماذا تترك اللاب توب؟ ألا تذهب إلى العمل؟!».

يقول الفتى باقتضاب وهو يضع العكاز بجوار سرير والده صاحب الفضيحة: «في إجازة..».

كالغصة تقف الكلمة في حلق الأب، فيكمل الابن بصوت باهت: «لا تتعب نفسك بالسير سوى للحمّام إن أردت»، ثم ينتعل الابن حذاءه على الباب ويخرج.

الوادي المقدس طوى.. يخلع «بهي» حذاءيه ويدلف من باب الفاصل الخشبي، فيجد الزرقة تحيطه. شباك صغير من الأعلى يعكس ضوء القمر الفضي، فيكشف الحائط الرخامي المكون من أشكال هندسية ودائرية يتداخل فيها اللونان الأزرق والأبيض، والقِبلة الدائرية المجوفة التي تضم طاولة مسورة بالأرابيسك يعلوها صليب ضخم، يلتفت «بهي» في الغرفة الصغيرة، فلا يجد أثرا لغرفة اعتراف، ينظر إلى «بافلوس» الذي دلف خلفه ويسأله: «ألا توجد غرفة اعتراف؟».

يرد الكاهن: «لا يسير الأمر كذلك هنا.. أنت في دير وليس كنيسة يتردد عليها يوميا الآلاف.. لا يوجد لدينا طقس اعتراف.. لكننا نملك ما هو أكبر».

يشير إلى أعلى ويقول: «هنا تكلم الإله مع موسى.. يمكنك أن تكلمه.. وتُخرج ما في صدرك».

«وما فائدة أن أُخرج ما يعرفه الإله بالفعل؟!».

«أن تعرفه أنت كذلك.. أن تُقر به».

يتردد «بهي»، بينما ترتسم ملامح هادئة على وجه «بافلوس»، يهز وجهه بحنو ليشجع المصور، يجوب الأخير الكنيسة ذهابًا وإيابا، يسقط على ركبتيه ثم ينظر إلى المطران ويقول: «إنه أبي»، ثم يرفع رأسه إلى السماء بعين دامعة ويكمل: «أو بالأحرى.. تاريخ أبي».

التاريخ.. ذلك اللعين الذي لا نهنأ بمعرفة حقيقته ولا نهدأ بإخفائه وتحريفه، كلاهما وتد يُدق في أطراف صاحبه المصلوب، تاريخ كان زاخرا لـ«حسن بهي» قبل أن تفسده بقعة سوداء، ينهض في وهن متكئا على عصاه، لا يقوى على الخروج من حيزه الصغير في وجود ولده، تقتله نظراته الدائنة فيسكن في غرفته، لكنه تحامل ونهض ببطء، بالمثل فعل «بهي»، لن يقوى على الاعتراف الكامل.. ينظر في عينَي «بافلوس»، يكمل بصوت مبحوح: «ألا يعلم ما قيل عنه على مواقع التواصل الاجتماعي؟!».

لكن «حسن» لم يكن يعلم بالفعل بما يقال، قاده فضوله ليرى شماتة منافسيه أو تراخي تلاميذه عن الدفاع، يفتح جهاز «أحمد» ليكتشف ذلك، بينما يقرر الابن العودة إلى المنزل، يفتح الباب ليجد والده مدهوشا أمام تلك الصور التي يعرفها جيدا، ملف كامل

تم اتهامه ببيعه موجود على جهاز ولده، هكذا إذن سُحبت بواسطة حسابه وكلمة السر الخاصين به، يلتفت المخضرم الموصوم إلى «بهي» الذي لا يقوى على مواجهته فيركض.

لا تركض!

لا تركض.. فلا سبيل لنجاتك.

لا تنظر خلفك.. فلن تتخلص مما يلاحقك.. خطاه ثابتة كالزمن ويعرف أن مصيرك محتوم.

لا تركض يا بني..

يقولها «بافلوس» للفتى الذي خرج منهارا من كنيسة الشجرة المحترقة، حافيا، تاركا دنسه في البقعة المباركة، يقف «بهي» أخيرا أمام صيحات «بافلوس» ويلتفت.

لقد أقر بفعلته مولانا بافلوس.. في التحقيق الإداري اعترف بها.. زيف تاريخه ليحفظ مستقبلي.. قال لي إنه لم يعد يملك الكثير من السنوات مثلي.

إذن تحمَّل زيف التاريخ يا بهي.. فجميعنا يفعل.

لن أقدر.. لم أعد أحتمل ذلك، فما بالك أن أعيش به لسنوات.. سيحافظ فيها والدي على زيف التاريخ من أجلي.. صامتا عما اقترفته يداي؟! لم أعد أقوى على مكالمته يا مولانا..

أنادم يا بهي؟

كل الندم!

إذن تحمَّل أن تكشف حقيقة التاريخ.

(٦)

(نزلنا من البرج وفتشنا المواضع التي قتل فيها الآباء فوجدنا ثمانية وثلاثين نفسًا قتلى، وجريحين وهما شعيا وسابا، أمّا شعيا فإنه توفي بعد ليلة واحدة، وأمّا سابا فقد كان يؤمل له الشفاء؛ لأن الضربة التي أصابته لم تكن خطرة، فجعل يشكر الله على الأشياء التي عرضت له، ولكنه استعظم الأمر لأنه لم يؤهل لمرافقة القديسين، وقائلًا «ويلي! أنا الخاطي! ويلي! أيها الصالح والمحب للبشر، لا تفرقني من الآباء القديسين الذي سلفت وفاتهم، وليتم بي عدد عبيدك الأربعين». قال هذا وأسلم الروح في اليوم الرابع من وفاة القديسين)

خبر الراهب أمونيوس عن الأربعين شهيدا في طور سيناء

لم تعلق «روث»، لا يعلم «بهي» إن كان ذلك من أثر اعترافه أم ظهور بستان دير الأربعين شهيدا في الأفق خلف الأسوار، في الحالتين يتنهد لأنه لم يكن يرغب في الحصول على رد، مواسيا كان أم لائما، فهو ارتكب ما ارتكب وعاش معه لسنوات ستنقضي الآن، تقترب النهاية فتصبح ومضات التاريخ مع المحبين هي الشافية والمخففة، لكن في حالته لم يجدها.

يدفعه أحد أبناء القصلة، ليسرع من خطوته، يلوح له في الأفق الطوب الصخري المحيط بسور الدير وبستانها الشاسع، يكسرون القفل الحديدي بِعَتلةٍ، يدلفون من الباب، لا أحد هنا، لا خادم ولا راعي للبستان، مناخ مناسب للقتل الهادئ، يدوسون بأقدامهم ثمارًا تساقطت، يميل «بهي» ويلتقط واحدة، ثمرة رمان عفنة، تحول عقيقها الأحمر إلى الأسود بفعل عفن وداء أصاب

المحصول بالكامل، تخطو الأقدام فتنفجر الثمرات التي ماتت قبلا من الداخل، تنطلق دماؤها المتجلطة الضاربة للسواد على أقدامهم، حتى تلك الوارفة الكبيرة التي تغطي الباب الصغير للكنيسة، أرخت حمولتها من الفساد، بينما نضبت البئر القريبة، الكنيسة مهجورة، لا يزورها الرهبان، كعدد من الكنائس الصغيرة، مجرد صكوك ملكية لأراضي الدير، ينبح كلب شارد بالقرب من باب الكنيسة فيرديه «سليم» قتيلا»، ويشير لرجاله بفتح الباب الخشبي الذي يضم أشرطة معدنية لحمايته من الاقتحام.

لكن لا شيء يقف أمام أبناء القصلة، يُخرج أحدهم من حقيبته بلطة، يضرب بها الباب الذي تآكل خشبه من المنتصف، عدة ضربات فينفلق كما انفلق البحر سامحا لموسى وقومه بالعبور، يدفع جزءه المستند على مفصلات فينفتح.

يدفع رجال «سليم» الرهينتين إلى الداخل، تبدو الكنيسة من الداخل أبسط كثيرا من كنائس كاترين، بلا نجف ذهبي، يضيء أحدهم مشعلا، ثم يبحث داخل القناديل ربما وجد زيتا، يلقي بجذوة النار فيما وجد، الإضاءة غير متساوية، مناطق تحمل النور تجاورها الظلمة الكاحلة، جنة تجاور النار، وشياه يدفعهم جزّاروهم، تنعكس ظلال على الأرضية والمقاعد لأبناء القصلة فيبدون أكبر مما هم عليه، في الداخل حيث المذبح ينظر «بهي» إلى غايته فيتقدم خطوة، بينما أسلحة رجال «سليم» مصوبة إلى ظهره ورأسه، لا مكان للركض ولألاعيب الهرب هنا، لا سبيل إلا أن ينفذ «بهي» ما يريده البدوي المحترق، يقول «سليم» مهددا «بهي»:

«ها هو ذا الصليب».

يلتفت له «بهي» فيرى «روث» بين يدي أحد رجاله، مصوبا إلى رأسها فوهة المسدس، فيسير بهدوء تجاه الصليب الذي يعلو حجرة خشبية للمذبح، يحتاج إلى سلم صغير للوصول إلى الصليب، يلتفت حوله، يسحب أحد المقاعد المخصصة للصلاة فتصدرا صوتا حادا مع الأرضية، يجرها رغم ثقلها ذون مساعدة من رجال «سليم» الذين صبّوا كامل تركيزهم في التصويب على الرهينتين.

يضع المقعد بجوار البوابة الخشبية ويقف عليها ناظرا إلى الصليب البرونزي الكبير، يزيد ارتفاعه عن متر بينما يقل عرضه عن المتر بقليل، يحمل طرفه العلوي وطرفاه الجانبيان بروزا على شكل حدوة، فيظهر الصليب كأنه مقرن، بقرون موسى المتخيلة من فناني الغرب أو قرون العجل الذي رآه بعد أن حمل الوصايا أو الإلهة حتحور التي لعب بها صغيرا في شكل مرآة، لم تقلل بعض اللحامات من جمال الصليب الذي يعود إلى القرن السادس الميلادي، يمرر بهي يده على ضلعيه الأفقيين، تبرز منهما ست دوائر مفرغة، ثلاث في كل اتجاه، يتصور «بهي» أنها كانت أماكن تتدلى منها أحجار كريمة لم تعد موجودة، أما على الطرف العلوي فمثبت تجويفان لوضع الشموع، كان صليبا جميلا له نسخ قليلة إحداها في المتحف لكن ليس له مثيل بين بقية الصلبان، وما يقف أمامه بالتحديد يخفي شيئا داخله، يمكن إخراجه بطريقة ما، لا يعرفها «بهي»، فيبحث، يفكر في تجاويف الشمع فيصيح: «أريد شمعا».

ينظر له سليم فيعلق المصور: «لا أعرف كيف أخرج ما بداخل الصليب.. دعني أجرب».

يتجه «سليم» إلى ركن الشموع، يخرج قداحة ويشعل شمعتين، بعيد القداحة إلى جيبه، ويسير حاملا الشمعتين، يسيل الشمع الذائب على كفه فلا يتألم، ينظر له «بهي» فيخيفه الأمر، يضع الشمعتين في موضعيهما، فيلمع الصليب البرونزي، تظهر الكتابة على كامل الصليب أوضح، بلغة لا يعرفها، أقرب إلى اللاتينية أو اليونانية، بينما نقش على طرف الصليب الأيمن صورة لموسى وهو يخلع نعليه تُماثل لوحة الفسيفساء الموجودة في الحائط الشرقي لكنيسة التجلي التي تشهد القداس الآن، على الطرف الأيسر كان رسما غائرا لموسى وهو يتلقى الوصايا العشر تماما كلوحة فسيفسائية في ذات الكنيسة بدير سانت كاترين.

يلتفت نحو «سليم» ويقول: الكتابة على الصليب باليونانية أو اللاتينية، وأنا لا أعرف أيًا منهما».

يدفع أحد أبناء القصلة روث فتسقط على ركبتيها، تتأوه، وتهم بالنهوض، فيقول «بهي»: «ولا الفتاة».

لكن «سليم» لا يملك رفاهية التصديق، فيسير نحو الفتاة ويجذبها من شعرها بقوة وسط تأوهها وهو يجرها على الأرض، ينزل «بهي» من مقعده، فيهز أحد أبناء القصلة المسدس في وجهه ليُذكر المصور ألا يقترب، يتراجع «بهي»، يصيح «سليم»: «إن لم تخبرني بما يخبئه هذا الصليب الآن فسأفجر رأسها».

بقلق يقول «بهي»: «حسنا، حسنا.. دعني أحاول أن...».

يقاطعه دخول رجل عاكف الأصلع، الذي أطلق النار عليه أول الليل لولا لوحة كليبر الرخامية، يلمحه أحد رجال سليم فيصيح بلهجته البدوية، لكن الأصلع يرديه قتيلا برصاصة قبل أن ينطق

كلمة مفهومة، كان سريعا، لذلك أصاب الجميع بارتباك، يقفز بهي خلف أحد الأعمدة، بينما يسحب «سليم» رهينته من شعرها خلف أحد الأعمدة على الجهة المقابلة، يفصل بينهما المذبح، والأصلع الذي شرع يطلق الرصاص باحترافية على صدر رجلين آخرين فيسقطان، ثم رصاصة على صدر الرجل الرابع الذي هجم عليه بِعَتلته رغم إصابته برصاصة، يمسك الأصلع بيد البدوي التي تحمل العَتلَة، بينما يمسك البدويّ كف الأصلع الممسكة بالمسدس، يطلق «سليم» النيران من خلف العمود على المسلح فلا يوفق في التصويب مع الحركة الهستيرية لرهينته، بينما «بهي» عاجز عن الحركة لا يعرف ما ينبغي فعله، يضيق نفسه تدريجيا مما رآه، فعبوره للمذبح بين العمودين قد يصيبه برصاص الأصلع، ووصوله للجهة الأخرى لن ينجي رفيقة رحلته.

تطيح العَتلَة المحصورة بين كفي الخصمين بالمصباح الزجاجي الزيتي من الأعلى فيسيل السائل اللزج، يضرب الأصلعُ بقدمه البدويَّ المصاب، فينجح في إبعاده خطوتين كفيلتين لتصويب مسدسه مرة أخرى نحو صدر ابن القصلة فيسقط سريعا، يصيح «الأصلع» وهو يلوح بالمسدس: «لم يعد هناك داعٍ للمقاومة، سلّمني الشاب والفتاة واخرج سالما، وإلا مت كما ماتَ رئيسك!».

يرجف «سليم» للحظة، فيكمل «الأصلع» بذات النبرة العميقة المهددة: «عبد العزيز فيّاض.. قتلته بيدي».

الحاج فيّاض قُتل! وكأنه يُتّم من جديد، طفل يعود إلى منزله فيجد أن السيل بعنفوانه أطاح بكل ما يملك، لولا أنه تعلم أن النحيب ليس من شِيَم الرجال لانتحب، قتله هذا الوغد، يسأل

نفسه: إذن لمَ أفعل كل هذا؟! من الذي سيسعد حين أبلغه بفرحة أنني قبضت على الشاب والفتاة؟! مَن الذي سيزوجني؟ ما فائدة ما أصنع؟!

لا يتمالك «سليم» نفسه، فيمسك برأس «روث» ويخبطها في العمود المرمري، فتسقط فاقدة الوعي وسط صراخ «بهي» العاجز في الجهة المقابلة.

«لهذا السبب طلبت ألا يتحرك أحد!».

من خلف الظلال المختبئة في الظلام، يبرز الصوت، نصف وجهه أضاءه القنديل القريب بينما بقي نصفه الآخر معتما حالكا كحقائقهم، يكمل الصوت: «لأعرف الخائن».

يلتفت «الأصلع» فيجده «عاكف» يقف على بوابة الكنيسة بصحبة «جمعة»، يقف الرجل الخمسيني مصدوما في رَجُله، يقول: «لماذا فعلت ذ..؟».

لا يجد الأصلع وقتا لتلك الخطابات والمواجهات الجوفاء، ليس في حاجة لإبداء مبرر، فيطلق من مسدسه طلقتين في صدر «عاكف» الذي يعجز عن رفع مسدسه من غمده سريعا فيسقط على صدره، بينما يركض جمعة في فزع، فيتعثر، تسقط من يده كومة مفاتيح تُحدث رنينا على أرضية الكنيسة، فيتركها ويُكمل طريقه خارج الكنيسة.

يُصعق «بهي»، لم يكن الأصلع هنا لإنقاذهما أو تسليمهما! كان خائنا، قتل «عاكف بك»، يقف بين المطرقة والسندان وكلاهما يحمل مسدسه، لا يفكر الآن سوى في «روث»، يحاول «بهي» استغلال انشغال الأصلع بعاكف للعبور إلى «روث»، فيطلق

«سليم» النيران حتى يفرغ رصاص مسدسه من الغضب والألم، ليعاود «بهي» الاحتماء بالعمود، ينتهي «الأصلع» من «عاكف» الذي دخل مسرح الأحداث فجأة، ويلتفت إلى غريمه البدوي فيجد أمامه «سليم» راكضا بسرعة مُشعِلا قداحته، يقفز عليه.

في تلك الأثناء، ركض «بهي» ناحية العمود المقابل، يضع رأس «روث» على فخذه، يهزها، يصفعها بخفة على وجهها، يهزها مرارا، فلا تستجيب، بينما يقع البدوي حاملا في يديه المزهو بقَتْل وليّه في بقعة الزيت. إن كان هذا الأصلع ماهرا في الرماية فهو لا يعلم معنى النار التي يعيش فيها «سليم»! وفي النار تكون الغلبة للبدوي. يلقي بجسده على الأصلع فيسقطان وسط بقعة الزيت مع القداحة التي يتراقص لهبها ثم يستقر في الزيت فيحوله سعيرا ينبش بمخالبه الرجلين اللذين اشتبكا بالأيدي، يتصارعان على أرضية الكنيسة المحترقة، ساقا الأصلع تلتهبان، بينما ينهض «سليم»، تاركا إياه في النار، ينظر له متوقعا ذبوله، ويهرول خارج الكنيسة تاركا كل هذا من أجل إلقاء نظرة على «الحاج فيّاض».

تفتح «روث» عينيها، تستعيد وعيها، تبتسم، فيبتسم «بهي» رغم ما يحيط بهما، يلمح البدوي قد خرج من الكنيسة، ورغم النيران ينهض «الأصلع»، يخلع سُترته، ويخبط بها على النيران المشتعلة في بنطاله فتهدأ قليلا، يميل لاستعادة مسدسه، يمشي وبعض النار في قدمه فيخبطها في أحد المقاعد ليطفئها، بينما يقول بنفاد صبر: «حين أصل إلى طرف العمود سأقتلكما.. إذا لم تخبراني بمكان الخبيئة».

يهمس «بهي» لـ«روث» وهو يضع يدها على كتفه: «هل تقوين على الحركة؟!».

تهز «روث» رأسها بأنها لا تقدر، يحاول «بهي» مساعدتها على النهوض، بينما يقترب الأصلع بثبات، يصل إلى نهاية العمود، يقف في مواجهة «بهي» الذي يحمل «روث» ويقول:

«أين الخبيئة؟!».

ثم يسحب ماسورة مسدسه ويقول: «لن أكرر السؤال.. أين الـ..؟!».

تتطاير الدماء وأشلاء جمجمة الأصلع في وجه «بهي» و«روث»، بقايا عقله اخترقته رصاصة للتو، يمسح المصور أثر ذلك بذراعه بينما يقاوم أن يصاب بضيق تنفس دافعه الصدمة، بينما يهوي الأصلع أرضا ومن خلفه يبرز «عاكف بك» ممسكا بمسدسه بيده بينما ينزع قميصا واقيا من على صدره باليد الأخرى!

يسير «عاكف» بتؤدة بين الجثث في اتجاه المذبح، يبصق على رَجُله الأصلع، بحسرة ومرارة.

(٧)

كالمكلوم يسير «سليم»، تدلت كتفاه ورأسه في حزن بينما انبعثت نيران قليلة من المعطف الذي يرتديه، يسير إلى ناحية سيارة ملاكي صغيرة أمام الكنيسة في الجهة الأخرى من سور البستان، حيث سدود مخر السيل، تبدو السيارة التي جاء بها «عاكف» إلى المكان، لا تناسب الطبيعة الجبلية للمكان لكنه نجح في الوصول بها، يلمح صبيا بدويا صغيرا بداخلها خلف المقود، يفتح «سليم» باب السيارة بيأس وعنف، فيقاومه «جمعة» الذي كان يجلس مرتعدا

مختبئا في السيارة، يحاول الفتى الصغير جذب الباب وإغلاقه إلا أن قبضة المحترق كانت أقوى، ينجح «سليم» في فتح الباب فيدفعه «جمعة» بقدمه من داخل السيارة ليسقطه، يسمع صوت طلقة نارية داخل الكنيسة فلا يعرف مَن تبقّى على قيد الحياة بعد سقوط «عاكف بك»، ينهض «سليم»، فيضغط «جمعة» بوق السيارة بلا توقف وكأنه يصيح، استغاثة فتى أدرك موته، يسحب «سليم» جمعة خارج السيارة ويلقيه ويركب، يبحث عن المفاتيح فلا يجدها، لا يهم، فهو يجيد تلك الأمور.

يرفع «عاكف بك» نظره تجاه المصور والفتاة، علامات الامتنان على وجه «بهي»، بينما يدوي صوت بوق سيارة تضخمه الجبال في الخارج، يلتفت «عاكف» بقلق، الفتى الصغير «جمعة» هناك، والبدوي المحترق الذي قتل رَجُله فرَّ قبل لحظات! ينظر مرة أخرى إلى «بهي» الطريد الذي يبحث عنه طوال ليلة بنهارها، يتحير، يظهر عليه ذلك، فيقول «بهي» في تعب وإنهاك وهو يجلس على المقعد الخشبي للصلاة: «لا مزيد من الهرب والاختباء عاكف بك.. ستجدنا هنا حين تنتهي، يمكنك مطاردة ذلك الملعون».

في نبرة «بهي» صدق ووهن، يهز «عاكف» رأسه بأنه يصدقه، ويلتفت راكضا بخفة بين الجثث حاملا مسدسه، يتعجب المصور مرة أخرى كون «عاكف» أكثر البُدن الخمسينيين رشاقة. يدفن وجهه بين يديه ويحاول أن يضبط نَفَسه المضطرب.

يتجاوز «عاكف» بوابة الكنيسة ثم يقطع الأمتار الباقية إلى باب دير الأربعين شهيدا في ثوانٍ معدودة بينما يلحظ «جمعة» واقعا على الأرض بلا حيلة، ومحرك السيارة يهدر، بداخلها الفتى المحترق

الذي قتل رَجُله، تتحرك السيارة فيزيد «عاكف» من سرعته وهو يلهث، يجاور السيارة ثم يقفز على الشباك الأيمن المفتوح، فيصبح نصف مُعلق، يراه «سليم» فيزيد من سرعته، تجرجر السيارة قدميه على الأرض الصخرية، لا يستطيع الرجل الخمسيني رفع جسده إلى الأعلى، يدرك الآن أن سِنه ولياقته لم تَعُودا كما كانتا، تفلت إحدى يديه التي تحمل المسدس، بينما تتواثب السيارة بفعل السرعة والطريق الوعر الذي يطل على جرف، ينظر «سليم» إلى الإطارات التي ستدهسه لو أفلت، بينما ينطلق البدوي بجوار حجر موسى، هنا تفجرت المعجزة بعصاه، يأمل «عاكف» في معجزة مماثلة حين يحدث الانفجار، ينطق الشهادتين ويضغط بسبابته زناد مسدسه نحو الإطار الأمامي للسيارة، فينفجر بقوة، محدثا خللا في توازن السيارة المسرعة يلقي «عاكف» بجسده بعيدا بينما تنقلب السيارة في الجهة الأخرى عدة مرات نحو جرف مطل على مخر السيول، بداخلها يصطدم «سليم» عدة مرات قبل أن تتوقف السيارة على أحد جنبيها، سقفها على حافة الجرف.

يحاول البدوي التحامل على نفسه والخروج من شباك السيارة رغم آلامه المبرحة، بينما يستند «عاكف» على ذراعه اليسرى، يبدو من أثر السقوط أنه يعاني من كسر في اليمنى، ينهض أخيرا، بينما يبرز رأس «سليم» من الشباك الجانبي، يمسك عاكف مسدسه ويطلق النار على خزان البنزين؛ طلقة.. يشب «سليم».. الثانية.. خصره خارج الشباك، الثالثة.. فتنفجر السيارة، يحتضن هذا الجحيم المستعر جسد سليم، بينما تتزحزح السيارة بفعل الانفجار فتسقط من فوق الجرف المرتفع الوعر على صخور الوادي الفسيح التي تباينت ألوانها بفعل النيران بين الأحمر والأسود.

لا يدري «سليم» لماذا تذكر وهو يسقط في الهاوية المحترقة لوحة سلم الفضائل وكتاب يوحنا السلمي! لا يدري لماذا طافت بعقله في هذا الجحيم النهائي كلماتُ القديس:

«نحن الذين سقطنا في جب الآثام لن نقدر على الخروج من هناك ما لم نهبط إلى لجة تواضع التائبين».

(٨)

تمرر «روث» يدها على كتف «بهي» مواسية، فيرفع رأسه تجاهها، تتحسس بيدها الأخرى رأسها فتجد خيطا صغيرا من الدم، يشير إليه فتطمئنه نظراتها وتقول: «لا بأس يا عزيزي»، ثم تستدير ناحية باب الكنيسة وتردف: «سنحتاج إلى أخذ حذرنا حتى يعود عاكف»، تتجه إلى البوابة وتغلقها رغم ثقلها، فتنجح في مواربتها قليلا، تنظر ناحية «بهي» الذي يضع يده على صدره مُنظمًا الصراع المحتدم بين شهيقه وزفيره، تقول مشيرة للجزء الموارب: «أفضل ما يمكنني فعله!».

تعود حيث رفيقها وتجلس في مواجهة بهي الذي يجلس على المقعد الذي زحزحه، بجوارها على الأرض يرقد «الأصلع»، تتحاشى النظر له، فيلمحها «بهي»، تسأل مستاءة: «هل سنبقى وسط تلك الجثث حتى عودة الرجل؟!».

يغمض «بهي» جفنيه بمعنى لا مفر من القدر، القدر الذي جمعهما في ليلة طويلة عاصفة بالأحداث، لولا «روث» التي اقتحمت حياته لكان في غرفة مظلمة يتم استجوابه طوال الليل

من «عاكف بك»، أو قد يقع حظه مع رجله الأصلع الخائن، تكسر «روث» الصمت وتقول وهي تنظر إلى الصليب البرونزي الساحر: «ليت محمولي يعمل، لكنا ترجمنا الكتابة الموجودة على الصليب ومعرفة ما يخبئه لنا!».

تلمع عينا «بهي»، يتحامل على نفسه وينهض ويده لا تزال على صدره، يجر المقعد الطويل بجوار الصليب مرة أخرى، ويقول بطريقته الاستعراضية التي تجعله يستعيد حيويته: «لسنا في حاجة إلى ترجمة!».

تنظر له «روث» بدهشة، فيقول: «فأنا أعرف المكتوب!»، يسألها وهو يبتسم: «هل تدرين ما قد يخبئه لنا القدر؟».

ترد «روث»: «لا أؤمن كلية بالقدر يا بهي».

يعلق باسما وهو ينظر لها بهدوء: «وبمَ تسمين لقاءنا غير المحسوب ليلة الأمس؟!».

تبتسم ابتسامة ساحرة، تضع أصابعها في شعرها الأصفر القصير، وتنكسر نظرتها في هدوء محبب، يدفع «بهي» للالتفات لإشباع فضولهما، يدير ظهره لها ويضع يده على الصليب متحسسا كتاباته ويكمل: «وَحَدَثَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ لَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ أَنَّهُ صَارَتْ رُعُودٌ وَبُرُوقٌ وَسَحَابٌ ثَقِيلٌ عَلَى الْجَبَلِ، وَصَوْتُ بُوق شَدِيدٌ جِدًّا. فَارْتَعَدَ كُلُّ الشَّعْبِ الَّذِي فِي الْمَحَلَّةِ، وَأَخْرَجَ مُوسَى الشَّعْبَ مِنَ الْمَحَلَّةِ لِمُلاَقَاةِ اللهِ، فَوَقَفُوا فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ، وَكَانَ جَبَلُ سِينَاءَ كُلُّهُ يُدَخِّنُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ الرَّبَّ نَزَلَ عَلَيْهِ بِالنَّارِ، وَصَعِدَ دُخَانُهُ كَدُخَانِ الأَتُونِ، وَارْتَجَفَ كُلُّ الْجَبَلِ جِدًّا».

تعقب «روث»: «سِفر الخروج!».

ثم تضيف: «لكن هذا لا يعني شيئا ولا يفسر ما يخفيه الصليب!».

يقول «بهي»: لأن الرسالة كانت واضحة يا روث: معلق على الصليب لكنه ليس المسيح، ينظر إلى نور الرب. ها هو ذا الصليب، لكن موسى لا ينظر إلى نور الرب، حين خلع نعليه يجب أن ينظر في اتجاه الجبل، وهو ما يعني...».

يدير الصليب حول محوره في اتجاه عقارب الساعة حتى تصبح نقشة النبي في اتجاه جبل موسى، فينفتح درج معدني في قاعدة الصليب مُصدرًا صوت طقطقة، ينظر له «بهي» بانبهار، لقد قاده «بافلوس» إلى تلك النقطة الأخيرة، أو كان ذلك بفعل المصادفة، لا يهم تسمية ذلك الآن أو ما تعتقده رفيقته في هذا الصدد، يمد «بهي» يده ليُخرج ما فيه، ويلتفت متهللا نحو فتاة شاركته هذا القدر والمصير: فتاة تمناها الجندي الإسرائيلي ديفيد من أحشاء حبيبته شايا، ومنعهما القدر عنها، فتبنياها، وأحسنا تربيتها، فتاة زارت معهما الدير صغيرة فاصطدمت بكتاب أبيض صغير داخل البازار، فتاة عاشا معها لسنوات قليلة قبل أن يُقتلا في أحد التفجيرات، فتاة صغيرة وجدها قائده «موشيه سيلا» ـ القائد والصديق ـ يتيمة مرة أخرى، فاحتضنها، وعلّمها، وساعدها على السفر لدراسة الفصائل المنقرضة حتى حصلت على الماجستير، وأسهب في أذنها منذ الصغر بحكايات الدير والتراب المقدس القادر على بث الروح، فتاة امتلكت دهاء أبويها بالتبني، ونفوذ «سيلا» حتى بعد رحيله ففُتحت لها المكتبات والغرف المغلقة، وحضرت تحقيقات كيدية لطائفة السامريين التي تقاوم الانقراض، فتاة ذات شعر أصفر طويل

قَصّته فازدادت جمالا وسحرا، تهوى اللعب بالأحاجي وتتمكن من حل المربعات السحرية المعقدة والشفرات في دقائق، وكانت قبلا تمسك بمكعب «روبيك» في أوقات فراغها داخل متحف «جيتي»، نفس المكعب الذي لم يغب عن بال الكاهن السامري «يوسف واصف»، فيعاود الاتصال بها بعد يومين من التحقيق معه، ليخبرها أن ما تبحث عنه يمكنها أن تجد علامات عليه في معرض داخل متحف «جيتي» ويقام هذا العام في مدينة «لوس أنجلوس»، وأن حراس الخبيئة سيتواجدون مع المعرض. تشكره، وتستعد للسفر، وتحرص ألا يراها حراس الخبيئة.

فتاة غيرت من هيئتها، لبست نظارة سميكة، صبغت شعرها باللون الأسود، وجلست على كرسي مدولب، وقضت ساعات كثيرة تتأمل المعروضات وتحللها بصحبة الأطفال، تلمح «بافلوس» ولا تدرك أنها بعد أقل من عام ستدخل مكتبة كباحثة بيئية تسجل الأنواع والفصائل الحيوانية في سيناء، فتاة ظنت أن مهمتها مع هذا المطران الداهية المنغلق ستكون سهلة، تقضي عدة أشهر ولا تصل إلى ما تريد، فتغير استراتيجيها لتزرع عيونها.

فتاة نجحت في وضع جهاز تنصت لـ«بافلوس» في غرفته، فتاة هي محور المكالمة التي وصلت لـ«عاكف بك» للتو من القاهرة.

«لقد راجعت الرقم الذي حصلت منك عليه يا عاكف بك، تم شراؤه قبل ليلتين فقط، بجواز سفر لفتاة تحمل اسم روث ديفيد، هذا الهاتف لم يبعث سوى رسالة نصية ليلة أمس لرقم آخر هو أحمد حسن بهي، ولم يستقبل أي رسائل صوتية أو مكتوبة، لا أحد يعرف هذا الرقم من الأساس ليتصل به، أمر آخر يا بك.. لا يوجد

أي خط محمول في سيناء بالكامل به اسم بافلوس كاسم أول أو أوسط أو عائلة».

فتاة يدرك «عاكف بك» الآن أنها كذبت عليهم، واستدرجت المصور ليثق بها، فتاة تركها بمفردها معه في كنيسة الأربعين شهيدا، يظن المصور أن القدر جمع بينهما.. لكن لا قدر ولا مصادفات!

فتاة اختفت البراءة من وجهها بمجرد التفات «بهي» لها بعد فتح الصليب، فتاة تحمل مسدسًا ملقى على أرض الكنيسة وتصوبه بهدوء في وجه بهي وهي تقول:

«قلت لك.. لا أؤمن بالقدَر أو المصادفة لهذا الحد يا بهي!».

(٩)

لا تركض..

لا تركض مولانا بافلوس.. ففي هذا البرد القارس والثلج المنتشر تعرف ما قد يحدث لرئتيك.

وهل تظنني نسيت يا بني؟! أنا مَن علّمتك ذلك.. دعني أفعل ما أراه صحيحا.. فأنت لا تعرف ما أعرفه، ولا تشعر بما أشعر به، هذا الانقباض غير المُفسَّر حين رأيت الفتاة للمرة الأولى.. «روث»، هكذا قالت اسمها، تعمل في مكان ما أسسه فيما سبق الاحتلال لتوثيق الكائنات التي عاشت في سيناء، هكذا قالت أيضا، لكنني لم أسترح لها، فضولها غير مبرر، تسللها بين الأرفف بمجرد غيابي لدقائق عن المكتبة، ثم نوبات النعاس الخاطفة لي أثناء العمل بالمكتبة، حين

حدثت طبيبي أخبرني أنه السن، لكنني أقوى من السن، وكأنني أُحقن بمصل مخدر.. هل تدرك ذلك الشعور؟

أحسست به ليلة أمس.. حين تم اقتيادي إلى المعضمة.

إنهم - يا بهي - يقتربون أكثر من الخبيئة التي حافظ عليه مئات الرهبان لقرون طويلة، يحمون الدير بأجسادهم، ويحفظون أسراره بجثثهم.

مَن هم مولانا بافلوس؟

لا أعلم، الظلال والأشباح، أشعر بها، ربما ليسوا شخصا واحدا، كلٌّ يبحث بطريقته، ومن حولي غافلون، أخاف أكثر بسبب غفلتهم، إلا أن أكبر مخاوفي هي «روث».. لذا دعني أركض يا بهي.. فقد بصرت ما لم يبصروا به!

كيف بصرت العالَم يا بافلوس؟!

أحمر كالجحيم.. تريتانوبيا.. لا أصفر ولا أزرق، فقط اللون الذي تسميه لديك ما...

ماجينتا يا مولانا.

هو ذلك.. تريتانوبيا.. الذهب الذي تلامسه سنابك فرس ملاك الرب فيتوهج كالحمم في أعيننا، النور الذي يضيء ظلام التائه في جبال فلا ندركه سوى نار مُوقدة، والرطبة الصفراء التي تتماثل أمامنا كالجمرة المشتعلة.

ابتلاء الرب..

وهِبَته أيضا.

منحها للعصيّ

بل منحها لقلة من البشر، وهم مَن اختاروا طريقهم: أنبياء أو عصاة.

ألم تحزن يا بافلوس على هذا العيب الخلقي؟!

الرب لم يخلقنا منقوصين يا بني.. أوَلَمْ تنقذ موسى لعثمته من فرعون؟!

وماذا بصرت أيضا؟

جهاز تسجيل في مخدعي، أصبحوا يتنصتون على همساتي الآن، سأتركهم يعتقدون جهلي بالأمر، سأكمل الأمر، سأجاريهم، سأصرح بخوفي، سأصلي بلغة يفهمونها، سأتضرع إلى الرب بالإنجليزية.. سأذكر اسمك في تلك الصلوات.

«لم أعد أثق في أحد.. يا رب، حتى تلك المسماة روث.. الآن أكثر من أي وقت مضى يحومون حول الشيء ويريدونه.. حسنا سأخفيه يوم القداس، لن يعرفوا مكانه.. أحتاج إلى الشخص المناسب ليساعدني.. أين أنت الآن يا بهي؟».

لقد سمعت هذا الكلام ليلة أمس لكنني لا أذكره.. ديجافو.

ليس ديجافو.. فلتتذكر أيها الأحمق!

آه.. رسالة روث الصوتية على هاتفها المحمول:

«لم أعد أثق في أحد..»، ثم صمت يطول.. «روث.. الآن أكثر من أي وقت مضى يحومون حول الشيء ويريدونه..»، صمت يطول أكثر.. «أحتاج إلى الشخص المناسب ليساعدني»..

لقد أعادت مونتاج ما سجلته لتوقع بي.

الآن فهمت يا بني.

لا تركض مولانا بافلوس.. فلن يغير ذلك من الأمر.

بل سيغيره كليا يا بني، سأتحول إلى تلك النار التي أراها، الضوء الجاذب للحشرات السامة، موتي المفاجئ سيربك الأمر ويعقده، سيسارعون في الظهور من جحورهم لعلهم يقتنصون لحظة غيابي في تحقيق ما عجزوا عنه في وجودي، سيلتفون حول شاب لا يعلم عن الأمر شيئا، لكن فضوله سيجعله يبحث في تلك الرسائل الخفية، طُعم يجرون خلفه، حينها يمكن اصطيادهم.

أجَذَبْتني إلى هنا دون علمي يا بافلوس كطُعم؟!

ومَن غيرك أثق فيه يا بني.. مَن غيرك سيغريه البحث في بقع تاريخنا علّه ينسى دنس تاريخه؟

لا تركض مولانا بافلوس.. فأنا أحبك.

وأنا أيضا يا بهي.. لكن الوقت قد حان، قاربت الساعة على العاشرة والربع.. إنه الوقت المحتوم.

إنها مهمة انتحارية يا بافلوس!

وإن يكن يا بني.

لكنك بهذا مولانا تصبح..

قلها.. قلها يا بني ولا تخجل.. عصيّ، لا أعرف، لقد قتل موسى شخصا.. وضرب أخاه الأمين.. وترك صحبة الخضر العليم، لكنه أكمل في طريقه إلى خالقه بحثا عن الكمال والعصمة، وهو ما أنشده، فالعصمة ليست هِبَة يا بني.

لا تركض يا بافلوس.. فماذا أفعل بدونك؟!

تركض يا بهي.. تركض بأقصى سرعتك من أمام مسدس «روث»!

(١٠)

لكن «بهي» لا يقوى على الهروب، تباغته أزمة الصدر فيضيق نفَسُه، يرفع رأسه مجاهدا في الحصول على هواء فيعلو صوت شهيقه، تصرخ فيه «روث»: «ناولني ما بداخل الصليب».

يفتح «بهي» يده فتسقط منها رسالة صغيرة وفيلم تصوير لكاميرا فوتوغرافيا، يقعان على الأرض، تثني «روث» ركبتيها وتقرفص لتلتقطهما وهي لا تزال تصوب مسدسها إلى المصور الذي لا يحتمل أزمة صدره أكثر فيسقط على الأرض، يسعل مرارا، ويجاهد لفتح مسام صدره. لقد مر «بافلوس» بذلك حين قرر أن يركض في البرد نحو البستان، يفكر «بهي» في ذلك وهو يقاوم ألا يفقد وعيه أو تزوغ عينه.. ففي كليهما نهايته واستسلامه.

في النهايات يرى المقبل على الوفاة لقطات سريعة للحظات حياته تُهوّن عليه هذا العبور، هكذا أخبره «بافلوس» قديما، يتساءل هل مرت أي ذكرى لهما أمام عينَي الكاهن العليلتين ليلة أمس؟ يرى «بهي» والدَه؛ «حسن بهي»، أول مرة يمسك فيها بالكاميرا الخاصة بوالده وهو صغير، يعلق حاملها القماشي على رقبته فتميل رقبته الصغيرة من ثقل آلة التصوير، لحظة أن اشترى له والده كاميرا فيلمية وقت طفرة الكاميرات الرقمية، بنزق الشباب يتبرم فيخبره والده أن الكاميرات الرقمية كالسيارات ذات نواقل السرعات الأوتوماتيكية يستخدمها الهواة وليس محترفو السباقات، لحظة أن تعلّم تحميض الصور بنفسه فطبع لوالده صورة ضخمة زينت غرفة استقبال منزل الوالد حتى رحل الابن عنه راكضا خائفا من

مواجهته بجرمه، لحظة أن.. يبتسم قليلا، كل اللحظات التي تمر من أمام عينيه وقت النهاية لأبيه فقط، لقد عاش كل عمره يهون الرحلة عليه، آه لو يتاح له سماع صوته للمرة الأخيرة.

تترك «روث» المصور يستعد لاستقبال ملاك موته، وتنشغل بفتح الرسالة التي كانت بالإنجليزية، تقرؤها فيتغير وجهها، تقرفص وهي تمسك بشعر «بهي» وتقول غاضبة: «فلتخبرني ما هذا!».

كانت الرسالة بخط «بافلوس» المنمق، على ورقة بيضاء عادية صغيرة لاصقة كالتي تُستخدم في أرشفة كعوب الكتب بالمكتبة، كتب فيها: «إن كان هذا أنت يا بهي، فأتمنى أن تكون استمتعت برحلتك. الكنز في أمان، ذكّرَتني صورك بأماكن لم يطئها جسدي من قبل، فشكرا لك.. هذا الفيلم من نصيبك الآن».

تقرأ «روث» عليه الرسالة وهي ترفع الفيلم أمام الضوء، ٣٦ صورة تعرفها جيدا، كان بهي يحملها طوال الليل، تضم أماكن مختلفة للدير بأكمله، أماكن شائعة وعامة، تصرخ فيه: «ما هذا؟!».

يقهقه «بهي» فيؤلمه صدره، ويقول: «ألم تفهمي بعد يا روث؟! لقد فعل كل ذلك للإيقاع بمَن تساوره الشكوك ناحيتهم».

تنهض «روث» في هستيريا، تتحرك لتقف على المقعد الخشبي المجاور للمذبح، تمد يدها في الدرج فلا تجد شيئا آخر، فهو درج صغير لا يحتمل أن يُخفَى بداخله المزيد، بغضب وغيظ تدفع الصليب الضخم من فوق قاعدته، فيتهاوى بثقله مع القاعدة إلى الأسفل، يتلوى «بهي» قليلا وهو يسعل حتى لا يصدمه الصليب البرونزي المقرن فيقتله، يسقط أخيرا الصليب فينكسر عن قاعدته ويهتز للحظات محدثا رنينا قويا، بينما تهبط «روث» لتفتش الصليب

ربما احتوى على كوة خفية، يقول «بهي» وهو لا يزال باسمًا شامتًا: «لقد خبأ التراب، أو ربما كان مخبأ من ذي قبل، في مكان بين الصور الموجودة، أي في أركان الدير بأكمله، تحتاجين إلى جيش كامل لتفحُّص تلك الأماكن.. لقد فعلها العجوز!».

تنهض «روث» بغل وتركل رأسه بقدمها فتنكسر سن «بهي» وتتطاير لتخرج الدماء من فمه، في الوقت الذي تسمع فيه «روث» صوتا عند الباب يقول بلغة عربية مكسرة:

«هل أنت بخير يا بهي؟!».

تستدير فتجد على البوابة المترجم نستور والكاهن «ثيودلوس» مستندا على عكاز بوهن ويمسك في اليد الأخرى جهاز إرسال لاسلكي، يتنصت على رجال عاكف ليشاركهم معلوماتهم، فيطمئن على موقع المصور، ويتحرك مع المترجم وحدهما في الليل وقت أن أمر عاكف رجاله بعدم التحرك. لا تنتظر «روث» فتتحرك يملؤها ذات الغضب، وتطلق رصاصة تصيب كتف نستور، فيمسك كتفه ويتنحى جانبا، بينما تجذب «ثيودلوس» بيمينها من شعر رأسه، وبيسارها من لحيته وهي تقول: «أخبرني أيها العجوز.. أين تراب السامري؟».

يتأوه «ثيودلوس» ويقول: «وحده بافلوس من جيلنا يعرف.. هو العين والحارس».

تستمر «روث» في جذب لحيته حتى يسقط عكازه، تضع الفتاة الغاضبة فوهة المسدس بالقرب منه وتصرخ: «إذن فلتذهب إلى الجحيم وتسأله هناك!».

ينهض «بهي» متحاملا على آلامه وهو ينظر إلى الفتاة ممسكة

بأسقف الدير، يرفع الصليب الثقيل، يمسكه من الأسفل، يعمل البروز في رأس الصليب كحربة، بل كحربتين، ويركض مسرعا، يركض كما أمره «بافلوس» من قبل، يصدر الصليب الثقيل صريرا في الأرض، تلتفت «روث»، فتجد قرنين مدببين في مقدمة الصليب ينغرزان في صدرها. يكمل «بهي» بما تبقى له من قوة بدفع الصليب أكثر داخل جسدها ويرفعه فتُعلّق الفتاة في الهواء، تباعد بين ذراعيها في محاولة للتملص، بينما يكمل «بهي» الضغط وهو يزوم في غضب وعنف، حتى تجحظ عيناها أخيرا وهي معلقة على صليب موسى، يسيل الدم على الضلع الرأسي فيملأ نقوش سِفْر الخروج ويميل في اتجاه كفي «بهي» الذي لا يزال قابضا على الصليب، إلى أن يشعر أخيرا بأن صدره لم يعد يحتمل، وأن عينيه توشكان على الانغلاق إجباريا، بصورة مشوشة يلمح «عاكف بك» يركض إلى داخل الكنيسة، قبل أن يُغشى عليه تماما، ويتحول عالمه إلى اللون الأسود.

(١١)

تنسل شمس الظهيرة من الشباك الخشبي الصغير فتجبر «بهي» على فتح عينيه، بألم وإرهاق، ينظر إلى السقف، ثم يميل بثقل عن يمينه إلى حيث الشباك، السرير المُرتب النظيف، والأثاث البسيط، إنه بإحدى غرف الضيوف داخل الدير، يلتفت يسارا فيجد «عاكف بك» واقفا بجوار الباب، يقول «عاكف» بهدوء: «يبدو أن المطران إيوانيكيوس يقدّر ما فعلته.. لم يوافق على أن تتم رعايتك في غرف الضيوف!».

يفتح «بهي» فمه فيشعر وخزا قليلا في صدره، يزول بمجرد أن ينطق: «إذن أين أنا يا عاكف بك؟!».

ـ «غرفة الكاهن الشهيد بافلوس».

يتحسس «بهي» الغطاء، يندهش، سمحوا له بالمبيت في غرفة راهب! يعتدل في جلسته فيقترب «عاكف»، يسأله المصور: «هل أنا مطلوب للتحقيق في قتل روث؟!».

بجدية يقول «عاكف» كأنه يُبلغ تقريرا كتبه مسبقا: «لقد تمت تصفية العناصر الخارجة التي قتلت الباحثة البيئية.. سيصدر بيان بذلك إلى سفارتها مع أسفنا لموتها».

لا يفهم «بهي» جيدا فيقترب منه «عاكف» ويقول باسما للمرة الأولى منذ التقاه: «التاريخ مجرد رواية.. دعني أسردها والتزم بنصها».

يهز «بهي» رأسه وينظر إلى الكومود المجاور، عليه تستقر رسالة «بافلوس» والفيلم الفوتوغرافي، يعلق «عاكف»: «رأى ثيودلوس أنك الأحق برسالة بافلوس الأخيرة للذكرى».

يُخرج الفتى قدميه من أسفل الغطاء ويجلس على حافة السرير ويمد يده اليسرى ويقبض على الرسالة والفيلم؛ فيهما رائحة «بافلوس» وذكراه، يسمع صوت أذان يصدح بدون مكبرات في الخارج، تضخمه جدران الساحة، يندهش «بهي»، فعلى الرغم من وجود المسجد لم يُسمع أو تذكُر كتب التاريخ والرحالة أن أذانا سُمع في الدير قط، ينظر «عاكف» تجاه الشباك ويقول: «الدير مغلق اليوم أمام الزوار.. هذا الأذان لصلاة الظهر وإقامة صلاة جنازة بعده على روح أبي عمران.. هل ستشارك؟».

يهز «بهي» رأسه، ويتلفت حوله باحثا عن حمّام، بينما يخرج «عاكف»، يتذكر شيئا، يتوقف عند الباب، يستدير ويقول وهو يُخرج محمول «بهي» من جيبه ويناوله للمصور: «آه، نسيت.. ربما قلق عليك أحد».

يمد «بهي» يده إلى «عاكف»، يتذكر والده الذي لازمه لحظاته الأخيرة، ينظر إلى المحمول الذي يقاوم الوفاة هو الآخر، تتلون بطارية شحنه بعلامة حمراء صغيرة تومض ومضات متقطعة، يتردد.. هل حان الوقت للاتصال بأبيه؟ يقاطعه «عاكف» وهو يرحل ألا يتأخر على الصلاة.

على مدخل المسجد وقف الرهبان والشمامسة في صفين متقابلين يضم كل منهم كفيه على بطنه، وينكس رأسه، بينما يسير بدو الجبالية حاملين نعش أبي عمران، يلقون عليه نظرة الوداع الأخيرة، يوسم «إيوانيكيوس» صليبا في الهواء بمجرد مرور الجثة المحمولة من أمامه، يدخل البدو، ومعهم بعض رجال «عاكف».

يقف «بهي» في الصف الأخير لصلاة الجنازة، يضع في جيبه الأيسر المحمول الذي يُصدر رنة حادة تعلن أنه بحاجة إلى إعادة شحنه وإلا توقف عن العمل، بينما يضع الرسالة والفيلم في جيبه الأيمن، يلمح في الصف الأول شابًا عشرينيًا يقف محاولا التماسك، يميل على النعش ويُقبل خشبه، لا بد أن هذا «عمران»! بينما يواسيه ويربت على كتف الشاب «عاكف بك»، يكبر الإمام التكبيرة الأولى، فيقرأ «بهي» الفاتحة، أربع تكبيرات لم يشهدها هذا المسجد من قبل، يستحقها «أبو عمران»، من أجله كسر

«إيوانيكيوس» بروتوكول وتقاليد الدير، والذي لولا دماؤه البدوية التي تنتمي للفلاخ لكان الدير نسيًا مَنسيًّا.

يكبر الإمام تكبيرته الثانية.. يفكر «بهي» أن وجوده على قيد الحياة أعجوبة، ربما في ظروف أخرى لوقف والده اليوم يصلي عليه الجنازة، يستحق هذا الرجل منه اتصالا، سيُجربه أول ما ينهي الصلاة.

في التكبيرة الثالثة.. ينتحب صوت «عمران» بين المكبرين فيقشعر «بهي»، يتذكر.. يحمل بهي للابن رسالةً يجب توصيلها، لماذا ترك له كل الراحلين رسائل؟! سيخبر عمران أن والده شجاعا بحق.. وثق فيه وقت خاف الجميع وحماه وحفظ الدير بروحه، مثل كل رهبان الدير الذين حفظوا أسراره.. ينير عقله بكل ما قاله له «بافلوس» في هذا الصدد كثيرا:

«كيف تعرفهم يا بافلوس؟

وكيف لا؟! المكان يذكرهم ويعيش لهم كما عاشوا فيه طوال أعمارهم، وبقاياهم حفظت أسرار الرب والدير، فحفظهم الدير هو الآخر داخله، وحفظتُهم بالتبعية في قلبي ووجداني».

التكبيرة الرابعة.. يدعو «بهي» للجبالي الشجاع، كذلك يدعو لـ«بافلوس»، يمكنهما أن يستريحا الآن ويطأ جسماهما كما قال «بافلوس» أماكن لم يطآها من قبل.. الجنة باتساعها.

«لقد كان بافلوس يجيد العربية والإنجليزية واليونانية ويختار كلًّا منها لسبب وجيه».

يسلم «بهي» عن يمينه، يحملق قليلا في الفراغ، يتحرك مسرعا

مستبقا الموكب الجنائزي إلى الخارج، يلاحظه الجميع، يرى «عاكف» أن الفتى لم يحتمل المزيد من الجنائز ورائحة الموت بعد ليلة الأمس، بينما يهرول المصور في اتجاه البستان، يخرج من الباب الغربي، يتنفس الهواء العليل، يُخرج هاتفه المحمول وينظر فيه، يقنع نفسه أن جهازه سيصمد حتى ينتهي ويعاود الاتصال بوالده.

«إن كان هذا أنت يا بهي، فأتمنى أن تكون استمتعت برحلتك، الكنز في أمان، ذكّرتني صورك بأماكن لم يطئها جسدي من قبل، فشكرا لك.. هذا الفيلم من نصيبك الآن».

لقد كان «بافلوس» يعرف الدير، كل شبر وكل ركن، وطئت قدماه كل بقعة فيه، إلا أن جسده لم يطأ مكانًا بعد كما قال، يركض «بهي» إلى أن يصل إلى مبنى «الكميتريون» (المعضمة) فينزل سلالمها على عَجَل.

«ألن تخبرني لماذا غضبت من الصور مولانا بافلوس؟
لا».

في الداخل يستقر هيكل القديس إستيفانوس حارسا للعظام في ردائه الأسود المهيب، داخل هيكله الزجاجي إلا أنه يُشعر «بهي» بأنه قد يمد عظام كفه ليلقي السلام عليه، في الوقت الذي تتراص الجماجم كما كانت لمئات السنين دون أن تتزحزح، على يسار «بهي»، يُخرج الرسالة من جيبه الأيمن:

«إن كان هذا أنت يا بهي، فأتمنى أن تكون استمتعت برحلتك، الكنز في أمان، ذكّرتني صورك بأماكن لم يطئها جسدي من قبل، فشكرا لك.. هذا الفيلم من نصيبك الآن».

يفتح الفيلم أمامه ويرفعه إلى أعلى حيث الضوء، يبحث عن الصورة التي مزقها «بافلوس» في المرة الأولى حين أهدى له المجموعة.

«مزق الصورة الأولى أمامي، للمصادفة كانت للمعضمة التي نقف بها الآن، وأخبرني أنه سيحرق بقيتها!».

ها هي ذي، حجرة الجماجم في المعضمة، قريبا ستستقر جمجمة الراهب في قمة الهرم، ليلتحم مع سابقيه.

«إنهم - يا بهي - يقتربون أكثر من الخبيئة التي حافظ عليه مئات الرهبان لقرون طويلة، يحمون الدير بأجسادهم، ويحفظون أسراره بجثثهم».

إلا أنها المرة الأولى التي يلحظ «بهي» من قبل هذا الوهج الناري الظاهر قليلا في فيلم التصوير، أو كما يبصره «بافلوس»، يخرج من أسفل الجماجم، البساط الترابي الذهبي الخفيف الذي تستقر عليه جماجم الرهبان.

«تريتانوبيا.. الذهب الذي تلامسه سنابك فرس جبريل فيتوهج كالحمم في أعيننا، النور الذي يضيء ظلام التائه في جبال فلا ندركه سوى نار مُوقدة، والرطبة الصفراء التي تتماثل أمامنا كالجمرة المشتعلة».

أخيرا أبصر «بهي» بما لم يبصروا به، فابتسم، قبل أن يلتفت فيجد «عاكف بك» واقفا على مدخل المعضمة، ينظر الرجل الخمسيني للفتى الذي يعشق الاستعراض فيما يتعلق بالتاريخ، الطريد الذي

خرج من الدير لأنه اقتنع مسبقا أن كل ما يعرفه يجب أن يقال، يسأل «عاكف»:

ـ «هل هناك خطب يا بهي؟!».

يرد المصور بهدوء: «فقط كنت أتساءل: هل سأعرف جمجمة بافلوس حين أشاهدها داخل المعضمة في المرة المقبلة؟».

يتحرك وهو يحرك يده على السلك الفاصل وكأنه يُطمئن الجماجم والهياكل بداخله على سِرهم، يخطو إلى الخارج، يسير في البستان، أمام ناظريه الدير ومستقبله، وخلفه مبنى المعضمة وتاريخه، وبينهما سر يجب إخفاؤه كما كان دوما!

يُخرج هاتفه المحمول ليصحح مسار تاريخه الذي طال تحريفه، يعانده الجهاز ويعلن عن سُباته وموته.

تمت

- لمتابعة المزيد من صور ووثائق الرواية عبر حساب الكاتب على مواقع التواصل الاجتماعي:

#صليب_موسى

Haithamdabbourofficial/

haithamdabbour/

-

haitham_dabbour/

www.haithamdabbour.com

صليب موسى

«ولماذا كل تلك النواهي؟
أوَلَمْ تكن أغلب وصايا الرب العشر لكليمه موسى نواهي؟ ثماني تحديدا. أولمْ يفعلها مع آدم وحواء في شجرته المباركة؟ النهي أسبق دائما من الأمر وأشد أهمية، ففي فعله يحدث الجُرم أو الخلل أو المعصية، أما الأمر المنسي ففي عدم فعله ضرر أقل، وذنب يجوز تكفيره أو تداركه».

في إحدى ليالي ديسمبر الثلجية، يتم استدعاء المصور الثلاثيني «بهي» المرتبط بتاريخ طويل مع دير سانت كاترين للتحقيق في وفاة غامضة للراهب اليوناني «باڤلوس» المسئول عن مكتبة الدير ومخطوطاتها النادرة، ليكتشف «بهي» بمساعدة البدوي أبي عمران ووثائق الدير النادرة العديدَ من الأسرار الخطيرة.



هيثم دبور: كاتب وسينارست وشاعر مصري، تخرج في كلية الإعلام، كتب للسينما فيلمَيْ «فوتوكوبي» و«عيار ناري»، اللذينْ حظيا باحتفاء نقديّ، ونجاح جماهيريّ، له كتابات قصصية والمقال الساخر وشعر العامية، أبرزها «ضهر الفرس»، و«إثني خيال»، و«أول مكرر»، و«يأكلهن سبع عجاف»، نال عن مؤلفاته وأفلامه عددًا من الجوائز.

دار الشروق
www.shorouk.com